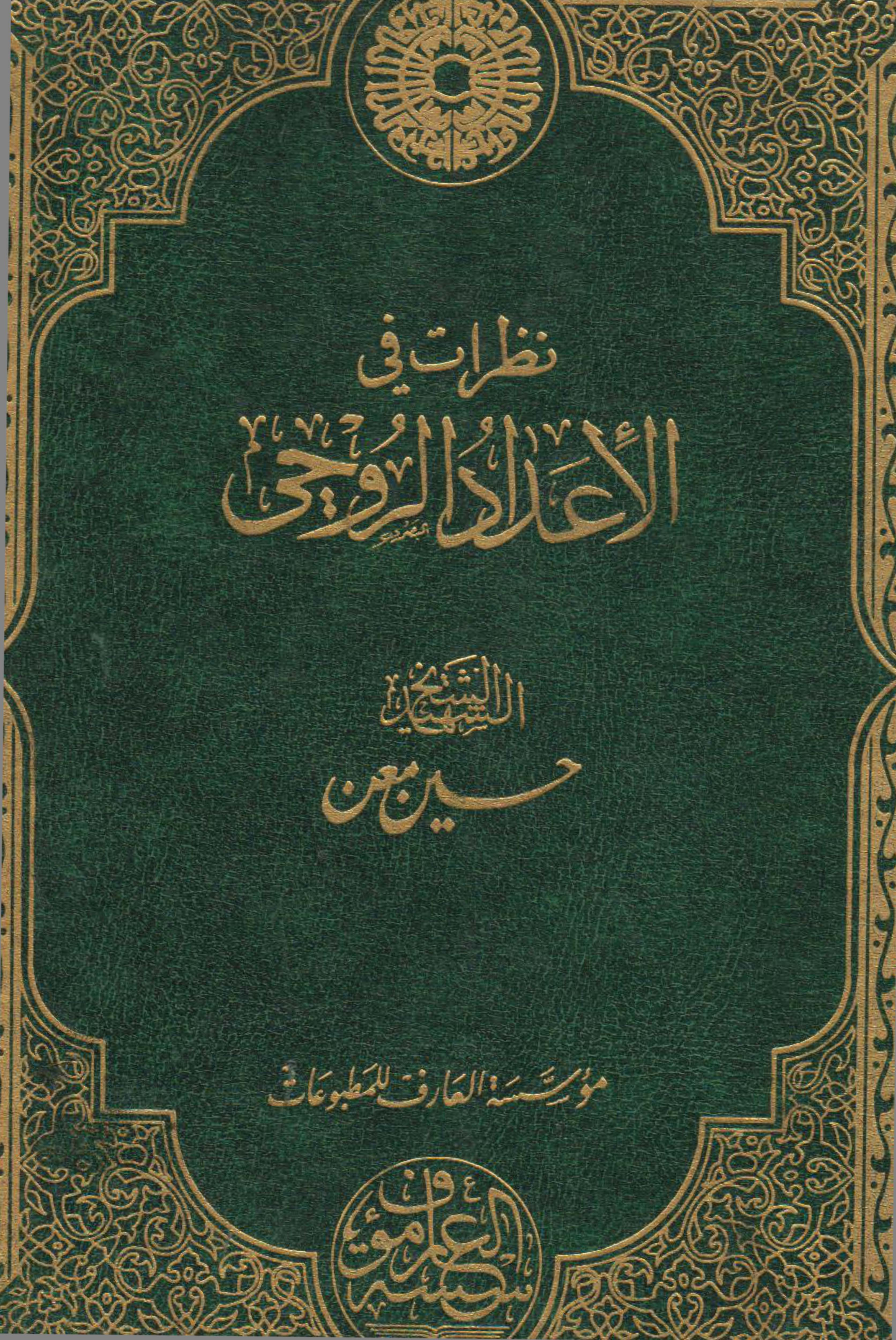

نظرات في
الإعداد الروحي
الشيخ الشهيد
حسين معن
مؤسسة العارف للمطبوعات



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

نظرات في

الاعداد الروحي

تأليف

الشيخ الشهيد

حسين معن (قده)

تحقيق وتنقيح

مؤسسة المعارف للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

(طبعة جديدة منقحة)

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

مؤسسة المعارف للمطبوعات

ص . ب . : ٦١٠٦ - ٢٤ - بيروت - لبنان

مقدمة الناشر

مما لا شك فيه ان السبب في كل حالات التراجع والانحطاط في مستويات التعامل بين الناس في مجتمعاتنا يعود الى انخفاض المستوى الروحي عند الافراد. حيث ان العنصر الاساس الذي يحافظ على استقامة الانسان في علاقاته مع الآخرين، هو مستوى ارتباطه بالله سبحانه وتعالى الذي هو اقرب اليه من حبل الوريد. ويرصد له كل صغيرة وكبيرة ويعلم خائنة عينه وما يخفيه صدره. فلا شيء يردع الانسان عن خيانة اخيه وظلمه سوى شعوره بالرقابة الصارمة والدائمة من قبل الله عليه، وبمقدار ما يكون الانسان قريبا من ربه وصادقاً فيما يقوم به من ممارسات عبادية من ذكر ودعاء وصلاة، يكون مستقيماً في سلوكه وعلاقاته، ومستمراً ومفيداً في عمله وانتاجه وعطاءاته.

والاسلام دين العمل والعطاء والمحبة والسلام والاخوة، جاء لكي يزهر الحياة ويُنوّر الارض ويعمرها ويسعد ابناءها من خلال عملهم ومستوى التعاطي والتعامل فيما بينهم، وما من شيء واسلوب يجعل الحياة تعيش هذا المستوى من الرقي والنعمة، إلاّ رفع المستوى الروحي عند الانسان وتوطيد علاقاته مع خالقه العظيم، والذي يحاول هذا البحث القيم ـ الذي بين ايدينا ـ معالجته ودراسته.

وإذا كانت مسألة الاعداد الروحي ذات اهمية معينة في حياة الناس العاديين

فانها على درجة عظيمة جدا من الاهمية بل انها من ضرورات واساسيات العمل للدعاة الى الله والعاملين على توعية الناس وارشادهم الى الطريق الاقوم، لذلك فاننا نلاحظ ان هذا الكتاب يكاد يكون موجهاً اليهم، فهم القدوات اللذين يقتدي بهم الناس، والقادة الذين يرشدون الناس الى طريق الهدى.

وايماناً منا بأهمية هذا الطرح وضرورته لمجتمعاتنا وحاجتها اليه عمدنا الى اعادة طبع هذا البحث القيم اعتمادا على الطبعة الأولى له حيث قمنا بمراجعتها وتصحيح ما ورد فيها من اخطاء مطبعية وغير مطبعية كما قمنا بتخريج اغلب الاحاديث المباركة الواردة فيه ومراجعتها في مصادرها الاساسية وثبّتناها في ذيل الصفحات واشرنا اليها بعلامة نجمة (*) تميز لها عن الهوامش التي كانت اصلاً في الكتاب اما من المؤلف رحمة الله عليه او من قبل الاخ ابو حسين الربيعي الذي كان له جهداً مشكوراً في اعداد وتنقيح وطبع الطبعة الاولى للكتاب جزاه الله عما بذله من جهد اجراً كثيرا ووفقه لكل خير.

واخيراً نتمنى ان يجد القارىء الكريم في هذا الكتاب المتعة والفائدة الجمة وان ينتفع منه دنياً وآخرة وان يوفقنا جميعا لان نكون في خدمة دينه انه السميع العليم..

مؤسسة العارف للمطبوعات

بيروت

تقـــــــــديم

بقلم سماحة العلامة الجليل الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أكثر ما نحرص عليه ـ خلال الزوبعة الفكرية ـ التي نجتازها هو أن نأخذ الفكر الإسلامي نقياً ومن منابعه الأصيلة وعلى يد علماء أمناء على دين الله تعالى.

ولم ينل أعداء الإسلام من هذا الدين أمراً أخطر من نقاوة وأصالة الفكر كما لم يجاهد العلماء العاملون لأمر أهم من المحافظة على سلامة الفكر الإسلامي من الانحراف والتشويش وقد دخل في فكرنا الكثير من الفكر الدخيل الذي لا يمت إلى الإسلام بصلة وأصبح من الصعب معه تمييز ما هو من الإسلام عما أدخل عليه وقد نبت في تربة هذا الفكر الهجين المختلط الكثير من المذاهب والآراء والتصورات المنحرفة في التأريخ الإسلامي، سواء في المجال العقائدي أو الفقهي أو الأخلاقي أو السياسي.

ولهذا السبب كانت المحافظة على نقاوة وأصالة الفكر الإسلامي وتطهيره عما أدخل عليه من أهم الأدوار والأعمال التي قام بها أهل البيت عليهم السلام ومن بعدهم العلماء الذين ساروا على هديهم.

وكانت قيمة العالم في أدوار الفكر الإسلامي المختلفة في مقدرته على مكافحة الفكر الدخيل والمنحرف والمذاهب الدخيلة والمنحرفة عن الإسلام وتثبيت الفكر الأصيل النابع من منابعه النقية الصافية.

أقول ذلك بمناسبة التقديم للكتاب الذي بين يدي للشهيد السعيد والعالم الجليل والعبد الصالح الشيخ حسين معن، رحمه الله فقد تناول في هذا الكتاب موضوعاً شديد الحساسية، كبير الأهمية في حياتنا الإسلامية، وهو الإعداد الروحي والتربية الروحية، والبحث في هذا الموضوع يؤدي كثيراً بالباحثين إلى تصورات غير مكتملة، وناقصة تنزع نحو الرهبانية ومشاركة الدنيا، واعتزال الحياة الدنيا، والحياة الاجتماعية وابتغاء وجه الله تعالى في ذلك كله.. أي بعكس التصور الإسلامي الصحيح الوارد في الكتاب والسنة تماماً.

وقد نشأ في ظل هذا التصور المنحرف للتنمية الروحية والتربية النفسية مذاهب منحرفة قامت على أساس بعد واحد فقط من أبعاد الإسلام الأصيلة، وتكون لهذا الانحراف تاريخ، وثقافة، ومؤسسات، وامتدادات، وعلماء، ومفكرين. وكل ذلك حصل نتيجة الفهم التجزيئي غير الكامل لأصول وآفاق هذا الدين.

ومن خلال قراءتي لهذا البحث رأيت أن المؤلف الشهيد رحمه الله يتناول هذا الموضوع الخطير من خلال الرؤية الإسلامية الأصيلة والمتكاملة وينظر إلى الإعداد الروحي من زاوية الحركة، والجهاد، والعمل، والدعوة إلى الله تعالى ويضع هذه المسألة موضعها الطبيعي من هذا الدين، وهو الجو الحركي والسياسي والجهادي، ويدرسه من خلال هذا الجو بالذات على عكس الاتجاهات الفكرية المنحرفة التي تحاول أن تعزل هذا الموضوع الحساس والخطير عن واقع الحياة، والأجواء الحركية، والسياسية، والجهادية.

فيحاول المؤلف قدس الله سره أن يمزج بين هذين الشطرين من الفكر الإسلامي ويؤلف بينهما ويجعل منهما طيفاً فكرياً واحداً يكمل بعض ألوانه

بعضاً كما يطلبه الإسلام تماماً في منهجه التربوي والحركي لإعداد الدعاة إلى الله تعالى . .

وفي قبال الاتجاه الانحرافي الذي يعزل مسألة الإعداد الروحي عن جو الحركة والجهاد، هناك سلوك وتوجه آخر معاكس لهذا التوجه في عزل العمل السياسي والحركي والجهادي عن التربية الروحية والزهد في التربية الروحية وتقليل قيمة التهذيب ودوره في الساحة الحركية والجهادية وهذا اتجاه سلوكي خطير لا يقل خطورة عن الاتجاه الأول. . وهذا ليس اتجاهاً فكرياً كما كان الأمر في الاتجاه الأول، وإنما هو غفلة لدى بعض الغافلين عن أهمية البناء الروحي والتربية النفسية في ساحة العمل السياسي والجهادي، أو غرور يصيب بعض الناس الذين يتحركون على الساحة السياسية الإسلامية أحياناً، فيتصورون أن العمل السياسي والجهادي والحركي الإسلامي يغني عن البناء الروحي والتربية النفسية والمداومة على ذكر الله تعالى والتنفل والتهجد، أو ليس هذا ولا ذاك وإنما تلهيهم مسائل العمل ومشاغل الحركة والجهاد عن الانصراف إلى البناء الداخلي وما يتطلب من جهد ومداومة على الرياضة النفسية والتهذيب والتزكية.

ومهما تكن أسباب هذه الظاهرة، فهي ظاهرة انحرافية لا يقل خطرها عن الانحراف الأول. . فإن حاجة الإنسان الذي يتحرك على ساحة العمل الإسلامي والدعوة إلى الله تعالى إلى البناء الداخلي والإعداد الروحي تفوق حاجة الآخرين الذين لا تتجاوز اهتماماتهم شؤون معيشتهم الخاصة مع الالتزام بالحد الأدنى من التدين.

فإن الشيطان لا يتربص بهؤلاء الدوائر ولا يعمد إلى إغرائهم ووسوستهم كما يعمد إلى إغراء ووسوسة أولئك الذين يعملون في صفوف مواجهة الاستكبار، وإذنابه، ولا يتعرض أولئك لمزالق ومخاطر الطريق ولا تشبه خطورة سقوط واحد من عامة الناس خطورة سقوط إنسان يعمل على الخط الحركي على الساحة الإعلامية والسياسية داخل الأمة فإن الإنسان الذي يعمل في وسط الأمة

وعلى خط الدعوة والثورة والحركة السياسية إذا سقط لا يسقط وحده وإنما يسقط معه أمة من الناس ويجر معه جمعاً من الخطوط الانحرافية والانشقاق ولأمر ما يقال: «إذا هلك العالم هلك العالم» (بالفتح)...

ولكل هذه الاعتبارات، ولغيرها من الاعتبارات، والحيثيات تفوق حاجة العاملين في صفوف الحركة والثورة الإسلامية والعاملين في الساحة السياسية والإعلامية الإسلامية حاجة غيرهم من الناس إلى الإعداد الرحي والبناء الداخلي والتربية النفسية.

لذلك نجد أن القرآن الكريم يؤكد على أهمية البناء الروحي للعاملين بشكل خاص ويربط بين هذين الجانبين من شخصية الداعية ربطاً وثيقاً.

ونستعجل هنا تلاوة هذه الآيات من كتاب الله قبل أن نقرأها في العرض القرآني الرائع التي يذكرها المؤلف رحمه الله ضمنه.

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله * فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً * في التوراة والانجيل والقرآن * ومن أوفى بعهده من الله فأستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به * وذلك هو الفوز العظيم *التائبون * العابدون * الحامدون * السائحون * الراكعون * الساجدون * الآمرون بالمعروف * والناهون عن المنكر * الحافظون لحدود الله * وبشر المؤمنين﴾[1].

ترى كيف يتم هذا الاقتران الرائع بين القتال والجهاد في سبيل الله ومبايعة الله ورسوله، وبين التوبة والعبادة، والحمد، والسياحة، والركوع، والسجود..

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار * رحماء بينهم * تراهم ركعاً سجداً * يبتغون فضلاً من الله ورضواناً

---

(١) سورة التوبة/١١٢.

سيمـاهم في وجوههم من أثر السجـود * ذلـك مثلهم في التـوراة ومثلهم في الانجيل﴾[٢].

ترى هؤلاء القوم الذين وصفهم الله تعالى بأنهم أشداء على الكفار وكأنهم زبر الحديـد في مواجهـة الكفار صـلابة وقـوة. كيف يرتسم على وجـوههم أثر السجود، وكيف ترق قلوبهم محبة وشفقة على المؤمنين وكيف يكون خشوعهم وتضرعهم بين يدي الله تعالى..

ثم نقـرأ الآيات التي يخـاطب الله تعالى بهـا نبيـه (ص) داعيـاً إيـاه إلى الاستقامة في الدين والصبر على المـواجهة والأذى والصـلابة في المـوقف من الكافرين وألا يركنوا إلى الذين ظلموا من الجبابرة والمستكبرين،ثم تنتقل هذه الآيات الكريمة من هذا الجو المشحون بالصلابة والقوة والاستقامة إلى جو عبق بالصلاة والذكر، طرفي النهار وزلفاً من الليل، وكأنما الآيات الكريمـة تتحدث عن وجهي حقيقة واحدة عندما تنتقل من ذلك الجـو السياسي الجهـادي المعبأ بـالعمل والتحـرك والصمود، إلى هـذا الجو العبـادي الخـاشـع بين يـدي الله تعالى..

﴿فـاستقم كما أمـرت * ومن تاب معـك* ولا تطغـوا* أنـه بمـا تعملون بصير ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكـم النار* ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون* وأقم الصلاة طرفي النهار* وزلفاً من الليل أن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[٣].

واليك طرفاً من سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنته في عبادته وإقباله على الله تعالى في زحمة أعماله السياسية والجهـادية في مكـة والمدينـة، ونبذاً من سيرة أهل بيته ومن اهتدى بهديهم وسنتهم.

---

(٢) سورة الفتح /٢٨
(٣) سورة هود/ ١١٢ ـ ١١٥

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله)[٤].

(وكان يتضرع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه)[٥].

وروى الطبرسي في الاحتجاج عن موسى بن جعفر (ع) قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي، حتى يبتل مصلاه من خشية الله عز وجل..).

وفي المناقب: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي حتى يغشي عليه فقيل له: (أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر)؟ قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً).

وروى الديلمي في الارشاد: (أن إبراهيم (عليه السلام) كان يسمع منه في صلاته أزير كأزير المرجل، من خوف الله تعالى وكان رسول الله كذلك).

وعن الشيخ أبي الفتوح في تفسيره عن أبي سعيد الخدري قال: (لما نزل قوله تعالى:

﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾[*]

اشتغل رسول الله صلى الله عليه وآله بذكر الله حتى قال الكفار أنه جن)[٦].

وفي الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتوب في كل يوم سبعين مرة).

---

(٤) سنن النبي ص ٣٥٦ عن المناقب ومجمع البيان
(٥) سنن النبي عن البحار ج ٥٣ ص ٣٣٩.
(*) سورة الأحزاب، آية: ٤١.
(٦) سنن النبي ص ٣٤.

وفي التهذيب عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينام ما شاء الله فإذا استيقظ جلس، ثم قلب بصره في السماء، ثم تلا الآيات من آل عمران:

﴿إن في خلق السماوات والأرض. . . ﴾(*)

ثم يستن، ويتطهر، ثم يقوم إلى المسجد، فيركع أربع ركعات على قدر قراءته. . ركوعه وسجوده على قدر ركوعه. يركع حتى يقال متى يرفع رأسه؟ ويسجد حتى يقال متى يرفع رأسه؟ ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي الركعتين ثم يخرج إلى الصلاة)[٧].

وعن عروة بن الزبير قال: (كنا نتذاكر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمال أهل بدر وبيعة أهل الرضوان فقال أبو الدرداء: ألا أخبركم بأقل القوم مالا وأكثرهم ورعاً واجتهاداً في العبادة؟ قالوا من:؟ قال: علي ابن أبي طالب (ع) رأيته في حائط بني النجار يدعو، ثم انغمر في الدعاء فلم أسمع له حساً وحركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، فذهبت لكي أوقظه لصلاة الفجر فأتيته، فإذا هو كالخشبة الملقاة، فلم يتحرك، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب (ع).

فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم، فقالت: فاطمة (ع): يا أبا الدرداء، ما كان من شأنه وقصته فأخبرتها الخبر فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الخشية التي تأخذه من خشية الله، ثم أتوه بماء فنضحوا على وجهه فأفاق، ونظر إلي وأنا أبكي، فقال ما بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فقلت: بما أراه تنزله بنفسك فقال (ع):

«كيف بك إذا رأيتني أدعى إلى الحساب، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ شداد وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك

(*) سورة آل عمران، آية: ١٩٠.
(٧) سنن النبي ص ٣٤.

الجبار وأسلمتني الأحباب، ورفضني أهل الدنيا لكنت أشد رحمة بي بين يدي من لا تخفى عليه خافية»[٨].

دخل ضرار بن ضمرة على معاوية بعد قتل أمير المؤمنين (ع) (فقال: صف لي علياً؟ فقال: أعفني فقال: أقسمت عليك لتصفنه.

قال: «أما إذا كان ولا بد فإنه كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنفلق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير الدمعة طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا وقربنا منه لا نكاد نكلمه هيبة له.

يعظم أهل الدين ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله..

وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم[٩]، ويبكي بكاء الحزين يقول:

«يا دنيا غري غيري أبي تعرضت أم إليّ تشوقت؟ هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير آه من قلّة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق...».

فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، قد كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ فقال: حزن من ذبح ولدها في حجرها، فهي لا يرقى دمعها ولا يخفى فجعها)[١٠].

---

(٨) سنن النبي ص ٢٤٠ عن التهذيب ٢/٣٣٤ والكافي ٣/٤٤٥.
(٩) الأنوار العلوية للشيخ جعفر النقدي
(١٠) السليم: الملدوغ.

(ودخل أبو جعفر (ع) على أبيه السجاد (ع) فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه، وقد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام للصلاة.

قال أبو جعفر: فلم أملك نفسي حين رأيته بتلك الحال من البكاء، فبكيت رحمة له، وإذا هو يفكر فالتفت إليّ هنيهة وقال:

يا بنيّ أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي ابن أبي طالب (ع) فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثم تركها من يده وقال: من يقدر على عبادة علي ابن أبي طالب (ع)[11].

وكان إذا توضأ يصفر لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يغشاك فيقول: أتدرون لمن أتأهب للقيام بين يديه)[12].

وعن جعفر بن محمد الصادق (ع) قال:

«كان أبي علي بن الحسين رضي الله عنه إذا حضرت الصلاة يقشعر جلده ويصفر لونه، وترتعد فرائصه، ويقف تحت السماء ودموعه على خديه، وهو يقول: لو علم العبد من يناجي ما انفتل..

ولقد برز يوماً إلى الصحراء فتبعه مولى له فوجده وقد سجد على حجارة مسحنة[13]، قال مولاه: فوقفت وأنا أمع شهيقه وبكاؤه فأحصيت ألف مرة وهو يقول:

(لا إله إلا الله تعبداً ورقاً، لا إله إلا الله ايماناً وصدقاً).

ثم رفع رأسه من سجوده وأن وجهه ولحيته قد غمرا بالتراب ودموع

---

(١١) الأنوار العلوية ٤٠٥ ـ ٤٠٦.
(١٢) كشف الغمة للأردبيلي ٢/٢٩٧.
(١٣) حجارة يسحق عليها الطيب

عينيه منحدرة على خديه)[١٤].

وقال الباقر (ع):

«أن أبي علي بن الحسين (ع) ما ذكر نعم الله عليه إلا سجد، ولا قرأ آية من كتاب الله عز وجل فيها سجود إلا سجد، ولا دفع عز وجل عنه سوءاً يخشاه أو كيد كائد إلا سجد، ولا فرغ من صلاة مفروضة الا سجد ولا وفق لاصلاح بين اثنين الا سجد وكان أثر السجود في جميع مواضع سجوده فيسمى السجاد لذلك»[١٥].

وعن أبي حمزة عن أبيه قال:

«رأيت علي بن الحسين (ع) في فناء الكعبة أثناء الليل وهو يصلي فأطال القيام حتى جعل مرّة يتوكأ على رجله اليمنى ومرة على رجله اليسرى ثم سمعته يقول بصوت كأنه باك:

«يا سيدي تعذبني وحبك في قلبي؟ أما وعزتك لئن فعلت لتجمعن بيني وبين قوم طالما عاتبتهم فيك»[١٦].

وإن تعجب فعجب أن تحرص سيدتنا زينب بنت علي (ع) أن لا تفوتها نافلة الليل حتى ليلة الحادي عشر من محرم على مقربة من الأجساد الطاهرة.

فقد روى أن سيدتنا زينب بنت أمير المؤمنين (ع) ما تركت تهجدها لله تعالى طوال دهرها حتى ليلة الحادي عشر من المحرم[١٧].

وروي عن زين العابدين (ع) قال: «رأيتها تلك الليلة تصلي من جلوس».

وعن الفاضل البوجنردي عن بعض المقاتل المعتبرة عن مولانا السجاد

(١٤) حلية الأبرار هاشم البحراني ج ٢ ص ١٣
(١٥، ١٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤
(١٧) حلية الأبرار ص ٢/ ١٤)

(ع) أنه قال: «إن عمتي مع تلك المصائب والمحن النازلة بها في طريقنا إلى الشام ما تركت نوافلها الليلية»[١٨].

وقالت فاطمة بنت الحسين (ع): «وأما عمتي زينب فإنها لم تزل قائمة في تلك الليلة (أي العاشر من المحرم) في محرابها تستغيث إلى ربها، فما سكنت لها عين ولا هدأت لها رنة»[١٩].

وروي الشيخ جعفر النقدي رحمه الله عن بعض المتتبعين للامام السجاد (ع) أنه قال:

«إن عمتي زينب كانت تؤدي صلاتها من قيام الفرائض والنوافل وعند سير القوم بنا من الكوفة إلى الشام وفي بعض المنازل كانت تصلي في جلوس فسألتها عن سبب ذلك فقالت: أصلي من جلوس لشدة الجوع لأنها كانت تقسم ما يصيبها من الطعام على الأطفال»[٢٠].

وما زلنا نتحدث عن عبادة سيدتنا زينب (ع) وانقطاعها الى الله في مسيرتها إلى كربلاء ثم إلى الشام والمدينة فلا بأس أن نعرض هذه الصور الرائعة التي يذكرها المؤرخون لأصحاب الحسين (ع) ليلة العاشر من المحرم يقول المؤرخون:

(وبات أصحاب الحسين (ع) في تلك الليلة، ولهم دوي كدوي النحل ما بين راكع وساجد وقائم وقاعد)[٢١].

سمة العبيد من الخشوع عليهم ... لله أن ضمتهم الأسحار
وإذا ترجلت الضحى شهدت لهم ... بيض القواضب أنهم أحرار

* * *

(١٨) زينب الكبرى للشيخ جعفر النقدي
(١٩) مثير الأحزان للشريف الجواهري ص ٥٦٠
(٢٠) زينب الكبرى للشيخ جعفر النقدي ص ٦٣ .
(٢١) مثير الأحزان ص ٥٦

وفي تاريخنا الجهادي والحركي نلتقي كثيراً بهذه المشاهد الرائعة من اقتران الجهاد البطولي في ساحات الوغى والدعوة إلى الله بالعبادة وتهذيب النفس والابتهال والتبتل والتهجد وقيام الليل.

وأحب أن أذكّر أخواني الدعاة إلى الله تعالى، بضرورة الاهتمام بهذا الجانب من شخصيتهم، فإن شخصية الداعية لا تتكامل ولا تنمو النمو اللازم لها، ما لم يحاول الداعية أن ينقطع إلى الله تعالى في حياته، ويشرب قلبه بحب الله وما لم يأنس بذكر الله، وإقامة الصلاة في الليالي الداجية الظلماء، فإن البكاء، والتهجد، وتلاوة القرآن في سكون الليل وظلماته يحيي القلوب الميتة، ويشرح الصدور، ويبعث النور في حياة الانسان.

وإذا كان هذا البعد ضرورياً في حياة كل إنسان ففي حياة الدعاة أكثر ضرورة وأهمية.. والدعاة أولى من غيرهم بالاهتمام بهذا الجانب الحيوي والأساسي في شخصيتهم.

إن توثيق العلاقة بالله تعالى والانقطاع إليه عز وجل يؤمن سلامة المسير والسداد للداعية ويقيه عن المزالق والمخاطر ويربط على قلبه في الهزات والزلازل.

إن ثبات الداعية على أرض المعركة والمواجهة، واستقامته، ومقاومته للتحديات وصبره باتجاه الأزمات والمتاعب، وقدرته في تجاوز العقبات.. لا يأتي فقط نتيجة الوعي والفهم، والممارسة، والتجربة والخبرة، وإنما يمده الله تعالى بها، ويشرح صدره، فيفرغ عليه صبراً، ويثبت له على أرض المعركة قدماً، وينصره على أعدائه..

وهذا المدد الإلهي أكثر ما ينزل على العبد، ينزل عليه في ساعات التضرع، والبكاء والانقطاع إليه تعالى..

والتضرع والبكاء ورقة القلب من أفضل الفرص التي تؤهل الإنسان لهبوط الرحمة من جانب الله تعالى.

فلا ينال الإنسان رحمة الله تعالى ولا يكون قريباً من الله تعالى كما يكون كذلك عندما يرق قلبه، وتجري عيناه بالدموع، ويخشع قلبه، ويقف بين يدي ربه قائماً، أو يطرح نفسه على الأرض ساجداً. .

وهذه الحالة هي أهم مصادر التسديد والتوفيق والثبات والاستقامة في حياة الدعاة. .

والشيطان يكمن للدعاة في كل مكمن ويتربص بهم الدوائر في كل فرصة للايقاع بهم، وتثبيطهم وزرع اليأس في نفوسهم، وتحريفهم عن السير، وتلبيس الأمر عليهم. .

وليس للداعية في هذه المزالق التي يترقب فيها الشيطان الدعاة، غير الله تعالى، ينقطع إليه، ويتضرع بين يديه ويسترحمه. . .

وبقدر ما ينقطع الداعية إليه عز وجل يمده منه بالرحمة والتأييد والثبات والصبر والسداد. .

* * *

وبعد فلا يسعني في هذه المقدمة أن لا أتحدث شيئاً عن مؤلف هذا السفر الجليل: الشهيد السعيد، والعبد الصالح، الشيخ حسين معن رحمه الله، الذي اختطفته أيدي الأجرام الكافرة من بيننا وهو بعد في غضاضة شبابه الطاهر النقي.

إن قراءة سريعة وعابرة لهذا الكتاب يكشف عن أن كاتب هذا الكتاب لا يتحدث فيه عن درس ونظريات وأفكار قرأها وسلم بها، وإنما يتحدث عن معاناة، وأن هذه الأشواط التي يصورها المؤلف في الكتاب لتحرك الإنسان إلى الله تعالى. . قد قطعها المؤلف غالباً فجاء الكتاب تعبيراً عن معاناة ومعايشة.

وهذه الناحية من أهم خصائص المؤلف الشهيد رحمه الله، حيث كان بفضل الله تعالى يضم إلى الذهنية الخصبة والفكر الوقاد، والنبوغ المبكر، والرؤية النافذة. . قلباً واعياً وبصيرة نافذة، وصدراً شرحه الله تعالى، ونوراً في

القلب، وانقطاعاً إلى الله، وتبتلاً وابتهالاً ويقيناً بالله. . .

وإلى هـذا، وذلك كان يضم رحمـه الله معانـاة الداعيـة وخبـرة وتجـربـة العاملين في سبيل الله، ولا يمل هم الدعوة، ويسعى في تحقيق أهدافها بنفس صابرة مطمئنة لا يعرف التعب والكلل ولا يمل من العمل ولا يتسلل إلى روحه الكبيرة اليأس ولا يجزع من ساحة العمل في حالة من الأحوال.

كانت مدرسته محرابه، ومحرابه ساحة عمله وجهاده، وكان يجمع بشكل يبعث على الاعجـاب بين هـذه السـوح الثـلاث، ويعمـل فيهـا جميعـاً بتـوازن عجيب، فهو عالم ضليع يراهق الاجتهاد رغم شبابه الغض.

وكان يطرح فيه أستاذه الكبير الشهيد السيد محمد باقر الصـدر رحمه الله آمالاً كبيرة لمستقبله في الفقـاهة والعلم، وفي نفس الـوقت كان يتميـز بروحـه الشفافة النقية والصافية، وانقطاعه إلى الله تعالى، ودعائه، ومداومته على ذكـر الله ثم كان إلى جنب ذلك من خير الدعـاة إلى الله تعالى في السـاحة الاسـلامية في العراق، في السراء والضراء لا يكل ولا يتعب ولا يعرف اليأس والخوف طريقاً إلى قلبه، يتقد نشـاطاً وعمـلاً، ويبعث في نفوس اخـوانه الهمـة، والنشاط، والأمـل والحركة. . وقليل من الناس كذلك وذلك من فضل الله تعالى.

وإذا علمنا أن الشهيد السعيد الشيخ حسين معن قد استطاع أن يجتاز هذه الأشواط البعيدة في العمل ويحقق هذه المكاسب ويبلغ هذه القمم الرفيعة من العلم والعمل وهو بعد في سني الشباب لم يتجاوز العشرينـات من عمره كـان أدعى للاعجاب.

* * *

وإذا ذكرنا الشيخ حسين معن رحمه الله، فلا يسعنا أن لا نـذكر الجهـود التي بذلها أستاذه الكبير الفقيه والمفكر الإسلامي الرائد السعيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله في تربية وإعداد الشهيد.

فقد لمح السيد الشهيد الصدر رحمه الله في هذا الشاب مـلامح الـذكاء

والنبوغ المبكر والأصالة والنجابة فاحتضنه برعايته الخاصة وأسبغ عليه عواطفه الأبوية المباركة، وتبنى تربيته، وكان يضع فيه ثقته وآمالاً كبيرة. .

وكان الشهيد الشيخ حسين معن يحفظ لأستاذه الكبير إلى آخر حياته احتراماً وحباً خالصاً. . فرحم الله الأستاذ والتلميذ، وحقق الله تعالى آمالهما بسقوط أعمدة الكفر وقيام حكم الله على الأرض وسلام عليهما يوم ولدا ويوم استشهدا ويوم يبعثان حيين.

محمد مهدي الآصفي
٢١/صفر/١٤٠٥ هـ

كلمة لا بد منها...

الظاهرة الروحانية :

لا نريد ان نبحث في مثل هذه الافكار الا بسبب غلو بعض الناس فيها، واتخاذها المسلك الرئيس والدرب المتميز في الحياة الدنيا بحيث تكون. . هي الحياة بالنسبة لهم غافلين عن العناصر الرئيسية الاخرى في هذه الدنيا، تلك العناصر التي لو قدر الانسان عليها متكاملة ـ وتكامل كل شيء بحسبه ـ لانتهج الطريق اللاحب والصراط الاقوم في الوصول الى الله سبحانه، وذلك هو سبيل نبينا محمد (ص) والائمة من بعده ولقد كان هو سبيل ابراهيم (ع) من قبل وسائر رسل الله سبحانه اولئك هم المثل للانسانية الصالحة والقادة الحقيقيون والباحثون للمعرفة الحقة الا فنحذو حذوهم ولنعتبر بهم ولندرس اثارهم ونسترشد بعلومهم، واذا اردنا ان نتعرف على كل طرق الروحانيين في الحياة الدنيا لوجدنا انهم يؤلفون فرقا شتى وتجمعات متباينة. . .وأن لهم مظاهر مختلفة تماما. فانه يوجد المسلم والهندوسي والراهب المسيحي والمتنسك الوثني الافريقي وليس هؤلاء ظاهرة زمن القرن العشرين انما هم من قبل الاسلام وقبل المسيحية ومن قبل ظهور التوراة ثم هم قبل ذلك؛ ولقد تداخلت المظاهر عندهم بالافكار والسلوك بالنظريات، وكثير ما يتميز بعض عن بعض بمظاهر سلوكية خاصة فلا يعتبر الفرد من الطائفة الفلانية ان لم تتواجد لديه المظاهر الفلانية حتى كأن هذه الافعال الظاهرية هي التي تجعل هؤلاء منهم. وعلى اي حال فيمكن جمع هؤلاء على صعيد من يؤمن بوجود القوة التي وراء الطبيعة وقدرتها على التصرف بهذه المادة الظاهرة، على ان هذا المجتمع لا ينافي اختلافهم في كون ظاهرة الروحانية نفسها هل هي من المسائل الفكرية التي تتصل بالمعرفة والادراك وهذه المسائل هي التي تلزم من عرفها ان يسلك في الحياة

سلوكا معينا. . فالانسان هـو اذن فيلسوف ثم مـرتاض لهـا، يغلب ذلك عـلى كل اهل الديانات. . . أو أن الروحانية هذه هي مجموعة من الافعال الرياضية للجسم والنفس يتوصل المرتاض بها الى قدرات خارقة، وبها يكون هذا المرتـاض من اهل عوالم الروحانية، كما يغلب ذلك على الهندوس والوثنيين.

نقول على اي حال يمكن ان تعتبر كل طوائف الـروحانيـين فئة واحـدة، اذا نظرنا اليهم باعتبارهم يؤمنون بأن مصادر القوة لديهم هي غير هذه المادة الظاهرية في الجسم والجسميـات للأنسـان نفسه وللعـالم أجمع وفي التعليـمات والفكر الـذي يوصل الى اهدافه الخاصة يوجد كثير من التلاقي بـين جميع هـذه الطوائف ابتـداء من وثنييها وانتهاء بمسلميها. كما توجد كثير من الاختلافات في النظريـة من حيث الاصـل ـ طبعا ـ وفي النـظريات والتعليـمات الملزمة في الـوصول لـلاهداف وتحت الشروط الفعلية والمسلكية الصارمة وينشط الفكـر لدى المسلمـين من هؤلاء. . ولما كان الطابع للمسلم هو عبادة الله سبحانه فان فعل الصلاة والصيـام والدعـاء هي ابرز الاشياء لدى الاخلاقيين والمرتاضيين المسلمين وان كان ظهـور بعض الخصال وفرض القيود الخاصة في أكل وشرب وتحديد ساعـات وكيفيات النـوم مما اشـترطه بعضهم في الوصول الى (الحقيقة) واتبع بعضهم او سمه (انتهج) كثـيرا من طرائق الهندوس وافعالهم فيما اراد ان يصل به الى المعرفة. كما سلك بعض مسالك غـريبة حسب العرف الاسلامي فاصبح علم التنجيم والسحر وتسخير الارواح والمـلائكة والجن ـ حسب ادعاءاتهم ـ من قدراتهم الخاصة وهناك ضرب من الدروشـة يؤدي الى ان يقدر الانسان الى ايذاء جسمه ايذاء مبرحا الا انه في نفس الـوقت يملك كل قواه وملكاتـه حتى لا يبدو ان شيئـا من ذلك الايـذاء قد اخـر عنه ملكـة نفسية او قدرة جسمانية بل هو يدل على امتلاكه قدرة جسمانية خـارقة ثم هـو يترقى في هـذا الفن حتى يستطيع ان ينقل قدرته هذه من ذات جسمه الى اجسام الاخـرين، فهو يضرب رجلا بسيفه او يطعنه بسكينه وكأنه لا يؤلمه بل لا يخرج منه اي دم وكأنما (لامس جسده) بـ منديل معطر او وردة جميلة الشكل. وكل اهل التنجيم والسحر والدروشة من المسلمين يدعون بان ذلك من الاسلام وهو امر به ويستدلون على ذلك بادلتهم (للشرعية) الخاصة بهم وبروايـاتهم او تفسير القـرآن حسب فهمهم له. وكثـير من الناس يريد ان يدرك الحقيقة ويعبد الله بالصلاة والصيام والدعاء ولكن ربما انضم

بعضهم الى بعض حتى اذا اكثروا من الصلاة توجهوا الى الله سبحانه بالدعاء وربما بعبادات خاصة حتى اذا اخذتهم النشوة (الاشراقة الرياضية) صدرت عنهم جميعا او عن بعضهم حركات تبدو لمن لم تأخذه هذه النشوة مضحكة. ومن هؤلاء من اخذ على نفسه وجسمه بشدة السلوك وجشب العيش ومنهم من ترك اللحم وغدا نباتياً.

اغلب المشهورين من الصوفية اصحاب النظريات في السلوك الى الله سبحانه واهل الطريقة، هم من هذا القسم الاخير لم يكونوا اهل شعوذة ولا سحر ولا تنجيم بل ربما آمنوا به. وجميع هؤلاء كذلك جاء سلوكهم هذا ـ وهم قد دعوا الناس اليه ـ نتيجة بحث نظري اخذت اصوله من الاسلام.

وبغض النظر عن مناقشة اصول هؤلاء والنتائج الفكرية التي وصلوا اليها فان جميع هؤلاء متهمون سواء من امتهن السحر او من تنسك حتى سمي بحمامة الحرم. هؤلاء متهمون بنظرياتهم وسلوكهم بل وان كثيرا منهم اتهموا في خلقهم الشخصي، ووجه الاتهام هو ان السبب الرئيسي لهذا النوع من السلوك الانساني هو اما يكون كسلا او دجلا، او خليطا منهما جميعا، مع شدة الاختلافات في المظاهر. فهناك رجل يعرف انه يجانب الحقيقة وما يريده الدين ولكنه يصر على ما يفعل لما يراه من انخداع كثير من الناس به، وان هذا السلوك يكسبه مظهرا ممتازا من الابهة والاحترام. وهناك رجل يعجز عن بلوغ هدف معين كان قد رسمه هو لنفسه او بلوغ ما وصل اليه فلان غيره من العلم والمعرفة او المنصب والرياسة، فيتظاهر بالعزوف عن الدنيا واي مكسب من مكاسبها احتقارا للدنيا وما فيها. وقد يكون العكس هو الوارد. ذلك ان بعضهم رسم لنفسه خط العظمة من اظهار الشعوذة وعمل التنجيم مثلا وهو يعلم ان ذلك كذب ودجل. ولا يعني ان الكسل هو العجز والقعود فحسب بل ربما يكون الكسل فكريا وان هذا الكسلان لم يتعب نفسه ولم يعمل فكره وبقي خاملا... وفي الواقع فان كثيرا من هذه الحالات يسببها طموح في غير محله... طموح لم يؤهل المرء له... ولا ينبغي ان يحاول الانسان تناول شيء لا تصل اليه يده او لا تبلغه قدمه وكثيرا ما تولد من هذا السلوك انحرافات قد تعمق فتكون الخرافات بالتالي وبالاً على المسلم، فمن هذه الانحرافات الانعزال عن الناس وترك المجتمع الانساني برمته، ومنها هذا

الوسواس في القيام بالعبادات وفي طهارة البدن والثياب. ومما يزيد السوء سوءاً ان هؤلاء يستندون بمجموع سلوكهم الى افكار هي خليط من الشريعة والعرف ومما يحسون في انفسهم ،وفي الواقع فان جميع ما افترضوا من سلوك انما هو من مختراعاتهم وحتى الذين يفترضون فيه الشرعية فهو انما صيغ بصيغتهم الخاصة. . واذن فان هؤلاء الصالحين وارشاداتهم انما تكون من مبتدعاتهم الخاصة. . بل ان الرجل منهم لا يفكر في الغالب بمشاكل الاخرين الحقيقية ولا يهتم بها، وكيف يستطيع ان يفكر في شيء هو مبتعد عنه. . واذن فستكون اغلب الافكار الاجتماعية والارشاداتية هي مشاكله الخاصة والتعبير عن مزاجه الخاص. ومن الامراض الخبيثة التي يبتلي بها هؤلاء هو مرض الغطرسة والغرور فكلما تبدو على المبتعد مظاهر الانعزال عن الدنيا والمسكنة. . . فقد تبدو عليه كذلك مظاهر الغرور والغطرسة بما يتصور انه يدرك من حقائق. . فاذا ازداد هذا الانحراف لا سمح الله فانه يصل الى حد الشرك كما ينقل عن الحلاج انه قال: (ما تحت جبتي سواي والله).

انا من اهوى ومن اهوى انا   نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتني أبصرته   واذا ابصرته ابصرتنا

واذا عدنا الى هؤلاء الاقوام جميعا، نسال عن صحيح هذا السلوك، جميعه او بعضه، او من انكره فانا سنواجه كثيرا من الفكر وكثيرا من الكلام، منه الغث ومنه السمين وكل هؤلاء مسلمون بطبيعة الحال ـ الا المشرك او منكر لضروري الدين ـ ولذا فانهم لا يخرجون من الاطارالاسلامي كما انهم يستندون بشكل صحيح او خاطىء للاسلام في سلوكهم او في معارفهم وليس لنا من هنا اعتراض على القاعدة الرئيسية في طريقة استناد المسلم الى الاسلام اذ انه على كل حال لا بد وان يستند الى الاسلام، وهنا مسألتان.

الاولى: في طريقة الاستناد، فمع اختلاف الطرائق فان وضوح الخلل في بعضها مما لا شك فيه، نقصد انه لا بد من التثبت وبشكل علمي صحيح من حصول الاستناد الى الاسلام.

الثانية: مما ثبت في الاسلام قطعا، وجوب سلوك معين للفرد والمجتمع وان كثيرا من المفاهيم في الفرد والمجتمع مما وجبت باجماع المسلمين وعليه فانه لا بد من

اطمئنان المرء نفسه الى ذلك . . ﴿بل الانسان على نفسه بصيرة﴾ .

لا بد ان يلتفت الانسان الى نفسه ليحاسبها دائما مسترشدا بذلك بالقادة الائمة الميامين .

ان السلوك الصحيح في كل الظروف والاحوال وتوفر الشروط الكاملة في المسلم هو الذي يدفع عن الزهاد تهمة الكسل والدجل . ومرة اخرى باعتبار ان حالات التنسك والدروشة حالات انسانية فلنتجاوز الجماعات الاسلامية ، لنبحث عن كيفية الوصول الى افضل الوسائل ومعرفة هذه الظاهرة . وبعبارة اخرى ما هي الوسيلة التي تملكها فعلا والتي توصل هذه الفرقة المتخاصمة الى ما يطمئن من سبيل الحق ، ولا شك ان النظرية التي يمكن ان توصلنا الى نتائج واضحة هي بعدم الوقوف عند حد من حدود البحث ، وفي مستوى معين من مستويات المعرفة البشرية . وذلك ان النظرية كلما اوغلت في البحث في اكتناه الاسباب والمسببات كانت اقدر على اعطاء الصورة بشكل واضح ، فمثلا اذا لم يتفق المتنازعان في موضوع التنسك على صورة معينة منه ، فلا بد ان يتجاوز موضوع النسك وحالاته الى بحث الملكات والقدرات الانسانية ، ومن ذلك الى بحث السبب والاسباب التي صيرت الانسان بهذا الشكل ووهبته هذه القابليات . وهكذا دائما في كل بحث من البحوث الفكرية تتشكل من البحث دورة فكر كاملة تبدأ في البحث في امور تكون اول الامر واضحة ثم يحصل الشك في وضوحها فيبحث اصلها ثم يبحث في اصل ذلك الاصل . حتى يصل الفكر الفطري الى ما يسمى بالبديهيات التي يؤمن بها ايمانا واضحا لا لبس فيه ، ومن ثم يعود الفكر مرة اخرى متسلسلا ولكن في الفروع هذه المرة وبشكل اوضح حتى يعود يحكم على الشكل بشكل اكثر وضوحا واكثر اطمئنانا . وفي الواقع ان معرفة اصول المناقشات واساليب الكلام توفر كثيرا من الجهد والوقت على المتناقشين .

واهم اصل من تلك الاصول ان يدرك كل من الطرفين النقطة التي يدور حولها قصد كل واحد منهم ويسهل الامر بعض الشيء ايضا اذا كان طرف واحد منهم قد ادرك قصد الاخر وحينئذ يستطيع ان يعدل او يوضح ، ولا يستطيع ان يحصل على هذا الادراك ان لم يصغ لخصمه ليعرف حقيقة ما يقول الاخر . وفي مسألة التنسك لا نحتاج الى بحث خارج نطاق الاسلام فنحن انما نريد ان نبحث

المسألة في مستوى المسلمين. ولقد استعرضنا نتفا من احوالهم ونتفا من الفكر المعايش لهذه الاحوال ابراما ونقصا، وظاهرة الروحانية والتنسك من اعقد الظواهر في الاسلام وذلك لعمق جذورها والتصاقها بالدين حقيقة، ولذا فتمييز المسلم السوي عن المسلم المنحرف صعب جدا. واذن ليس بكلمة او بفكرة واحدة نستطيع ان نعالج كل مسألة في هذه الظاهرة، وتضيق رقعة البحث في هذه المسألة كثيرا اذا اردنا ان ننظر اليها من زاوية الافتراءات على الدعوة ومن نطاق العاملين في اجوائها.

وفي الواقع انما استعرضنا ما استعرض او أطلنا في بعض الشواهد استكمالا لعموم البحث ولكل بحث. . . وهو فكر نافع على كل حال.

ولنذكر ما نريد ذكره بصدد ظاهرة التمسك في جملة من القواعد الاسلامية، فان بقي شيء في نفس المؤمن من ذلك فليسأل حتى يجاب وينبأ اذا لم يرغب هو ان يستكمل ما يريد بنفسه شخصياً، وان يستكمل هو ذلك، افضل بكثير لان معنى ذلك زيادة المعرفة والعلم عن تبصر وتعمق.

والاسلام هو دين التكامل في كل شيء ولا يمكن ان يعطي اي فكر ما اعطاه الاسلام للبشرية، وللاسلام نظريات وافكار عامة وله تعليمات وارشادات وله احكام محددة لا يجوز تركها او التهاون فيها. ومن نظرياته في الفرد والمجتمع ان الانسان في الوقت الذي يملك ارادة الفرد وله احواله الفردية، فانه مرتبط بالمجتمع لا يمكن ان ينفك عنه وان للمجتمع اثر عليه وعلاقة معه ومن تعليماته في هذا الباب انه الزم الفرد بالتفكر بالمجموع والاهتمام بعموم الناس وفي ذلك قوله (ص):

١ ـ كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.
٢ ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضل من عامة الصلاة والصوم.

وامثال هذه الاحكام العامة. واحكام الاسلام سواء منها العينية والكفائية تشمل الفرد والمجتمع في آن واحد وتحمل الفرد مسؤولية المجتمع كما تحمل المجتمع مسؤولية الفرد.

ومن جهة اخرى نجد ان الاحكام التي تطلب من المسلم الفرد تطلب

كـذلك من المجتمـع : فالـدعاء يكـون تقربـا لله تعالى ويكـون دعاء لـلاخـرين، والصلاة والصيام تزكية للنفس وكذلك وهي عمل للترابط الاجتماعي كما في صلاة الجماعة وهي لابدية اجتماعية كما في صلاة الجمعة وصلاة الخوف وصلاة الاستقساء وجهاد العدو، يجب على الفرد اذا دهمـه عدوه ويجب عـلى الامة كلهـا، دفاعـا عن الاسلام ولنشر الاسلام في ربوع الارض. واذن فالاسـلام يربي الفـرد لكي يكون نشيطا قويا غير هياب ولا كسول، ويربيه بفكر الامة جميعـا، وكذلـك يربي الامـة على ان تحمي افرادها وترتفـع بمستواهم وتـدفع بهم نحـو اكتساح الكفـر من وجه الارض هذا ومن ناحية اخرى فان الاسلام كـما شرع الاحكام فـانه شرع كـذلك كيفيتها ولم يقبل بان يكون التعبد جزافـا او كيفما يشـاء المسلم حتى انه يـروى عن عبد الرحيم القصير احد اصحاب الامام الصادق (ع): انه دخل عليه فقال:

يا سيدي انني اخترعت دعاء فقـال الامام: دعني من اخـتراعك، ولكن اذا نزل بك امر فافعل كذا، فمما يدل على ان السلوك الافضل الاتم هو التقيد حـرفيا بما يعمله الائمة، فالاسلام وان كان قد وضع القواعـد العامـة للسلوك البشري، الا ان المسلم كلما قدر ان يتقيد بخـطوات الائمة كـان ذلك أفضـل له، ولوحدث هذا ما صار المسلمون بـين مشرق ومغرب، وفي الـواقع فـانه لا يختلف اثنـان من المسلمين في ان الصلاة والصيام لله سبحانـه، وطلب العلم وطلب الرزق وخـدمة الاخـرين والجهاد في سبيـل الله ومعونـة الفقراء وارشـاد الضـال وتعليم الجـاهـل واصلاح ذات البين وعيادة المريض وصلة الـرحم، كل ذلـك وامثالـه من الافعال واجبة على كل مسلم عينية في بعض الحالات وكفائيـة في حالات اخـرى. . . نعم لا يختلف اثنـان من المسلمين في ذلـك ولكن الكلام في التـطبيق، وفي غلبة بعض هذه الافعال على بعض، فقد يكون امرؤ دآبة الصلاة وقـد يقضي بعضهم في صلة رحمه والتعلق بعياله وواقع اخر لا بد من التعـرف عليه وفهمـه هو اختـلاف وجهة النـظر ومسالـة التوازن بـين والتطبيقـات في الاحكام بـين وضعية لا تـوجـد فيهـا الدولـة الاسلا يه واخرى توجد فيها الدولة الاسلامية مثلا: ان انصراف الفرد المسلم في حالة وجود الدولة الاسلاميـة الى المسجد وانشغـاله بـالقيام والقعـود والركوع والسجود لا يلتفت الى امور المسلمـين، وربما لا يهتم بعيـاله هـذا المسلم مهما كان الحكم عليه صعبا فهو اهون من الحكم له وهو بهذه الكيفية في حالة عدم

وجود الدولة الاسلامية؟. . فقد روى ان النبي (ص) رأى رجلا يلزم المسجد مشغولا بالعبادة، فسال عنه، قيل له: هو فلان العابد. قال (ص): فمن يعول به قيل اصحاب له. قال (ص): هم اعبد منه، او قال هم افضل منه.

وعلى كل حال، ان تقصير هذا المتنسك أو قصوره سبّب له ان يحكم عليه رسول الله (ص) بأن غيره افضل منه. . . ترى ماذا كان يحكم عليه رسول الله (ص) في حالة تخلفه عن الجهاد في سبيل الله ؟

وهاتان الحالتان كلتاهما في حالة وجود الدولة الاسلامية. . . اما في حالة عدم وجود الدولة الاسلامية فان المسلم الذي لا يفكر فيها ولا في مجتمع الاسلام وهو ينشغل عن ذلك باى من المستحبات، فان هذا المسلم لا شك آثم ان كان عالما بتقصيره. وهذه حقيقة مرة لا بد من التعرف عليها وادراكها، وعلى كل حال فالمطلوب من المسلم ان يدرك ما هو عليه وان يتأمل فيه، لا ان يكون سلوكه كيفما اتفق او حسبما جرى عليه العرف والعادة، وان يكون هذا الادراك مسببا عن الاسلام نفسه.

لا مجال ولا داع للحديث عن هذه الظاهرة بأكثر من هذا الكلام، ونريد بعد هذا الحديث الطويل ان نقول ان دراسة هذه الظاهرة تأتي ثانوية في البحث المخصص عن عملية التغيير الاجتماعي، ذلك ان البحث في عملية التغير الاجتماعي يتناول مجموعة التفاعلات الاجتماعية والتغيرات الاجتماعية بوصفها نتيجة لحدث ما ـ على اختلاف وجهات النظر بين المسلمين وغيرهم ـ أو بوصفها سببا لتغيرات اجتماعية أخرى. ولما كان موضوع ما أسميناه بالروحيات تعمل أعمال الفرد فهو يدخل في ضمن نطاق البحث من صفات الافراد في المجتمع متغيرا او غير متغير.

ولقد قلنا إن المؤمن ليدعو لاخيه المؤمن او لاخوانه المؤمنين أو لجموع المسلمين ولكن الدعاء لا يمكن ان يسمى فعلا اجتماعيا ولم يقل احد بهذا الرأي، وقلنا ان الصلاة جماعة لها اثر اجتماعي ولكن هذا الاثر لم يأت من فعل الصلاة وانما جاء من اجتماع المصلين بهذا الشكل. وفي الواقع اننا لا نريد ان نبحث عن الفروق الكاملة بين العمل الفردي وبين الاحداث الاجتماعية فضلا عن ان نحدد كلا منهما فلسفيا.

إلا اننا نريد ان نقول بأن هدفنا هو ان يغير المجتمع الى حيث المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية اننا ونحن بهذا الوصف لا داعي لأن ندرس احوال الفرد اكثر مما ينبغي او بشكل غير داخل تحت نطاق التغيير الاجتماعي لا يمكن انفكاكها عن بعضهما، وبعبارة اخرى ان النظرية الاسلامية لا تؤمن بكون الفرد الة متحركة في خضم المجتمع كما يؤمن الشيوعيون، كما لا نؤمن بان الفرد هو صاحب السلطان الكامل على نفسه بحيث ان البحث عن صفات الافراد في المجتمع لا اثر له عليه كما تؤمن به النظرية الرأسمالية. نقول من اننا لا نؤمن بذلك الا اننا يجب ان نفكر اكثر فاكثر في المجتمع وفي العمليات المغيرة فيه. . . وواضح هذا السلوك الى الدولة والنظريات فيه يختلف في محتواه وشكله عن السلوك الى تزكية النفس الانسانية بالعبادة والرياضة والنظريات في ذلك. . . نعم. . لما كان الاسلام نفسه يشترط على المسلم ـ بوصفه فردا ـ صفات وافعالا معينة فإننا نبقى نؤكد على هذه الافعال وهذه الصفات وباعتبار ان افعال الفرد لا علاقة لها بافعال المجتمع فنحن اذن لا بد ان ننظر للفرد كذلك من هذه الزاوية. وبعبارة اخرى: ان صفات المسلم كصلاته مثلا او صدقه او مروءته، هذه الصفات لما كان لها اثر في الافراد، والافراد جزء من المجتمع الاسلامي ككل فلا بد اذن ان ننظر وندرس ذلك. ان النفس الانسانية اذا لم تزل وتتكامل فلا يمكن ان تنجح في فعالها خصوصا حسب المعتقد الاسلامي. وعليه فلا بد من توفير هذه الصفات غير ان كل هذه التاملات في افعال المسلم الفرد لا تغير من طبيعة عملنا

لاننا نهتم من حيث الاصل في العمليات التغييرية الاجتماعية. ان العبادة لا يمكن ان تشكل حزبا او تجمعا دينيا ولكن يمكن ان تشكل طبقة من الناس لطائفة معينة اذا كانت هذه الطائفة تعيش هذا الهيكل الاجتماعي المعين في الحياة الاجتماعية، وحينئذ فلا بد ان ستكون هذه الطبقة طائفة كما هو عند الهندوس مثلا حيث يكون رؤساؤهم طبقة (البراهما) او (البرهميين) وواضح هذا ان الذي صير طبقة الهندوس بهذا الشكل اي صيرهم طائفة وحقق وجودها ليس هو عبادة هؤلاء الافراد «البراهما» ودعاؤهم، او بأن هؤلاء الافراد بوصفهم متعبدين مرتاضين ولكن الذي صيرهم طائفة مجموعة من النظريات والافكار الاجتماعية. . . وليكن منها لابدية وجود طبقة البراهما لدى طائفة الهندوس وعليه فلكي تنخلق الطائفة

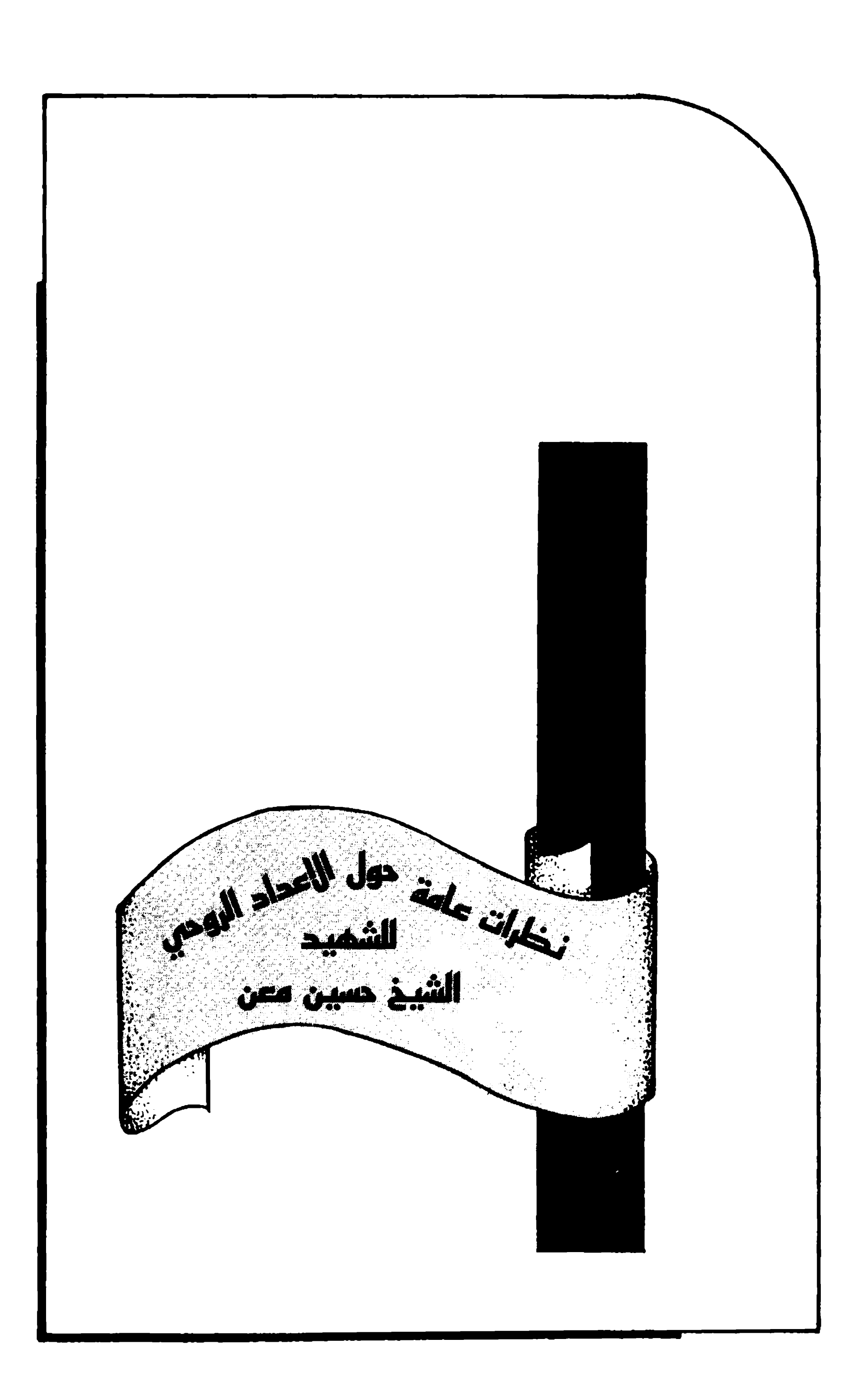
الهندوسية لا بد من السعي لايجاد مجتمع معين رؤساوه طبقة من العباد وآسمهم (البراهمين) واذا صح كل هذا عن الهندوس فأنه سيكون عملهم واجب، ولكن واجب كفائي - هو انفلاق افراد البراهما هؤلاء، واذن فعبادة البرهميين مسألة ضمن نطاق بحث النظريات الهندوسية في المجتمع وفي ما ينبغي ان يكون الهيكل الاجتماعي الهندوسي طبعا مثال الهندوس هذا لا ينطبق على المجتمع الاسلامي، لانه لا توجد في الاسلام لابدية وجود طبقة دينية تكون هي التي تمنح الخير والبركة للمسلمين كما يكون ذلك للهندوس بل ان الاسلام يعد بعض هذه الحالات دجلا. وهو يحسب ذلك المتعبد عالة على غيره وغيره أفضل منه. . . وعبادة الله في الاسلام لا تشكل طبقة ولا تجمعا. ولقد درسنا هذه الظاهرة استكمالا للبحث ليس الا - ولانه يدخل في جزء من عملية التغيير الاجتماعي لكونه بحث في صفات المسلم الفرد والداعية الفرد.

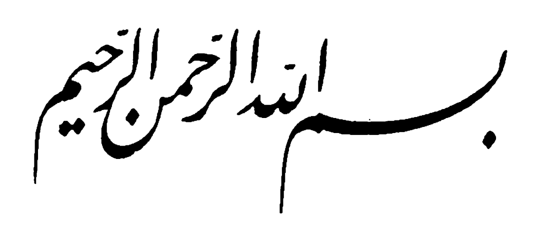
كثيرا ما نتصور ان العبادة والنسك هي الصلاة والصوم والدعاء والتسبيح وهكذا وكثيرا ما يغيب عن اذهان الروحانيين انهم مكلفون بالالتزام بصفات اخرى لا تقل اهمية عن هذه العبادات ان لم تفقها في الاهمية في بعض الحالات ولا نريد ان نذكر هنا بعض عيوب هؤلاء الروحانيين انما القصد الرئيسي هو تذكير الدعاة - حفظهم الله - بهذه الصفات الربانية العالية. ومن الصفات: صدق الحديث واداء الامانة وحسن المعاشرة والمروءة والامان الى الغير وترك الحد وتجنب الغيبة والهرب من النميمة والبهتان والرغبة في الجد والعمل الاستبداد بالعمل لئلا يقع المسلم في الورطة أو أن يفشل في عمله، ولقد نفى الرسول (ص) صفة الأيمان من رجل يتكرر عليه الخطأ من جهة واحدة فقال (ع): لا يلدغ مؤمن من حجر مرتين. ولا بد ان يسعى او يستزيد المسلم لأن يكون شجاعا مقداما غير هياب وأن يكون كريما سمحا وأن يكون عفيفا ابيا عن الدنيئة. ومالنا نطيل - ان هذه الصفات واجبة وهي معروفة لدى جميع المسلمين ولكنهم جميعا اما انهم يتصفون بنقيضها او انها ضعفت لديهم حتى تلاشت او كادت، وانها كما لو كانت طاقة كهربائية مستنزفة. . . فوا اسفاه وواحرقتاه وواسفاه مرة اخرى ان كثيرا من المسلمين لا يلتفتون الى ذلك بل ان هناك من ينكر فائدة التفكير بهذه المسألة، والأسلام لم يفرق بين صفة من صفات الفرد واخرى - شبيهاً بنظريته في الفرد

والمجتمع ـ فما بالنا اذا انفتلنا الى الصلاة كاننا الملائكة ، اذا تعاملنا مع الناس فكاننا الشياطين ومالنا اذا تبتلنا في الدعاء فكأننا الرهبان واذا وقعت يدينا على شيء من مال الغير فكاننا اللصوص وما بالنا اذا تحدثنا عن انفسنا فانما تتجسد العفة والنجابة واذا تعلق حديثنا بالغير فانما تتجلى اللئامة والخسة. . . والله لا نحن كما نصف ولا الآخرون كما نذكر. . . ولكن انما هو عدم التقوى. . ترى افلا ينبغي ان نعتبر بقول ربنا عز وجل في محكم كتابه:

﴿ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والطابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون﴾.

الاستاذ الشهيد
الحاج عبد الصاحب دخيل
مقتطف من بحث واسع
تحت عنوان (نظرات في التدين والتخطيط)


نظرات عامة حول الاتحاد الروحي
للشهيد
الشيخ حسين معن

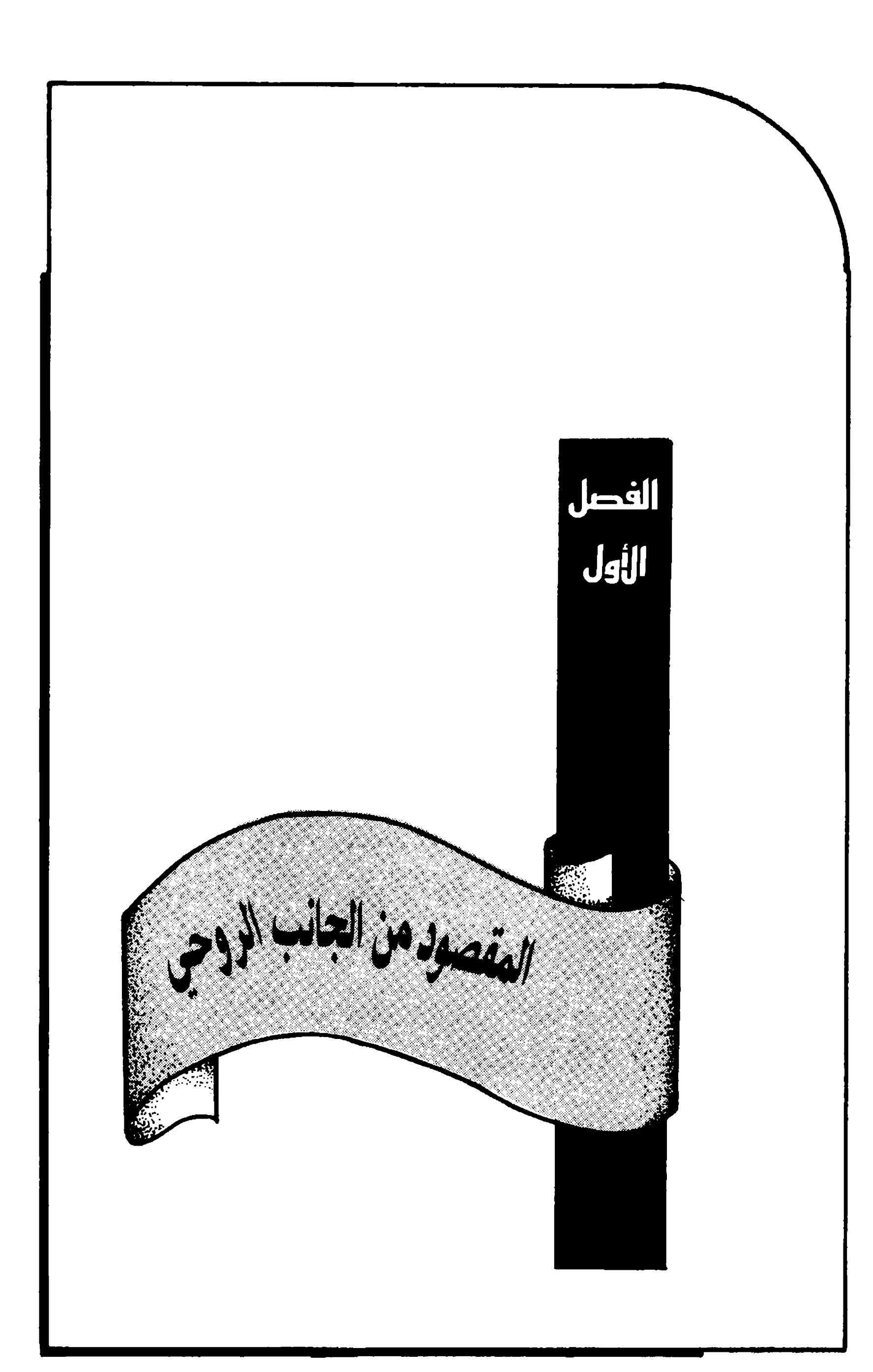


﴿يا أيها المزمل* قم الليل إلا قليلا* نصفه أو انقص منه قليلا* أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * أنا سنلقـي عليك قولا ثقيـلا* أن نـاشئة الليـل هي أشد وطـأ وأقوم قيـلا* أن لك في النهـار سبحا طويلا* واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا﴾

١ ـ ٨/ سورة المزمل.

﴿إن الله اشتـرى من المؤمنين أنفسهم وأمـوالهم بـأن لهم الجنـة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقـاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم * التائبون العابدون الحـامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾

(١١١ ـ ١١٢/ سورة التوبة)


الفصل
الأول
المقصود من الجانب الروحي

لا نقصد بالجانب الروحي في شخصية الإنسان المسلم كثرة الصلاة والصيام والتعبد. . وإن كان لكثرة التعبد والتنفل صلة وثيقة بالجانب الروحي في الشخصية. .

ولا نقصد بالجانب الروحي كذلك حسن التعامل مع الناس والأخلاق الحسنة: كالشجاعة، والعفة، والكرم، والحكمة، والاحسان، وما شاكل ذلك وإن كان للأخلاق صلة وثيقة بالجانب الروحي.

وإنما نقصد بالجانب الروحي في شخصية المسلم ـ والذي يعتبر جوهرها ومضمونها ـ الصلة الداخلية للمؤمن بالله تعالى وانشداده النفسي والعاطفي به تعالى من حيث الايمان والحب والاخلاص، وما يرافق هذه المعاني الثلاثة الرئيسية من خوف، ورجاء، وتواضع. . . الخ.

إن المضمون الداخلي المرتبط بالله تعالى هو الجانب الروحي وهو الذي يشكل الأساس الذي يقوّم صرح الشخصية الإسلامية بالكامل وتصدر عنه عناصرها الأخرى، وسماتها، وخصائصها المميزة عن الناس وعلاقة الايمان

بالله، وخوفه، ورجائه، والتواضع له والاخلاص. . بالعبادة الخارجية من صلاة وصيام واذكار علاقة تأثير متبادل يؤثر المضمون الداخلي للمؤمن فينتج عبادة وتنفلا وصياما وقياما،وتؤثر العبادة الخارجية فتزيد في الايمان والحب، والإخلاص، والخوف، والرجاء، وكذلك الحال في الأخلاق والتربية الروحية هي بالنتيجة بناء هذه العلاقة الداخلية للمؤمن بالله، وتنميتها، وتحصينها، والحفاظ عليها.

وإذا تحددت الآن بصورة مجملة هوية الجانب الروحي والتربية الروحية فبإمكاننا أن نطرح السؤال التالي حولها.

ما هي درجة الاهتمام التي يلزم أن نعطيها للجانب الروحي، والتربية الروحية؟ وهل تستحق التربية الروحية لانفسنا، وللآخرين جهداً معيناً، وما هي درجة هذا الجهد؟. . .

وبكلمة أخرى: ما هو موقع التربية الروحية في العمل الإسلامي ومكانتها فيه؟

توجد في الجواب على هذا السؤال اتجاهات ثلاثة يسجلها التاريخ الإسلامي وهي:

١ ـ الاتجاه الصوفي.
٢ ـ الاتجاه السياسي والفكري.
٣ ـ الاتجاه الإسلامي المتكامل.

منهج التقييم:

وقبل أن نستعرض هذه الاتجاهات بشيء من التفصيل من أجل تقييمها والتعليق عليها علينا أن نلمح إلى المنهج الذي يحكم ويجب أن نحتكم إليه في تقييم الأفكار التي تنتسب إلى الاسلام وتحسب عليه. .

في كل خلاف فكري أو مهمة فكرية عامة علينا أن نرجع إلى المقاييس التي وضعها الإسلام ونحتكم إليها ونستلهم منها. . كتاب الله تعالى وسنة رسوله

وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وسيرتهم العطرة الطاهرة، فعن علي (ع):

«أما أني سمعت رسول الله (ص) يقول: ستكون من بعدي فتن قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.. هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»[1].

وقال تعالى:

﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[2].

وقال (ص):

«إني تركت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما؟»[*].

والرجوع إلى المقاييس التي وضعها الإسلام في معرفة مفاهيمه وعقائده وتشريعاته أمر طبيعي لأننا لا يمكن أن نتعرف على أفكار أي شخص أو جهة إلاَّ من خلال ما يعد من أساليب وطرق في تحديد أفكاره ومواقفه ومن خلال ما يضعه من مقاييس في معرفتها.

والتصور الفكري والثقافي عن القرآن الكريم والسنة المطهرة ـ قولا وفعلا

---

(١) البيان في تفسير القرآن ص ٢٦ ـ ٢٧

(٢) سورة الحشر /٨.

(*) صحيح الترمذي ج ٥/٦٦٣ حديث ٣٧٨٨.

وتقريرا - والاحتكام إليهما في الخلافات لا يتم إلا بشرطين:

١ - الجهد الفكري بالتتبع والاستقراء لكل ما يتصل بالمسألة من آية، أو حديث، أو رواية، أو موقف. وعدم تسجيل المواقف، واتخاذ القرارات الفكرية إلا بعد الدراسة الجادة، والتتبع المناسب لهذين المصدرين الأساسيين.

٢ - الانفتاح النفسي على الكتاب والسنة وأن تكون لدى الباحث فيهما (روح التلقي) منها، وعدم التجاسر، والتأويل والتدخل من خلال فرض الأهواء والمسبقات. فإن (المؤمن أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه) كما ورد عن أمير المؤمنين (ع) وعن الإمام الباقر (ع) في خبر صحيح:

«والله إن أحب أصحابي إليَّ أورعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وأن أسوأهم عندي حالاً.. وأمقتهم الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يقبله. اشمأز منه وجحده وكفَّر من دان به وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج وإلينا أسند، فيكون بذلك خارج عن ولايتنا»(٣).

وعلينا أن نتذكر بصدد تطبيق هذا المنهج، أن الله سبحانه خلقنا في هذه الحياة للمحنة، والابتلاء، وليس الابتلاء، الذي خلقنا من أجله هو ابتلاء أخلاقيتنا وعبوديتنا لله سبحانه في إطار الطاعة، والاستقامة على الخط الذي يشترعه للناس فقط، وإنما أيضاً في مجال (تلقي) هذا الخط وتفهمه ووعيه، ومن هنا فإنه سبحانه عندما أنزل الرسالة بينها للناس. وهداهم إلى خطها وبصرهم بمفاهيمها وتشريعها، ولكن لم يكن هذا البيان من قبله حاسماً حدياً بل كان قبالاً للأخذ، والرد والتملص، والركون، والنفي والأثبات.. لم يجعل الله تعالى البيان حاسماً حتى تكون فتنة واستجابات مختلفة من الناس ووضع المقاييس لكي يقيم الحجة على الفهم السليم ولكي يحيي من حي عن بيّنة...

ومن هنا كانت الفكرة مسؤولة وكان الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره

---

(٣) وسائل الشيعة أبواب القاضي ب ٨ ص ٣٩.

وفؤاده كما هو مسؤول عن عمله.

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم أن السمع والبصر والفؤاد * كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾[٤].

وكان هناك الناجح في فتنة التلقي.

﴿فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾[٥].

والفاشل فيها.

﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾[٦].

والآن نعود إلى البحث في الاتجاهات العملية الثلاثة في مسألة التربية الروحية، وندرسها بشيء من التفصيل.

١ ـ الاتجاه الصوفي:

تلقى الاتجاهات الصوفية الآن اهتماماً بالغاً من قبل المستشرقين، والكتاب المسلمين التابعين لهم، أو المستقلين عنهم في التفكير وتدرس في العادة من التصوف موضوعات عديدة.. منها: لفظته، واشتقاقها، ونشأته وعواملها، وتطوره عبر القرون، ومفاهيمه التربوية والفلسفية والأدب المتأثر أو المعبر عنه.. الخ وتتوزع المواقف التقيمية ـ كالعادة ـ بين رافض للتصوف غاضب عليه، وبين مدافع عنه ومؤيد له ولا يقتصر المؤيدون للتصوف والاتجاهات الصوفية على بعض الباحثين الأكاديميين أو المستشرقين المعجبين

---

(٤) الأسراء/٣٦.
(٥) الزمر/١٧ ـ ١٨.
(٦) الأنعام/ ٢٦.

بل نجد من له شأن يذكر في مجال العمل الإسلامي، وخدمة الإسلام من يدافع عن الاتجاهات الصوفية، ويعتبر الروحية الخالصة أساساً للعمل الجهادي، ويربط تاريخياً بين المنظمات الصوفية، وبين الدعوة الإسلامية، ومن هؤلاء أبو الحسن الندوي في كتابه (ربانية لا رهبانية) الذي نشره كما يقول: (قياماً بالواجب، واعترافاً بالجميل، ودفاعاً عن جماعة تدين لها بعض الأجيال، وبعض الأقطار بالدخول في الإسلام، أو البقاء عليه) وأكد فيه أن الجناية على التصوف جاءت من قبل المصطلح وكثيراً ما يجني على الأفكار والمفاهيم بسبب المصطلحات.

والواقع أنه إذا كان يقصد من الصوفية التأكيد على الجانب الروحي والمضمون الداخلي الباطن، وكثرة العبادة، والزهد في الدنيا، ومجاهدة النفس، وذكر الله كثيراً. لذلك تكون المنظمات الروحية القائمة على هذا الأساس داخل الإطار الأسلامي شريعة، وأخلاقاً فكل هذا من الإسلام حث عليه الإسلام وربى أجيالاً عليه وأما إذا كان يقصد من الاتجاه الصوفي هذا الاتجاه الذي نعرفه في التاريخ الإسلامي والذي نضج في القرنين الثالث والرابع الهجريين فهو اتجاه ينطوي على بعض نقاط الضعف من الناحية الإسلامية وانتهت به ـ عند بعض الصوفيين ـ إلى انحرافات واضحة، لسنا ننكر من هذا الاتجاه كثرة العبادة، وعملية التحرير الداخلي للنفس من أسر الشهوة، والرضى والتوكل، فقد قلنا أن هذا كله من الإسلام إنما ننكر منه كاتجاه تربوي أمرين:

الأول: أنه يركز على التربية الروحية والعلاقة بالله منعزلاً عن التأكيد على الجوانب الأخرى الضرورية في الشخصية الإسلامية، والعمل التربوي الإسلامي يجب أن يهتم ببناء الشخصية الإسلامية مضموناً، من حيث العلاقة بالله وحبه وخوفه ورجائه.. الخ، واطاراً، من حيث الخلق والانفتاح الاجتماعي والعطاء والجهاد في سبيل الله، ومعرفة أحكام الشريعة، ومفاهيمها.. ولا يركز على جانب دون آخر.. وبالخصوص فإن التأكيد على التربية الروحية عبر الرياضات، والأفكار، والمجاهدات ـ باعتبار أن التعامل مع الغيب يصعب على

الإنسان أن يكون مستقيماً فيه من دون نهج إلهي يسير عليه في ذلك بمعزل عن الجوانب الآسلامية الأخرى من السهل أن ينتهي إلى الانحراف والخروج عن خط الإسلام السلوكي والفكري في الحياة كما سوف نلاحظ ذلك في النتائج التي انتهت إليها الصوفية..

الثاني: أن (هدف) التصوف لم يكن بناء الانسان العابد المطيع لله تعالى، الملتزم بشريعته المنزلة منه إلى عباده هدىً، ونوراً، ونهجاً، وحياة، وإنما ان هدفه الوصول إلى (مذاقات الاتصال بالوجود المطلق) (والفناء) في الحقيقة المطلقة (الله)، أو أدراك الحقائق إدراكاً بالعيان، والقلب، و(الكشف)، و(العرفان) وغير ذلك من المعاني التي أن صحت من الناحية العلمية، ولم تكن أوهاماً ضائعة، فهي لا تصح هدفاً لعمل تربوي واسع ينطلق من الإسلام وللإسلام..

ونتيجة لنقطتي الضعف هاتين في الاتجاه الصوفي، برزت انحرافات عديدة عند الكثير من أهل التصوف على امتداد تأريخه الطويل، وهذه الانحرافات يتنكر بعض المتصوفة لبعضها ويتنكر بعض آخر منهم لبعض آخر منها ولكننا نعتبرها نتيجة طبيعية لروح ومضمون الاتجاه الصوفي.. ومن هنا لم يخل من بعض هذه الانحرافات حتى التصوف السني الذي يمثله الغزالي.. وفي (كتابه إحياء علوم الدين) والذي يعتبر أقربها إلى الشريعة.

وترجع الانحرافات التي ابتلي بها الاتجاه الصوفي إلى انحرافات في الممارسات، وانحرافات في النتائج والأفكار، ومن هذه الانحرافات العزلة، وتطليق الحياة الاجتماعية وممارسة السماع والرقص، والحزن، وتعطيل أحكام الشريعة باعتباره الوصول إلى درجة ترتفع معها التكاليف والهجوم المتكرر على العلوم الشرعية القائمة على أساس السماع لا الكشف،والاشراق، واشكال الانحراف العقائدي من حلول وفناء، واتحاد، واللغة الخارجة عن حدود الأدب الشرعي مع الله تعالى، والطابع المستعلي على الرسالة الإسلامية الذي لا يفرق

بينها، وبين غيرها من الشرائع.. إلى آخر ما هنالك من انحرافات سجلها التأريخ على الاتجاه الصوفي...

ولا أظن أننا بحاجة إلى تفصيل الكلام في هذه الأخطاء والانحرافات والرجوع إلى تأريخ التصوف فيها..

شجب الرسالة لارهاصات التصوف:

إن حركة التصوف تعتمد على ميل نفسي في كيان الإنسان يؤدي عند تنميته، وتغذيته إلى الانحراف.. وقد أدت تراكمات كثيرة إلى ظهور حركة التصوف في التأريخ الإسلامي (الانحلال) الأخلاقي في العالم الإسلامي دخول الكثيرين من غير المسلمين في الإسلام مع احتفاظهم بترسباتهم الفكرية، والروحية، والفلسفة اليونانية والاتجاهات الغنوصية فيها الخ...

إلا أن كل ذلك لم يكن ليعطي أثره لولا أمران:

١ ـ الانحراف بالميل الإنساني الفطري إلى التعامل مع الغيب واكتشاف المجهول.

٢ ـ سوء فهم تأكيد الإسلام على الصلة بالله والمعاني الروحية، والأخلاقية الأخرى.. فكان من الإنسان أن (اندفع) من خلال ميله الفطري إلى العزلة والتصوف و(برز) ذلك باسم القرآن الكريم، والسنة المطهرة مع (صياغات) و(تأثرات) بالتيارات الفكرية والدينية التي تلاقحت عندما تزاوجت الحضارات الانسانية في ظل الإسلام.

وبسبب الميل الفطري، والتأثير غير المتوازن بتعليمات القرآن الكريم، والرسول (ص) ظهرت هنا، وهناك بوادر الاعتزال، وتطليق الحياة الاجتماعية من أجل العبادة ولكن أئمة الهدى كانوا يقفون أمام هذه الحالات، ويحولون بينها، وبين التطور إلى ما لا ينسجم مع خط الإسلام في الحياة.

١ ـ قال المفسرون: «جلس رسول الله يوماً فذكر الناس ووصف القيامة

فرق الناس، وبكوا، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مضعون الجمحي واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم، ولا الودك، ولا يقربوا النساء، والطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا في الأرض، وهمّ بعضهم أن يجب مذاكيره، فبلغ ذلك رسول الله (ص). . فقال لهم: ألم أنبئكم أنكم انقطعتم على كذا وكذا؟ قالوا بلى يا رسول الله (ص) وما أردنا إلا الخير فقال رسول الله (ص) : إني لم أمر بذلك ثم قال: إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا، وافطروا، وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم، والدسم، وآتي النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني ثم جمع الناس (وهذا أمر له دلالة) وخطبهم وقال: :

«ما بال أقوام حرموا النساء، والطعام، والطيب، والنوم وشهوات الدنيا أما أني لست أمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا فأنه ليس في ديني ترك اللحم، ولا النساء، ولا اتخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد».

«اعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وحجوا واعتمروا، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا ليستقم لكم، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع» فأنزل الله تعالى الآية.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[*][7].

٢ ـ ونذكر حالة فردية في زمان الإمام علي (ع) وهي:

دخل أمير المؤمنين (ع) على العلاء بن زياد الحارثي في البصرة ـ وهو من أصحابه ـ يعوده، فلما رأى سعة داره قال (ع):

«ما كنت تصنع بسعة هذا الدار، في الدنيا، وأنت إليها في الآخرة

---

(٧) مجمع البيان ج ٧ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.   (*) سورة المائدة، آية: ٨٧.

أحوج؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة، تقري فيها الضيف، وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة».

فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين، أشكو إليك أخي عاصم بن زياد، قال (ع): وماله؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا قال علي (ع) علي به فلما جاء قال (ع):

«يا عدي نفسه: لقد استهام بك الخبيث أما رحمت أهلك وولدك، أترى الله قد أحل لك الطيبات، وهو يكره أن تأخذها، أنت أهون على الله من ذلك؟».

قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك، وجشوبة مأكلك قال: ويحك إني لست كأنت إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره[٨].

وفي زمن الإمام الصادق (ع) أصبح (الزهد) تياراً لشيء من الانحراف، وحاربه الإمام (ع) أيضاً يقول أحد أصحابه كما في الرواية (لأقعدن في بيتي ولأصلين ولاصومن ولاعبدن ربي فأما رزقي فسيأتيني فقال: أبو عبد الله (ع) هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم.

وسأل عن رجل فقير أصابته الحاجة قال: فما يصنع اليوم؟ قيل في البيت يعبد ربه قال فمن أين قوته؟؟ فقيل: من عند بعض أخوانه، فقال أبو عبد الله (ع): «والله للذي يقوته أشد عبادة منه».

٢ ـ الاتجاه الفكري والسياسي:

قد لاحظنا أن التصوف يركز بطريقته الخاصة على التربية الروحية ولكن المنعزلة على ذاتها.. والمتوقع لها أن تخرج باستمرار أفواجاً من المنحرفين عن

---

(٨) نهج البلاغة نص ٢٠٩.

الخط الإسلامي في الحياة سلوكاً، وأفكاراً. . وقد ساعد على ظهور هذا الاتجاه كما سبق أن أشرنا إليه. . التحلل الأخلاقي، وتلاقح الفلسفات، والديانات مضافاً إلى الميل الفطري، والنزوع الذاتي للتعامل مع الغيب وحث الإسلام على التربية الروحية، وتطهير النفس وتحريرها.

وفي المقابل أدى التحدي الثقافي الغربي، وهجمة التيارات الفكرية والاجتماعية المادية على العالم الإسلامي، وفقدان السيادة الإسلامية، والاستعمار العسكري والاقتصادي للبلاد الإسلامية أدى ذلك كله إلى (رد) فعل إسلامي يؤكد على الجوانب الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية في الإسلام، وتنبيه المسلمين إلى صلاحية الإسلام للتطبيق والانتهاج، وقدرته على إسعاد البشرية، وبناء المجتمع القائد من جديد. . . كما فعل في الأمس. ويؤكد أيضاً على محاربة الاستعمار، والفكر الاستعماري، والأدوات الاستعمارية في البلاد المسلمة.

ولأن هذه الأهداف بالمنظور الحسي إنما تتحقق، بالتوعية الفكرية، والعلمية على الإسلام، وتحسيس المسلم بأوضاع المسلمين، وتخلف العالم الإسلامي في كل الميادين.

ولأن الغرب تحدانا فكرياً وفي المنهج الاجتماعي وثقافتنا المعاصرة للكثير من المسلمين هي (رد فعل) للتحدي الغربي أقول: لهذا، أكد بعض الناس في عملهم التربوي على جانب التوعية الفكرية، والعلمية وأهملوا التربية الروحية، وبناء العلاقة بالله في نفوس المؤمنين بالإسلام، والعاملين في سبيل الله والمستضعفين في الأرض.

وهذا يؤدي عملياً إلى التورم الفكري، والعلمي، وعدم التوازن في شخصية الإنسان المسلم، وتغليب الاطار على المضمون، والفكر على الروح. .

والانسان المسلم ـ كما هو الحال في المجتمع المسلم ـ قد يمر بحالات

يكون فيها نشاطه العملي، ونشاطه العقلي رد فعل لتيارات معادية.. ولكنه على العموم ينطلق من شخصية أصيلة، وثقافة أصيلة، وتاريخ أصيل.. وسرعان ما يعيد النظر في أوضاعه، ويبنيها لا على أساس (الرد)، وإنما على أساس (الفعل) الأصيل الذي يمليه الانتساب إلى السماء، والارتباط المطلق بالله، والرسالة الخالدة ذات الشخصية المتميزة بين الرسالات.. ومن هنا كان عباد الرحمن يمشون على الأرض هوناً.. وينشطون هوناً لا يستثارون، ولا يستفزون، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.. كيف؟ لأنهم لا تبعثهم المخاطبة الجاهلية إلى الرد.. وإنما هم (سلام) إلى حين تقرر رسالتهم فيه الحرب.. وهم (سلام) لا يثأرون لأنفسهم ولا ينتقمون لأنفسهم، وشخصيتهم.. ولا يردون على التحديات رداً تستلب فيه ذاتهم الرسالية، وشخصيتهم المستقلة..[٩].

ولما كان كل عمل.. وكل تفكير.. إنما هو من إملاء الرسالة لا إملاء سواها.. فعلينا باستمرار أن نرجع إليها، وننطلق منها لنؤكد بذلك نسبنا الأصيل، وشخصيتنا الإسلامية... وعبوديتنا الكاملة لله تعالى.. ونحن في مراجعة الرسالة كتاباً، وسنة، وتاريخاً.. نجد للتربية الروحية موقعاً أكبر.. واركز في طريقة العمل الإسلامي وأهدافه.. ولكن في ضمن الإطار الإسلامي.. والأهداف الاجتماعية للإسلام..

٣ ـ الاتجاه التربوي المتكامل:

ويعطي هذا الاتجاه التربوي الروحي ـ بناء العلاقة الداخلية بالله من حيث الحب، والإيمان، والأخلاق، والخوف، والرجاء، والزهد، وما شاكل ذلك،

---

(٩) أمر عظيم له دلالته ما وقع على المستوى الفردي من الامام أمير المؤمنين عندما أهانه عمرو بن عبدود في معركة الأحزاب وكان (ع) متمكناً منه إلا أنه أعرض عن قتله حتى هدأ غضبه وكان منه ذلك عليه السلام حرصا على أصالة الفعل والاخلاص فيه لله تعالى.

وبالوسائل المعهودة في الإسلام من الصلاة، والصوم، والتنفل بالعبادات، والذكر ومخالفة الأهواء الخ . . .

يعطي هذا الاتجاه التربية الروحية أهمية بالغة لأن الرسالة أكدت عليها تأكيداً بالغاً، وأعلت من شأنها وركزت عليها، ولكن التأكيد البالغ على التربية الروحية والإعداد الروحي لم يكن تأكيداً مستقلاً بهما دون الجوانب الأخرى، وإنما هو ضمن الاهتمام العام بتربية وبناء الشخصية الإسلامية من جميع جهاتها. . حتى يكون الإنسان المسلم مجسداً للإسلام في الفكر والروح والسلوك الشخصي والتعامل مع الناس أي متعلقاً بالله تعالى، ومتعاملاً معه بالطريقة التي يحددها الإسلام لهذا التعامل. .

وبناء الشخصية الإسلامية. . هو الآخر جزء من الاهتمام بالمجتمع، والناس، وعملية الإصلاح، والتغير الاجتاعي. . لأن الإسلام كما ينظر في أخلاقه، وتربيته، وأحكامه للأفراد كذلك ينظر إلى المجتمع، والوحدات الاجتماعية التي يتألف منها الكيان الاجتماعي.

وهكذا فإن الذي يقوله الاتجاه الإسلامي التربوي المتكامل هو:

١ ـ التأكيد البالغ على الجانب الروحي، وتربية المضمون الداخلي المرتبط بالله تعالى. . ولكن باعتبار ذلك (جزء من كل) هو بناء الشخصية الإسلامية بمختلف جوانبها الفكرية، العقائدية، الروحية، والأخلاقية، والاجتماعية.

٢ ـ أن بناء الشخصية الإسلامية الذي تشكل التربية الروحية جزءاً منه هو الآخر ليس سوى (جزء من كل). . وهذا الكل الذي يعتبر الشخصية الإسلامية جزءاً منه هو الإصلاح الاجتماعي وتغير أوضاع الناس لتلتئم مع الإسلام، وتصدر عنه.

مناشىء الاهتمام بالتربية الروحية:

وللاهتمام بالجانب الروحي ضمن العمل التربوي الإسلامي منشآن أساسيان:

المنشأ الأول: أن الإصلاح الاجتماعي لا يتم (من وجهة النظر الإسلامية السليمة)، إلا من خلال الإصلاح الفردي، ولن يصلح حال الجماعة إلا بصلاح حال الفرد، قال الله تعالى:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(*).

وهكذا فإن بناء المجتمع الإسلامي عملية لا تحدث إلا من خلال نمو كمي وكيفي.. في الأفراد المؤمنين العابدين لله أي في الشخصية الإسلامية فإن الشخصية الإسلامية من خلال تكاثرها وحدوث بعض المتغيرات الاجتماعية، تتجسد بشكل مجتمع إسلامي.

ولكن ما هي هذه الشخصية الإسلامية التي يبشر بروزها كظاهرة اجتماعية بالمجتمع الإسلامي؟

هل هي الشخصية التي (تفهم) الإسلام وتتحسس بآلام المسلمين؟! أم هي الشخصية المنعزلة التي تتعبد في زوايا المساجد معزولة عن الناس؟ أم هي الشخصية العالمة المتفقهة والمستوعبة للتاريخ؟ أم هي الشخصية الخلوقة، التي يشير إليها الناس بالخلق الحسن، وطيب المعاملة، ولين العريكة؟!

الشخصية الإسلامية كل هذا.. وليست شيئاً من هذا.. الشخصية الإسلامية هي التي تفهم الإسلام وتعيه وتتحسس آلام المسلمين هذا صحيح لأن.

(*) سورة الرعد، آية: ١١.

«من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يزك له عملاً»[١٠].

ولأن:

«من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[١١].

الشخصية الإسلامية كثيرة العبادة كثيرة التهجد تعتزل الناس أياماً لاداء حق الله.. ثم.. تعود هذا صحيح أيضاً.. وصحيح أيضاً أنه حسن الخلق من أهم سمات المؤمن لأن.

«أكمل الناس أيماناً أحسنهم خلقاً»

كما ورد عن أبي جعفر عليه السلام[١٢].

صحيح هذا كله وصحيح أن الإنسان المسلم إنسان محسن معطاء أنفع الناس للناس وأنفع الناس للرسالة.. إلا أن كل هذا من العلم، والخلق والعطاء، والعبادة الخارجية إنما هي (إطار) الشخصية الإسلامية.. وللشخصية الإسلامية (مضمون) كما لها إطار و(محتوى) و (شكل)...

ومضمون الشخصية الإسلامية.. هي العلاقة بالله، والتعلق القلبي به إيماناً، وحباً، ورجاء، وركوناً، وإخلاصاً.. هو التحرر الداخلي من أسر الشهوات، والعبودية الكاملة لله تعالى.. وهذه العبودية الكاملة لله تعالى والعلاقة النفسية، والقلبية أول ما تشتمل عليه، أو تقتضيه هو السير وفق ما أمر الله تعالى.

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم

---

(١٠) أصول الكافي ج ١ ص ٣١.
(١١) أصول الكافي ج ٢ ص ١٦٣.
(١٢) أصول الكافي ج ٢ ص ٩٩.

ذنوبكم﴾(*).

وتنفيذ الإرادة التشريعية لله تعالى وهو الذي يحث على حسن الخلق، ويحث على الجهاد، والعطاء، والتفقه، والعلم، والعبادة، والذكر، كانت هذه الأمور شروطاً ضرورية في الشخصية الإسلامية و(إطاراً) لها نابعاً عن المضمون المذكور.

بالإطار والمضمون تتكامل الشخصية الإسلامية، فالمضمون بلا إطار لا يشكل شخصية إسلامية، وكذلك الإطار بلا مضمون لا يشكل شخصية إسلامية.. وكل هذا واضح من قراءة النصوص في ميادين العلاقة بالله تعالى، وميادين التعامل الاجتماعي، إذ كما تؤكد هذه النصوص على حسن الخلق والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد، كذلك تؤكد على اليقين والزهد، والذكر، والعبادة، والتوكل، وقيام الليل الخ.. وكما تؤكد على هذه تؤكد على تلك..

لا يقبل الإسلام علاقة بالله.. إلا من خلال الالتزام بالشريعة فعن الإمام جعفر الصادق (ع) عن آبائه عن أمير المؤمنين (ع) قال: قال رسول الله (ص):

«لا قول إلا بعلم، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول، وعمل ونية إلا بإصابة السنة»(١٣).

وأدانت النصوص أولئك المتعبدين الذين لم يقوموا بواجباتهم تجاه الرسالة..

وكذلك لا يقبل الإسلام جهاداً، أو علماً، وغير ذلك إلا بالإخلاص وعلاقة بالله..

«إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى فمن غزا ابتغاء مرضاة الله فقد وقع أجره على الله ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالا، لم يكن

(*) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(١٣) وسائل الشيعة ـ أبواب مقدمات العبادات ب ٥ ص ٣٣.

له الا ما نوى»[١٤].

«ومن طلب العلم، ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوأ مقعده من النار إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها»[١٥].

والمضمون، والإطار أيضاً يرتبطان بشكل وثيق، ويتفاعلان فيما بينهما فإن المضمون ـ العلاقة الروحية بالله ـ يخلق الإطار، والاطار يخلق المضمون، ويكمل أحدهما الآخر ليؤلفا الصورة السليمة للشخصية الإسلامية التي أرادها الله . .

وقد يحدث أحياناً أن يكون أحدهما أضعف مستوى من الآخر دون أن يمس ذلك الصورة الكلية للشخصية . . ولكن التفاوت قد يبلغ حداً معيناً (يعينه الإسلام) يخرج بموجبه الإنسان عن كونه شخصية إسلامية .

وعلى أي حال: فإن الجانب الروحي، والمضمون الروحي للإنسان المسلم هو جوهر، ومضمون شخصيته الإسلامية فإذا ما أريد أن يبدأ بالإصلا الاجتماعي من بناء الشخصية الإسلامية، فمعنى هذا إن ابتداء الإص الاجتماعي يكون من تربية الجانب الروحي، وبناء الصلة بالله تعالى . . كجزء من كل، وبناء الشخصية الإسلامية والتوعية الفكرية على أساس الاسلام لها دور خاص (يضاف إلى دور التربية الروحية في بناء الشخصية الإسلامية). لأن الجهل، وعدم وعي الإسلام، روحاً وأحكاماً، وأفكاراً، كثيراً ما يفصل مضمون الشخصية الإسلامية عن إطارها لأن.

«العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً»[١٦].

(١٤) نفس المصدر السابق ص ٣٩.
(١٥) أصول الكافي ج ١ ص ٣٣.
(١٦) أصول الكافي ج ١ ص ٤٤.

«ولا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة، ولا معرفة ألا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، إلا أن الايمان بعضه من بعض»(١٧).

ومن هنا ورد أيضاً أن.

«لا عمل الا بنية ولا عبادة إلا بتفقه»(١٨).

إن الشيء الذي لا زال أكثر الناس يجهلونه هو أن (الإيمان بعضه من بعض) أو التوازن في شخصية الإنسان المسلم، وأعطاء كل شيء من الإسلام حقه، الروح والعقل والقلب والإرادة فنرى بعض الناس يؤكدون على الفكر والثقافة الإسلامية المعاصرة.. ويدعون العبادة والتنفل وبناء القلب، والروح.. ونرى بعضهم على العكس يؤكد على التعبد.. والتنفل وبناء الصلة الداخلية بالله ولكنهم يهملون إطار الشخصية الإسلامية، ويتركون التفقه والتفقيه والعمل لله تعالى.. وكل هذا فيما أظن منبعه عدم وعي الإسلام وعدم التلقي من كتاب الله.. الذي يعرض في لوحات خالدة هذا التلاحم، والتكامل، والترابط الوثيق بين جوانب شخصية المسلم، ويعضد كتاب الله تعالى، ويصدر منه كما في باقي المجالات الحديث الوارد عن أهل البيت (ع).. ولنقتصر الآن على ذكر بعض الآيات على أمل أن نعمل في وقت آخر إن شاء الله تعالى على جمع النصوص الحديثية الواردة في خصال المؤمن، وملامح شخصيته(*).. لكي

---

(١٧) اصول الكافي، ج ١، ص ٤٤.

(١٨) وسائل الشيعة ـ أبواب مقدمات العبادادت ب ٥ ص ٣٣.

(*) تحقيقاً لمنى المؤلف الكريم هذه جملة من الأحاديث في هذا الشأن: ـ

١ ـ عن الصادق (ع):

«المؤمن له قوة في دين، وحزم في لين، وأيمان في يقين... وحرص في جهادٍ، وصلاة في شغل، وصبر في شدة وفي الهزاهز وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور....» أصول الكافي ج ٢ باب المؤمن وعلاماته ح ٤.

٢ ـ عن الصادق (ع):

نعي جيداً هذا الشمول والتوازن، والتكامل في شخصية الإنسان المؤمن . .

(١) »إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن

«ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: ـ وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء. قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء ولا يتحامل للأصدقاء بدنه منه في تعب والناس منه في راحة، أن العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره والصبر أمير جنوده، والرفق أخوة، واللين والده (المصدر نفسه ح ٢).

٣ ـ عن الصادق (ع):

«شيعتنا أهل الهدىٰ وأهل التقىٰ وأهل الخير وأهل الإيمان وأهل الفتح والظفر» (المصدر نفسه ح ٨)

٤ ـ عن الصادق (ع):

«إياك والسفلة فإنما شيعة علي من عف بطنه وفرجه، واشتد جهاده، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، وخاف عقابه. . .» (المصدر نفسه ح ٩).

٥ ـ عن الباقر (ع):

«المؤمن أصلب من الجبل، الجبل يستقل منه والمؤمن لا يستقل من دينه شيء» (المصدر نفسه ح ٣٧).

٦ ـ عن الصادق (ع):

«المؤمن حسن المعونة ، خفيف المؤونة، جيد التدبير لمعيشته، لا يلسع من جحر مرتين» (المصدر نفسه ح ٣٨).

٧ ـ وفي نهج البلاغة عن الإمام علي (ع) في خطبة له يصف فيها المتقين:

«. . . أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا. . . . . . وأما النهار فحلماءُ علماءُ أبرار أتقياء قد براهم الخوف بري القداح. . . .»

«. . . فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنىٰ، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال ونشاطاً في هدىٰ. . . .» (الخطبة ١٩٣).

المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين﴾(*)

تبين الآيتان الترابط بين الجانب الجهادي، والجانب العبادي، والعملي (الأمر بالمعروف) في شخصيةالمسلم[١٩].

(٢) ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة لتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾(**).

تبين الآية نحواً من الترابط بين الجانب الجهادي، والجانب العلمي، وإن كان بالنسبة إلى المجتمع، لا بالنسبة إلى كل فرد.

﴿(٢) وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً(*) والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً (*) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً (*) إنها ساءت مستقراً ومقاماً (*) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (*) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً (*) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (*) إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً (*) ومن تاب

(*) سورة التوبة، آية ١١١/١١٢.

(١٩) في الرواية عن أبي عبد الله (ع): (لقي عباد البصري علي ابن الحسين (ع) في طريق مكة فقال له يا علي تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج ولينه إن الله عز وجل يقول: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله) الآية فقال علي ابن الحسين (ع) اتم الآية فقال: (التائبون العابدون) الآية فقال: علي ابن الحسين (ع) إذا رأينا هؤلاء هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج (الوسائل ـ أبواب جهاد العدو ـ ب ١٢) ص ٣٣.

(**) سورة التوبة، آية: ١١٣.

وعمـل صالحـاً فإنـه يتوب الى الله متـابا (*) والـذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً (*) والذين إذا ذكـروا بآيـات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً (*) والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين أماماً ﴾(*)

(٤)﴿ محمـد رسول الله والـذين معه أشـداء على الكفار رحمـاء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجـوههم من أثر السجـود، ذلك مثلهم في التـوراة، ومثلهم في الانجيـل، كزرع أخـرج شطاه، فـآزره فاستغلظ، فـاستوى على سوقه، يعجب الزراع، ليغيظ بهم الكفار وعـد الله الذين آمنـوا، وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾(**).

الاعداد الروحي لتحمل القول الثقيل:

المنشأ الثاني: للاهتمام الإسـلامي بالتـربية الـروحية وبنـاء العلاقـة بالله تعالى هو، أن التربية الروحية إعداد لتحمل القـول الثقيل، وإعبـاء طريق ذات الشوكة بما فيه من تعرض للاغراءات، والضوابط، والمثبطات، والفتن.. وهذا هو الذي قدره الله تعالى لرسوله الكريم.. قدر أنه سيتعـرض (ص) لألوان من الضغـوط الخارجيـة، والداخليـة والاجتماعيـة والنفسية.. لتعـذيب المشركين واستهزائهم وإغرائهم، وطول مدة العمل معهم، وتصلبهم على الباطل.. الخ، وسيتعرض (ص) إلى تفكك في الصف، وتزلزل المؤمنين إلى آخر ما هنالك من مكاره، وفتن.. قدر هذا سبحانـه كله بالنسبـة إلى الرسـول (ص) فأعـده أولاً... وفتح له دورة تربوية روحية شاقة، ولكنها ضرورية، وحاسمـة.. فما هي هذه الدورة التـربويـة الروحيـة؟ هذا مـا تشرحـه الآيات الأولى من سـورة

(*) سورة الفرقان الآيات: من ٦٣ إلى ٧٣.

(**) سورة الفتح، اية: ٢٩.

المزمل:

﴿يا أيها المزمل، قم الليل الا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلا، أنا سنلقي عليك قولا ثقيلا، أن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا، إن لك في النهار سبحاً طويلاً، واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا﴾(*)

وقد مر رسول الله بثلاث مراحل من الأعداد والتوجيه والتربية الروحية لتحمل القول الثقيل:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الوحي.. من أجل تلقي الكلمة والرسالة إذ كان رسول الله (ص) (يتحنث في غار حراء - قبل البعثة بثلاث سنوات - أي يتطهر ويتعبد - وكان تحنثه عليه الصلاة والسلام شهراً من كل سنة، هو شهر رمضان يذهب فيه إلى غار حراء على بعد ميلين من مكة، ومعه أهله قريبا منه فيقيم فيه هذا الشهر ويطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة، والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة.. وكان اختياره (ص) لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم.. ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه، ويخلص من زحمة الحياة، وشواغلها الصغيرة، ويفرغ لموجبات، ودلائل الابداع وتسبح روحه مع روح الوجود، وتتعانق مع هذا الجمال، وهذا الكمال، وتتعامل مع الحقيقة الكبرى، وتتمرن على التعامل معها في ادراك وفهم.

ولا بد لاي روح يراد بها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى..

لا بد لهذه الروح من خلوة، وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل الأرض، وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة، لا بد من فترة للتأمل والتدبر، والتعاون مع الكون الكبير، وحقائقه الطليقة، فالاستغراق في

(*) سورة المزمل، الايات: ١ - ٨.

واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم لها فلا تحاول تغييرها أما الانخلاع عنها فترة، والانعزال عنها (والعيش) في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير، ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبيرة لرؤية ما هو أكبر، ويدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع . .

وهكذا دبر الله لمحمد (ص) وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل مسار التاريخ، دبر له هذه العزلة له قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد هذا التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله)[٢٠].

هذه هي فترة الاعداد الأولى في حياة الرسول (ص) وقد كان هدفها أن يصل الرسول (ص) إلى مستوى تنزل الوحي عليه، وإن كان(ص) من جهة عامة أهلاً لذلك في كل حين. . لم تكن هذه الفترة من الاعداد بتوجيه مباشر (وحي) من الله. . لأنها اعداد للوحي. . وأن كانت بهداية منه تعالى لرسوله الكريم. . وأما الاعداد الثاني للرسول(ص) من الزاوية الروحية فهو الاعداد الروحي بعد الوحي من أجل الدعوة والتبليغ، وتنمية القدرة على المواجهة، والصبر، والتحمل، والاستقامة في معامع الطريق. . وهو الذي أمر الله تعالى رسوله به في أوائل سورتي المزمل والمدثر[*]. . وإن كانت في السورة الأولى أوضح وأجلى. . وقد مرت آياتها بنا عن قريب.

ومن الواضح من خلال هذه الآية أن الله تعالى إنما يأمر رسوله الكريم بقيام الليل نصفه، أو ثلثه، أو ثلثيه بسبب أنه سيلقي عليه القول الثقيل. . وأن

---

(٢٠) في ظلال القرآن ج ٨ ص ٣٤١.

(*) ﴿يا أيها المزمل* قم الليل الا قليلا. . . . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا﴾ ﴿يا أيها المدثر* قم فأنذر* وربك فكبر. . . .﴾.

قيام الليل بهذا المقدار هو أكثر من غيره قدرة على بناء الروح وربطها بالله تعالى لتتحمل القول الثقيل.. ومن الواضح أيضاً أن القول الثقيل هنا ليس المراد به الوحي لأن الآيات النازلة هي وحي، ومسبوقة بالوحي.. إنما المراد به ـ والله تعالى أعلم ـ الأمر بالتبليغ والدعوة والمجاهرة.. وهو أمر ثقيل، بما يلزم عنه من ألوان الاضطهاد الجسمي والنفسي على الرسول (ص) والمؤمنين معه (وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب، والمعوقات، لثقيل، يحتاج إلى استعداد طويل ـ وأن قيام الليل والناس نيام، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفاسفها والاتصال بالله، وتلقي فيضه ونوره، والأنس بالوحدة معه، والخلوة إليه، وترتيل القرآن والكون ساكن، وكأنما يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لغط بشري ولا عبارة، واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته في الليل الساجي. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل وينير القلب في الطريق الشاق والطويل، ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير)[٢١].

وتذكر بعض الروايات أنه (ص) وأصحابه قاموا ـ بعد أن نزلت أوائل سورة المزمل ـ الليل سنة كاملة. وقيل عشر سنين حتى تورمت أقدامهم، فأنزل الله تعالى عليهم التخفيف الذي في آخر السورة[*]..

ونعني بالاعداد الثالث للرسول (ص) تغذيته الروحية أو التوجيهات الروحية المتكررة من الله سبحانه.. باستمرار مسيرة دعوته المباركة.. وهي

---

(٢١) في ظلال القرآن ج ٨ ص ٣٤١.

(*) ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنىٰ من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفه من الذين معك، والله يُقَدِّر الليل والنهار، علم ان لن تحصوه فتاب عليكم فارءوا ما تيسر من القرآن، علم أن سيكون منكم مرضىٰ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله، فاقرءوا ما تيسر منه، وأقيموا الصلاة...﴾.

آيات مبثوثة في القرآن الكريم، ولعل في جمعها ودراستها هي وآيـات الاعداد الثاني خيراً كثيراً للمؤمنين(**). . وهي على العموم كانت تتنزل من أجل تزويد الرسول (ص) بالطاقة الروحية اللازمة لمواجهة المكذبين والساخرين، والجـو المتحجر الذي لا تنمو فيه دعوة الرسول(ص) الا قليلاً. . وبالطبـع فإن هـذه التوجيهات لا تقتصر فقط على الأمر بالعبادة -ـ بالمعنى الخاص ـ وإنما تشمل مضافاً إلى ذلك على التذكيـر. . والتصبير والأمـر بالتـوكل، إلى غيـر ذلك من المعاني الروحية الأخرى.

ولكن لماذا الاعداد الروحي؟

عرفنا الآن كيف أن الله تعالى قدر لرسوله أن يمر بفتـرة اعداد روحي من أجل تحمل القول الثقيل. . وأن ذلك هو زاد المترسمين خطاه في كل جيل. . ولكن لماذا؟ وما هي علاقة حب الله تعالى، والاخلاص لـه في خوفـه ورجائـه وربط القلب به بتحمل المكاره وأعباء طريق ذات الشوكة، وأثقال المسيرة؟

(*) فيما يلي نماذج من هذه الآيات
﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم. . . ﴾ (الأحقاف ٣٥).
﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم. . . ﴾ (النحل ١٢٧).
﴿فاعبده واصطبر لعبادته. . ﴾ (مريم ٦٥).
﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ (الروم ٦٠)
﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ (الطور ٤٨).
﴿فإذا عزمت فتوكل على الله. . ﴾ آل عمران ١٥٩.
﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ المزمل ١٠.
﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله. . ﴾ النساء ٨١.
﴿وإليه يرجع الأمر كله فأعبده وتوكل عليه. . . ﴾ هود ١٢٣.
﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله﴾ الأحزاب ٤٨.
﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾ طه ٩٩.
﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ، الا تذكرة لمن يخشى. . ﴾ طه : ١، ٣.

والجواب على ذلك: أن للتربية الروحية علاقة صميمة وارتباطاً وثيقاً بـ(استقامة المسيرة) على خط الإسلام فكرياً وعملياً و(بتجاوز فتنة الاضطهاد) والتعذيب الجسمي والنفسي التي يتعرض لها رسول الله (ص) وأصحابه بـ(فعالية) علمهم و(تماسك) صفهم. . ولنعرض ذلك بشيء من التفصيل فيما يلي:

١ ـ التربية الروحية واستقامة المسيرة:

ليس من الهين أن تستقيم مسيرة المؤمنين العاملين في سبيل الله على الخط الذي يرتضيه الله تعالى، ويشترعه الإسلام من الناحية الفكرية المفاهيمية، والناحية العملية والسلوكية.

(وذلك للأسباب التالية):

١ ـ لأن الحضارة الجاهلية والمفاهيم الاجتماعية المادية التي كان يعيش في وسطها أصحاب الرسول (ص) تدعوهم إلى الانحراف. . بسبب أنهم أبناء هذه البيئة التي تعيش هذه المفاهيم الحضارية المادية فمن المعقول أن تؤثر فيهم عن طريق (الوراثة) الفكرية و(الايحاء) الثقافي. . (حيث أن) الميل النفسي عند كل إنسان (يتجه نحو) التوافق الاجتماعي واتخاذ الاخلاء، ولو عن طريق التنازل الفكري والسلوكي(*).

٢ ـ ولأن استعجال النصر. . والنزق واستباق المراحل تدعو هؤلاء المؤمنين إلى التنازل عن بعض أفكارهم وتليين مواقفهم من أجل أن تجد دعوتهم طريقها إلى قلوب الناس، وتتقدم في الجو الاجتماعي، ولو على حساب بعض جوانبها الرسالية(**).

٣ ـ ولأن الأهواء الشخصية هنا، وهناك قد تتجمع وتظهر في صيغ ثقافية

(*) ﴿لا يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل. .﴾ هود: ١٠٩.
(**) ﴿ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾ الاسراء ١١.

لتعمل على حرف المسيرة، وتمييع الشخصية الإسلامية الأصيلة، والارتباط بالله سبحانه وبرسالته(***).

هذه العوامل وغيرها دواع للانحراف ملازمة لكل عمل اجتماعي في عصر الرسول (ص) أو بعده. . والتربية الروحيـة شرط ضـروري للتعالي على هـذه العوامل، والانفـلات من تأثيـرها لأن التـربية الـروحية تقيم المؤمن في عـلاقة محكمة مع الله. . يعبده ولا يعبد سـواه ويرجـوه، ويعمل لـه لا لغيره. . يتـأثر بوحيه، ورسالته، ويقـطع صلة (التأثـر) بالنـاس، ويقيم معهم بدل ذلـك صلة (التأثير) والتوجيه. .

إنّ الانفصال عن الناس وحضارتهم. . وعن أهواء النفس وشهواتها لا يتم إلّا من خلال عمل تربوي جاد يبني الإنسان فيه نفسه مع الله ويقطعهـا به عمـا سواه (يعبده ولا يعبد غيره، ويرجوه ولا يرجو غيره، ويخافه ولا يخاف غيره). . وبكلمة يقطع قلبـه وشعوره وكيـانه عن كـل شيء عدا الله ومـا أمر الله بـه (أن يوصل) بهذا وحده يمكن أن تستقيم وتثبت على خط الإسلام.

ونكرر. . ليست الاستقامة المطلوبـة هينة أو يسيـرة ونزيـد هنا. . حتى على رسول الله (ص) نفسه. . ومن هنا ينقل عنه (ص) أنه كـان يقول (شيبتني هود) اشارة إلى قوله تعالى في سورة هود.

﴿فأستقم كما أمرت﴾(**)

وفي رواية عن ابن عباس (ما نزل على رسـول الله (ص) آية كـانت أشد عليه، ولا أشق من هذه الآية ولذلك قال لأصحـابه حين قـالوا لـه أسرع إليـك الشيب يا رسول الله: شيبتني هود والواقعة)(٢٢).

(*) ﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم. . .﴾ الأنعام ١١٩.

(**) سورة هود، آية: ١١٢.

(٢٢) الميزان م ١١ ص ٦٦ عن مجمع البيان.

ولنقرأ هنا مجموعتين من الآيات الكريمة نزلت على رسول الله(ص) من أجل تحصينه ـ وهو المعصوم ـ من الحيف، أو الانحـراف عن خط الإسلام . . وهما مجموعتان عجيبتان تدعوان للتفكير، والدرس، والتأمل الكثيـر . بشكل واضح بين الاستقامة على الخط . . والتربية الروحية . .

(١) ﴿فلا تك في مـرية ممـا يعبد هؤلاء مـا يعبدون إلا كمـا يعد آباؤهم من قبل، وأنـا لموفـوهم نصيبهم غير منقـوص ولقد آتينـا موسى الكتاب، فاختلف فيه، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم، وأنهم لفي شك منه مـريب. وأن كلا لمـا ليوفينهم ربـك أعمالهم أنه بما يعملون خبير ، فأستقم كما أمرت، ومن تاب معك ولا تـطغوا أنـه بما تعملون بصيـر ولا تركنـوا إلى الـذين ظلمـوا فتمسكم النـار، ومالكم من دون الله من أوليـاء ثم لا تنصـرون، واقم الصلوة طرفي النهار، وزلفا من الليل، أن الحسنات يذهبن السيئـات ذلك ذكـرى للذاكرين، واصبـر فإن الله لا يضيـع أجـر المحسنين﴾[٢٣] .

(٢) ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفـتري علينا غـيره وإذا لاتخـذوك خليلا ، ولـولا أن ثبتناك لقـد كدت تـركن إليهم شيئـاً قليلاً ، إذاً لأذقناك ضعف الحيـاة وضعف الممات ثم لا تجـد لك علينـا نصيرا . . أقم الصلوة لدلوك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثـك ربـك مقـامـاً محمـوداً ، وقـل ربِّ ادخلني مـدخـل صـــدق، واخـــرجـني مخـرج صـــدق، واجعــل لي مـن لـــدنــك سـلطانـاً نصيراً . .﴾[*] .

---

(٢٣) سورة هود/ ١٠٩ ـ ١١٥ .

(*) سورة الاسراء، آية ٧٣ ـ ٨٠ .

والآيات التالية لها تعلق أيضاً بما سبقتها . .

٢ ـ التربية الروحية وتماسك الصف:

تماسك الصف يعتمد على وحدة الأهداف، والمنطلقات ووحدة المشاعر، والتعاطف القلبي . . ويتعرض تماسك الصف إلى عوامل التفتيت، والتجزئة باستمرار . . (اختلاف الآراء، والمصالح الشخصية التي تغلب على المصلحة العامة عند بعض الناس، واختلاف المذاقات والمشاعر الخ) . .

والتربية الروحية . . وبناء العلاقة بالله تعالى ـ وتنميتها هي دائماً في صالح التماسك . . فإن التربية الروحية تعمل على ما يلي:

أ ـ توحيد المنطلق النفسي للمؤمنين في العمل . . (الدافع والهدف) . . حب الرسالة، والرغبة في نشرها وتطبيقها مقابل الرغبات الشخصية، والأهداف الذاتية التي تختلف عادة من شخص إلى آخر.

ب ـ الحب في الله تعالى، حب المؤمنين، والأنس بهم والأخوة فيما بينهم والمشاركة الوجدانية(٢٤).

ج ـ التقيد بالخلق الإسلامي في التعامل بين المؤمنين.

د ـ الحرص على المصلحة الدينية والخوف على الرسالة.

هذه المعاني الأربعة وما يتفرع عنها هي أساس التماسك والحصانة من التزلزل والتصدع . . وهي معان لا يبنيها سوى الإيمان بالله، والاخلاص له

---

(٢٤) نعني بالمشاركة الوجدانية الشعور الجماعي بدلاً عن الشعور الفردي . . أي الشعور ب(نحن) بدلاً عن الشعور بـ(أنا) وينتج ذلك تداعي المؤمن للمؤمن في آلامه وأفراحه وأحزانه . . عن الصادق (ع): (المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد أن اشتكى شيء منه وجد ألم ذلك في سائر جسده وأرواحهما من روح واحدة، وأن روح المؤمن لاشدُّ اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها) (الأصول ج ٢ ـ ص ١٦٦) وهذا يعني أن الصلة العاطفية بين المؤمنين نابعة من صلتهم العاطفية بالله تعالى.

تعالى، وحبه الذي ينبسط على المؤمنين، وكذلك طاعته، والصبر عليها في مواجهة الأهواء الشخصية ومشاعر الأنا والاستقلال. . وهذه الأمور هي جوهر البناء الداخلي الروحي للمؤمن. .

﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون، ويا قوم من ينصرني من الله أن طردتهم أفلا تذكرون﴾[٢٥].

(إن سرعة ائتلاف الأبرار إذا التقوا، وإن لم يظهروا التودد كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار، وأن بعد ائتلاف قلوب الفجار اذا التقوا وأن اظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم من التعاطف وأن طال اعتلافها على مذود واحد).

٣ ـ التربية الروحية، والثبات على الدين:

واوضح مما سبق صلة التربية الروحية، والثبات على الدين في الأيام الصعبة، وامتصاص المحن، والحرب النفسية والاضطهاد الجسمي، والنفسي الذي تواجه به الجاهلية أصحاب الرسول (ص) ومن بعدهم، ومن قبلهم اتباع الرسل والأنبياء أن الصمود في المحن والبلاء. . وفتنة العذاب والمواجهة هو سمة المؤمنين في القرآن الكريم:

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا، والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وأسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، فأتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾[٢٦].

---

(٢٥) هود/ ٢٩ ـ ٣٠.
(٢٦) آل عمران/ ١٤٥ ـ ١٤٨.

﴿الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم، فزادهم أيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله، وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾[٢٧]

﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم أنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلاقطعن أيديكم، وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل، ولتَعْلَمُنَّ أيُنا أشد عذابا، وأبقى، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض، وإنما تقضي هذه الحياة الدنيا، انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾[٢٨].

إلى آخر ما هنالك من آيات الصمود الايماني في مواجهة قوى الضغط والعذاب.

كيف أتيح لهذه الأفواج المؤمنة أن تصمد في وجه التحديات، وتواجه الآلام، والاغراءات، والاضطهاد بالصبر والثبات؟ وما هو غذاء أصحاب موسى، وأصحاب الأخدود الربيين، وأصحاب محمد في رحلة المكاره، والمصاعب؟ وبأي وقود استطاعوا الثبات، والتحدي حتى وهم تحت سياط الجلادين، وقبضة الطغاة؟

كان غذاؤهم، وعزاؤهم، ووقودهم في كل هذه المرحلة الزهد.

﴿اقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة﴾.

وذكر الله، والتوكل عليه، واحتسابه.

---

(٢٧) ال عمران/ ١٧٣.
(٢٨) طه ٧١ ـ ٧٣.

﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾

﴿والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾(*)

﴿والله خير وأبقى﴾(**)

والتطلع إلى ثواب الله تعالى في اليوم الآخر، واسترخاص هذه الحياة الزائلة إلى حيث تلك الحياة الخالدة.. والأفق الواسع في تصور الحياة، ووعي حركتها، وقلة متاع الظالمين.. وهكذا خوف الله واستشعار مراقبته. وهذا هو أيضاً جوهر التربية الروحية..

وأمثلة الصابرين بالله تعالى في المحنة، والبلاء بسبب عمق صلتهم بالله تعالى، وشديد تعلقهم به كثيرة جداً نعرف الكثير منها، ونجهل الكثير..

سجل القرآن الكريم بعضها وسجل التأريخ بعضها الآخر، وأسدل ستار الزمن على الكثير من صبر الصابرين في الله. ونحن هنا نستشهد بالمثالين التاليين، في كل تلك الحوادث:

١ ـ عن الفضل ابن شاذان أنه (سعى بمحمد بن أبي عمير إلى السلطان: أنه يعرف أسامي عامة الشيعة بالعراق، فأمره السلطان أن يسميهم، فامتنع، فجر، وعلق بين (العقارين) نخلتين، وضرب مائة سوط قال الفضل فسمعت ابن أبي عمير يقول: لما ضربت فبلغ الضرب مائة سوط أبلغ الضرب الألم اليّ، فكدت أن أسمي فسمعت نداء محمد بن يونس بن عبد الرحمن يقول: يا محمد بن أبي عمير اذكر موقفك بين يدي الله تعالى، فتقويت بقوله فصبرت، ولم أخبر، والحمد لله)[٢٩].

٢ ـ ومن أروع ما يرويه الأصفهاني عن مجموعة الحسنيين التي سجنت

(*) سورة البقرة، آية ١٥٦.

(**) سورة طه، آية ٧٣.

(٢٩) أخبار معرفة الرجال ص ٥٩١.

من قبل المنصور، لعدم معرفته بمكان محمد ابن عبد الله (ذو النفس الزكية) الذي كان قد بويع بالخلافة سراً منذ العهد الأموي، ما رواه عن علي بن الحسين العابد الذي كان ضمن هذه المجموعة الصابرة.

أ ـ عن أحد السجناء منهم: حبسنا في المطبق، فما كنا نعرف أوقات الصلاة إلا بأجزاء القرآن يقرأها علي بن الحسن.

ب ـ وفي رواية: لما حمل بنو الحسن إلى أبي جعفر أتى بأقياد يقيدونه بها، وكان علي بن الحسن قائماً يصلي وكان في الأقياد قيد ثقيل، فجعل كلما قرب إلى رجل تفادى منه واستعفى، فأنفتل علي من صلاته فقال: لشد ما جزعتم من هذا.. ثم مد رجليه فقيد به.

ج ـ وعن أحد السجناء: لما حبسنا كان معنا علي بن الحسن وكانت حلق أقيادنا قد أتسعت، فكنا إذا أردنا صلاة أو نوماً جعلناها عنا، فإذا خفنا دخول الحراس أعدناها، وكان علي بن الحسن لا يفعل فقال له عمه: يا بني ما يمنعك أن تفعل؟ قال: لا والله لا أخلعه أبداً حتى اجتمع أنا، وأبو جعفر عند الله تعالى فيسأله لم قيدني به؟

د ـ وعن أحدهم: لما دخلنا السجن قال علي بن الحسن:

«اللهم إن كان هذا من سخط منك علينا، فأشدد حتى ترضى»

هـ ـ وعن الحسن بن نصر قال: حبسهم أبو جعفر في محبس ستين ليلة ما يدرون بالليل، ولا بالنهار، ولا يعرفون وقت الصلاة الا بتسبيح علي بن الحسن، قال فضجر عبد الله (أبو محمد) ضجرة فقال: يا علي، ألا ترى ما نحن فيه من البلاء؟ ألا تطلب إلى ربك عز وجل أن يخرجنا من هذا الضيق والبلاء؟ قال: فسكت عنه طويلاً، ثم قال: يا عم: أن لنا في الجنة درجة لم نكن لنلقيها إلا بهذه البلية أو بما هو أعظم منها، وإن لأبي جعفر المنصور في النار موضعاً، لم يكن ليبلغه حتى يبلغ منا مثل هذه البلية، أو أعظم منها. فإن تشأ تصبر فما أوشك فيما أحسبنا أن نموت، فنستريح من هذا الغم، كأن لم يكن منه شيء..

وإن لم تشأ أن ندعو ربنا أن يخرجك من هذا الغم، ويقصد بأبي جعفر غايته التي له في النار فعلنا قال؛ لا؛ بل اصبر. فما مكثوا إلا ثلاثاً حتى قبضهم الله إليه..[٣٠]

ط ـ ومن روايات أبي الفرج أيضاً، وعن أبي عبد الله ابن موسى قال: سألت عبد الرحمن بن أبي الموالي وكان معه بنو الحسن بن الحسن في المطبق: كيف كان صبرهم على ما هم فيه؟ قال: كانوا صبراء، وكان فيهم رجل مثل سبيكة كلما أوقدت عليه النار ازدادت خلاصاً وهو اسماعيل بن إبراهيم، كان كلما اشتد عليه البلاء ازداد صبراً[٣١].

هذه بعض الآثار العملية الهامة للجانب الروحي.. وهناك آثار أخرى: فعمل المؤمن العامل يصدر عن خلفية إيمانية، ورصيد روحي كبير، وعلاقة وثيقة بالله تعالى هو الأكثر اندفاعاً، وانتاجاً، والأكثر ثباتاً، واستقراراً في ظل المتغيرات الحياتية، من رفاه، ورخاء إلى محنة وابتلاء ومن انفتاح الناس، وتقبلهم إلى جفائهم، وتكذيبهم، ومن بساطة العمل لله إلى التعقد، والتشابك، أن الإيمان وحده بما له من آثار في النفس، والشعور هو وحده القادر على الجمع بين الاندفاع في العمل، والهدوء في المشاعر والتسامي في الوجدان. وهي معانٍ من أصعب المعاني في مجال التربية.

كيف لا ينطلق المؤمن من الأثارة الخارجية؟ وكيف لا تهزه العواطف والمتغيرات؟ وكيف لا ينشغل بجزئيات الحياة عن الاهتمامات الرسالية الكبرى؟ وكيف لا يضيق صدره من مواجهات التكذيب والسخرية ويحتفظ بطمأنينة ورباطة جأشه في أحرج اللحظات؟ وكيف يحتفظ بدرجة اندفاعه، وينمو عنده هذا الاندفاع في مختلف الظروف والأحوال؟!

وأخيراً. كيف يحافظ على استقامته الشرعية في معمعنة العمل

---

(٣٠) مقاتل الطالبيين ص ١٣٩.
(٣١) نفس المصدر ١٣٥.

الاجتماعي، وضوضاء الحياة؟

والجواب: أن كل هذا ليس له سوى منبع واحد.. هو الإيمان حينما يثبت في الجوارح كلها في القلب والمشاعر، والارادة، والوجدان.

٤ ـ التربية الروحية وعمل الأئمة:

ومن الواضح تاريخياً، أن الأئمة كانوا عموماً يعملون به لأجل بناء، وتكوين الشخصية الإسلامية المتكاملة كنقطة مشتركة ضمن النقاط المشتركة في عملهم (ع).. وكانت الشخصية الإسلامية في وعيهم. بوصفهم المعبرين الحقيقيين عن الإسلام هي هذا التلاحم، والتكامل بين الإطار الأخلاقي الشامل للعطاء الاجتماعي، والعمل الرسالي، وبين المضمون والمحتوى الروحي الذي يتمثل في العلاقة بالله تعالى.

كانوا (ع) يواجهون عملية التحلل الأخلاقي، والانصراف للدنيا والبعد عن الله.. والتنصل عن عبادة الله تعالى، وكانوا يواجهون الانحرافات العملية في الجماعة، التي أفرزها عملهم، عندما حولت بعض قطاعاتها الولاءات الى اداة للتنصل عن الالتزام الشرعي، ولتبرير الوضع المتحلل بدلاً من أن تفهمه على حقيقته، بوصفه عاملاً من عوامل الاستقامة، والالتزام بالشريعة، وكانوا أولاً وأخيراً. ينطلقون من دورهم الايماني في الحياة الذي يتمثل ـ فيما يتمثل فيه ـ بتكوين أجيال مؤمنة تحمل الرسالة إلى العالم باستمرار.. فيعملون على ذلك بمختلف الأساليب..

وقد سجلت المجاميع الحديثية النصوص الواردة عنهم حول الإيمان والأخلاق والتربية الروحية، حول الشخصية الإسلامية وبنائها فبلغ ذلك من الكثرة مبلغاً عظيماً.

ونحن هنا نسجل شيئاً من تلك النصوص التي تربط بين الولاء، والتشيع لخط أهل البيت (ع)، وبين العلاقة الروحية بالله تعالى:

١ ـ عن أبي جعفر (ع):

«لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا، إلا من أطاع الله عز وجل»[٣٢]

٢ ـ عن جابر عن أبي جعفر (ع):

«قال: قال لي: يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت فوالله ما شيعتنا، إلا من اتقى الله وأطاعه وما كانوا يعرفون يا جابر الا بالتواضع، والتخشع، والأمانة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة...»[٣٣]

٣ ـ عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله (ع) في حديث:

«ما أقل والله من يتبع جعفراً منكم إنما أصحابي من اشتد ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، فهؤلاء أصحابي»[٣٤]

٤ ـ وعنه ((ع):

«ليس منا ـ ولا كرامة ـ من كان في مصر فيه مائة ألف، أو يزيدون، وكان في ذلك المصر أحد أورع منه»[٣٥]؟

وعنه (ع):

«شيعتنا الشاحبون الذابلون الناحلون الذين إذا جنهم الليل استقبلوه بحزن»[٣٦]

٦ ـ وعنه (ع):

«أن شيعة علي كانوا خمص البطون ذبل الشفاه، أهل رأفة، وعلم،

---

(٣٢) أصول الكافي ج ٢ باب الطاعة والتقوى ج ١.
(٣٣) نفس المصدر باب الطاعة والتقوى ج ٣.
(٣٤) نفس المصدر باب الورع ح ٦.
(٣٥) نفس المصدر باب الورع ج ١٠.
(٣٦) نفس المصدر ج ٢ باب المؤمن وعلاماته وصفاته ج ٧.

وحلم، يعرفون بالرهبانية، فأعينوا على ما أنتم عليه بالورع والاجتهاد»(*)

وعن أبي جعفر (ع):

«إنما شيعة علي الحلماء العلماء الذبل الشفاه تعرف الرهبانية على وجوههم»(٣٧)

ومن المناسب أن نذكر هنا أن الجيل الأول من المسلمين قد خرّج مجموعة من أهل العبادة، والورع والتقوى، كانوا بسببها موضع مدح أهل البيت «ع» إذ يروى عن أبي جعفر (ع) في خبر صحيح قال: صلى أمير المؤمنين (ع) بالناس الصبح بالعراق، فلما انصرف وعظهم فبكى وأبكاهم من خوف الله، ثم قال: أما والله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله (ص): وأنهم ليصبحون ويمسون شعثاً غبراً خمصاً، بين أعينهم كركب المعزى يبتون لربهم سجداً وقياماً يراوحون بين أقدامهم وجباههم يناجون ربهم، ويسألونه فكاك رقابهم من النار والله لقد رأيتهم مع هذا، وهم خائفون، مشفقون»(**).

هذه بعض النصوص الشاهدة على أن الأئمة (ع) كانوا يهدفون إلى بناء الشخصية الاسلامية بما تتضمنه من عبادة، وإيمان، وحب، وإخلاص، وكل عناصر الروحية الإسلامية الأخرى. ومن هنا فهم (ع) يربطون بين الولاء، وبين التربية الروحية. . وما دراسة هذا الهدف ضمن الأهداف العامة للأئمة (ع) من الزاوية التاريخية فلها موضع آخر...

الجانب الروحي والممارسات العبادية:

توجد بصدد تحديد نوعية العلاقة بين الجانب الروحي والممارسات العبادية فكرتان خاطئتان هما:

---

(٣٧) نفس المصدر جا٢ باب المؤمن وعلاماته وصفاته ح ٢٠.

(*) الأصول من الكافي ج ٢ باب ٩٩ ح ١٠.

(**) المصدر نفسه ح ٢ باب ٩٩ ح ٢١.

١ ـ الفكرة التي تؤكد على أن الممارسات العبادية هي كل شيء. وأن الجانب الروحي إنما هو الممارسات العبادية من أذكار، ونوافل، وتبتلات.

٢ ـ الفكرة التي تقطع الصلة بين الجانب الروحي والممارسات العبادية، وتفترض أن بإمكان الانسان المؤمن أن تكون لديه الملكة الروحية، وأن ينمي علاقته الداخلية بالرسالة من دون حاجة إلى المستحبات والأذكار وغيرها من الأمور العبادية الخاصة.

والصحيح أن الممارسات العبادية شيء، والجانب الروحي شيء آخر، وأن بينهما صلة وثيقة، وذلك لأن الجانب الروحي إنما هو الارتباط النفسي، والروحي بالله تعالى، هذا الارتباط والانشداد الداخلي، الذي يؤدي إلى الورع في الإسلام.. وهذا المعنى هو الذي يعتبر عنصراً من عناصر الشخصية الإسلامية، أو محتواها الحقيقي، وأما العبادة الخارجية فهي ليست المحتوى الحقيقي للشخصية الإسلامية وإنما لها دور آخر سنشير إليه.. والإسلام ـ كتاباً وسنة ـ عندما يولي العبادة الخارجية من أذكار، وصلوات وأدعية.. اهتماماً، وتأكيداً، فإنما هو من أجل زيادة الايمان بالله، وحبه، والإخلاص له، وتمثل ما رسمه للإنسان في الحياة..

﴿كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾(٣٨)

وتؤكد النصوص هذه الحقيقة.. وهي أن المهم إنما هو البناء الداخلي والانشداد النفسي، والعاطفي، والسلوكي بالله تعالى، بل وتحذر من الوقوع في خطأ الخلط بين البناء الذاتي والممارسات العبادية.. لما لهذا الخلط من آثار عملية وفكرية سيئة ومن أوضحها التركيز على العبادة، والممارسات العبادية، واهمال المضمون الداخلي والتربوي للانسان..

---

(٣٨) سورة البقرة ١٨٣.

١ ـ عن مفضل بن عمرو قال: «كنت عند أبي عبد الله (ع) فذكرنا الأعمال فقلت أنا: ما أضعف عملي، فقال: مه، استغفر الله، ثم قال: إن قليل العمل مع التقوى، خير من كثير العمل بلا تقوى»[٣٩]

٢ ـ عن أبي بصير قال: قال رجل لأبي جعفر (ع): أني ضعيف العمل قليل الصيام ولكني أرجو أن لا أكل الا حلالاً فقال له: أي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج؟[٤٠]

وفي نص صحيح عن أبي جعفر (ع): •

«ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج»[٤١]

١ ـ عن عيسى بن عبد الله أنه قال لأبي عبد الله (ع):

جعلت فداك: ما العبادة؟ قال: حسن النية بالطاعة من الوجوه التي يطاع الله منها. .[٤٢].

إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على هذا المعنى. .

إذن فالأساس في الجانب الروحي، والمهم في نظر الإسلام تربوياً هو، الصلة الداخلية بالله، والانشداد النفسي والعمل. . لا كثرة العبادة. .

هذا من جهة. . ولكن من الجهة الأخرى فإن الممارسات العبادية، وكثرة الأذكار، والتنفلات هي جزء مهم من الإسلام وليست إضافة غريبة عليه، وقد ورد الحث الشديد عليها في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وسجل لنا التأريخ

---

(٣٩) أصول الكافي ج ٢ باب الطاعة والتقوى ج ٧.
٤٠) نفس المصدر ج ٢ باب الطاعة والتقوى ج ٧.
(٤٠) نفس المصدر ج ٢ باب العفة ج ٤.
(٤١) أصول الكافي ج ٢ ص ٧٩ باب العفة ج ١.
(٤٢) أصول الكافي ج ٢ ص ٨٣ باب العبادة ج ٤.

حرص الأئمة البالغ على أدائها، والقيام بها(٤٣).

ومن الواضح أن الإسلام إذ يؤكد على هذه الممارسات العبادية، فلا يؤكد عليها بما هي أصوات، وحركات، وطقوس. . وإنما ينبع تأكيده عليها، لصلته الوثيقة بالارتباط النفسي والروحي بالله سبحانه. . أي بوصفها عاملاً تربوياً وسبباً من أسباب تصعيد الايمان في المشاعر، والعواطف والارادة. . فهذا الحث الأخلاقي والتشريعي يكشف عن (صلة واقعية) بين الممارسات العبادية والمحتوى الداخلي للشخصية الإسلامية، وهي صلة لا يمكن عملياً ـ بموجبها ـ أن نتصور مستوى روحياً جيداً، من دون ممارسة عبادية جادة، تتمثل في مجموعة من الحركات العبادية والأذكار، والصلوات ـ المستحبة بالطبع ـ وهكذا تلاوة القرآن الكريم، ومتابعة الأدعية، وما شاكل ذلك.

إن من حسنات الإسلام الكثيرة علينا ـ ومن نعم الله سبحانه ـ أنه كما أوضح لنا الأهداف التربوية كذلك حدد لنا عموماً وسائلها، ولم يترك هذا الإنسان يتخبط في تحديد الوسائل، والأساليب التي تربطه نفسياً، وشعورياً

---

(٤٣) ولعل الأمامين العليين أمير المؤمنين وعلي ابن الحسين (ع) كانا أكثر مبالغة وجهداً من باقي الأئمة (ع) في ذلك. . ففي خبر صحيح عن أبي عبد الله: (كان علي بن الحسين (ع) إذا أخذ كتاب علي (ع) فنظر إليه قال: من يطيق ذا؟ من يطيق ذا، قال: ثم يعمل به وكان إذا قام إلى الصلاة تغير لونه حتى يعرف ذلك من وجهه وما أطاق عمل علي (ع) من ولده من بعده إلا علي بن الحسين (ع) ويؤكد هذا المعنى أخبار أخرى (الوسائل ـ مقدمات العبادات ـ باب ٢٠ ص ٣) وفي بعضها أنه دخل أبو جعفر (ع) على أبيه علي بن الحسين فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد فرآه قد اصفر لونه من السهر ورمضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانحرف أنفه من السجود وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة: وقال أبو جعفر فلم أملك ـ حين رأيته بتلك الحال ـ البكاء فبكيت رحمة له فإذا هو يفكر فالتفت إلي هنيئه من دخولي فقال يا بني أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب (ع) فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثم تركها من يده تضجراً وقال: (من يقوى على عبادة علي بن أبي طالب (ع))؟ باب ٢٠ ص ٦٨ الوسائل.

بالغيب، شخص الله سبحانه في تشريعه المنزل: الصلاة والأذكار، والصيام، وتلاوة القرآن الكريم، والدعاء.. كوسائل لتنمية الروح.. وبناء الذات الرسالية وليس بإمكاننا أن نقفز من على الأساليب الربانية لنصل إلى هدفنا التربوي الخطير، إنما نصل إليه بواسطة تمثل هذه الأساليب، وتبنيها عملياً.. وكما أن الممارسات العبادية (عامل) تربية للبناء الروحي كذلك هي (نتائج) لأن العلاقة الداخلية بالله تظهر على السلوك، لا بشكل طاعة، والتزام فقط، وإنما عبادة، وخشوع، وتضرع، واذكار أيضاً.. نلخص من كل هذا.

أولاً: أن الممارسات العبادية ليست هي الجانب الروحي في الشخصية الإسلامية.. ولا هي المهم المباشر في نظر الإسلام وإنما هي جزء مهم من الإسلام.

ثانياً: أن هناك علاقة وثيقة بين الانشداد النفسي العاطفي، والشعوري، والعملي بالله ـ الجانب الروحي ـ وبين الممارسات العبادية لأن تكوين الجانب الروحي وتنميته لا يتم من الناحية العملية، ومن زاوية النظرية الإسلامية التربوية إلا من خلال الممارسات العبادية وأمثالها، ونقصد من الممارسات العبادية في كل ما سبق الممارسات العبادية، التي تمثل العبادات الواجبة المؤداة بصورتها الصحيحة، والفضلى، والعبادات المستحبة.

جنايات على التربية الروحية:

نلاحظ: أن الإنسان المسلم ـ وحتى بعض من كتب في هذه المجالات ـ يعاني من الضعف الروحي.. وضعف الانشداد النفسي بالله تعالى.. من عوامل ذلك صعوبة التعامل النفسي مع الغيب لأن الإنسان بحكم تكوينه المرتبط بالمادة، وانغماسه في الحس ذهنياً، ونفسياً لايجد من السهل أن يتعالى على ذلك، ويعلق شعوره، وقلبه بالله سبحانه ويقطع نفسه من الدنيا،

ومعانيها الخداعة. . طبيعة المذهب البشري الميال إلى التفكير الحسي[٤٤] وغرائز الإنسان، وشهواته التي تتطلب السرعة، والعجلة في التنفيذ[٤٥] عاملان داخليان لإضعاف التوجه الروحي في المشاعر والوجدان، والارادة.

ويضاف إلى ذلك، عوامل أخرى تساعد على ضعف البناء الروحي للانسان المسلم:

١ ـ الصورة المشوهة التي كونتها الاتجاهات الروحية المنحرفة إذ يقترن الآن في ذهن الإنسان المسلم ـ أو بعض المؤمنين ـ أن التربية الروحية العبادية الكثيرة التي تهدف إلى خلق الروح الإسلامية المشدودة إلى الله تقترن باعتزال الناس، والقطيعة الاجتماعية، والتنصل عن المهام الرسالية في الحياة، أن الأفراط ـ لو صح هذا التعبير ـ في التربية الروحية واختلال التوازن السلوكي على حساب العمل الاجتماعي أدى إلى تفريط هذه التربية، وردود فعل نفسية سلبية تجاهها.

وأن توضيح المفهوم الإسلامي الصحيح حول الأعداد والتربية الروحية، والعمل على القاء الأضواء على حياة الرسول (ص) والأئمة الصالحين الذين عانوا في العمل الاجتماعي، في جانبها العبادي المشرق، واقتران الدعوة إلى التربية الروحية بشجب التيارات المنحرفة فيها من الأمور الضرورية، في مواجهة هذا التعامل التاريخي السلبي

٢ ـ الجو الحضاري، والاجتماعي الذي يقوم على أسس أخلاقية، وفلسفية تختلف عن قيم الإسلام، وأخلاقه وتصوراته عن الحياة. إن هذه

---

(٤٤) الانسان وإن كان يميل طبيعياً إلى التفكير الحسي إلا أنه قادر على تجاوز المعرفة الحسية. . فهذا وغيره من (القوانين الاقتضائية) وليس من (القوانين الحتمية).

(٤٥) (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الثواب) (آل عمران).

(وبدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) (الاسراء).

الحضارات المادية التي يشيع تـأثيرهـا في كل مكـان لقادرة على أن تستـوعب تيارات اجتماعية، وفكرية مختلفة وهي لا تمانع مع انتشار هذه التيارات شريطة أن لا يكون لهذه التيارات مضمون حياتي، وأخلاقي، أو حضاري جديد يختلف عنها، بإمكان هذا الانسـان المسلم أن يعمل لـلإسلام ويـوضح أفكـاره كمبدأ اقتصادي واجتماعي. . دون أن يشعر بـ (ازدراء) اجتماعي وحضاري خاصة إذا فرغ الإسلام من مضمونه الأخلاقي. . أما أن يـدعو هـذا الانسان المسلم إلى صياغة انسـان جديـد. . يقوم على أسـاس الانشداد النفسي والشعـوري، بالله والزهد في الدنيا. أو هو يبني نفسه على أساس، من ذلك فهذا (نشاز) في وعي الانسان المعاصر الذي يزدري بسهولة هذه المفاهيم وهذا عامل مهم من عوامل ضعف البناء الروحي لأن للإيحاء الحضاري والاجتماعي أثراً كبيراً في شخصية الفرد.

٣ ـ التحدي الثقافي الغربي للإنسان المسلم يفترض على هذا الانسان أن يقـوم بعملية رد على هـذا التحـدي، والـذي يحـدث ـ عـادة ـ في مثـل هـذه الحـالات هو أن يفقـد الإنسان المسلم أصـالته، وصـدوره عن منبـع ثقـافي، وروحي أصيل. . وتكون ثقافته، ومواقفه مجرد ثقافـة ومواقف (دفـاعية) وهـذه مسألة مهمة تدعو إلى التفكير والتأمل. .

عناصر الجانب الروحي:

تشتمل الروحية الإسلامية على ثلاثة عناصر رئيسية:

الأول: الـوعي الإيماني وتعني ـ هنـا ـ المدركـات الـذهنيـة التي تتمتـع بالاستحضار المستمر، والمعايشة الدائمة من قبل الإنسـان المؤمن، كالايمـان بالله تعالى، واليوم الآخر والشعور بالحركة التاريخية، ووحدة المسيرة. . الخ.

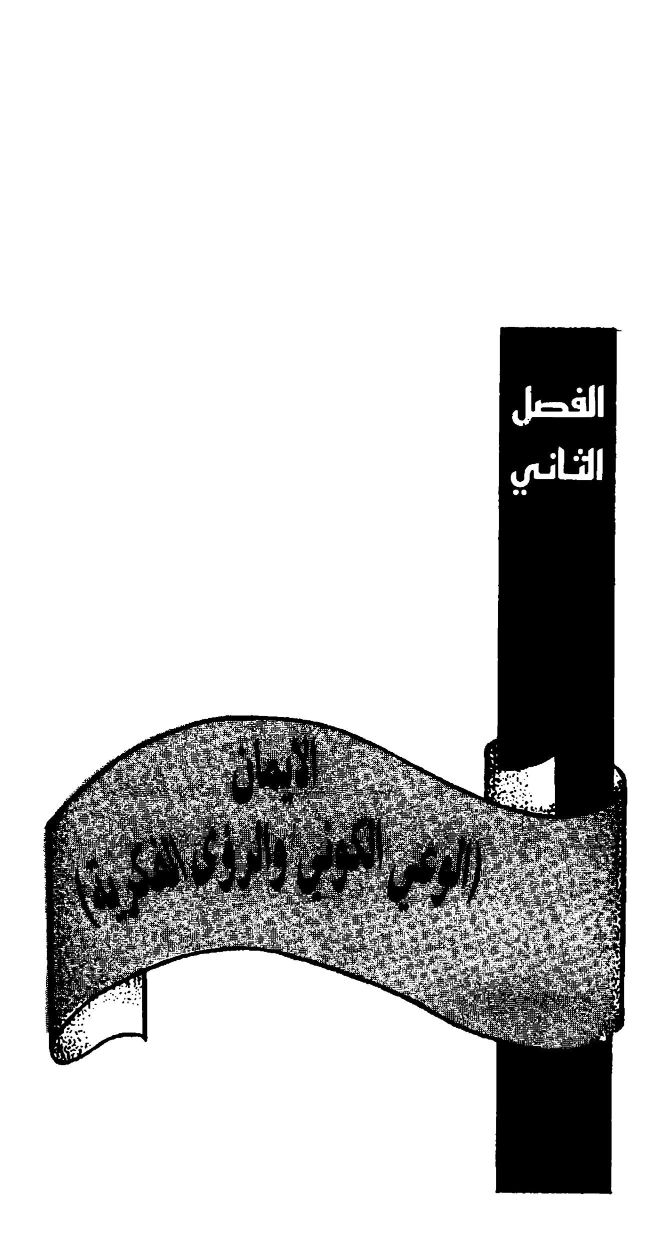
الثاني: الوجدان الاسلامي ويشمـل العواطف كحب الله تعـالى، وحب

المؤمنين، والانفعالات، كالخوف، والرجاء من الله، والغضب له.

الثالث: الارادة، والاخلاص، أو الدافع الديني في شخصية الانسان المسلم، الذي ينظم حركة هذه الشخصية وتصرفاتها، ويعتبر الجهاز الحاكم فيها.

وسندرس هذه العناصر أن شاء الله تعالى.. تباعاً ثم نسجل بعد ذلك أن شاء الله الوسائل التي وضعها الإسلام لبناء الجانب الروحي وتنميته.

ومنه تعالى نستمد التوفيق والسداد..


الفصل
الثاني
الإيمان
(الوعي الكوني والرؤى الفكرية)

دور الفكر في الشخصية الاسلامية:

الفكـر. . هو الصـورة الذهنيـة التي يحملها الانسـان عن الـواقـع، عن الكون، أصله، نشأته، تطوره ونهايته، والحياة ومعناها والمجتمع وقوانين ودور الانسان في هذه الدنيا. . ومسؤوليته فيها وصلة الله تعالى بالعالم. . إلى آخر ما هنـالك من مـوضوعـات ـ يتعلق بها الفكـر الانساني، والفكـر هو أحـد أجهزة الشخصيـة الانسانيـة، التي تتفاعـل فيما بينهـا، وتتبادل التـأثير وهي (الفكرة، العاطفة، الارادة) ففكر الإنسان ليس منفصلاً عن عاطفته وأسلوب حياته النفسية وإنما هو متصل بها أوثق اتصـال، يؤثر فيهـا ويتأثـر بها. . ومن هنـا كان النمـو الفكري للطفل البشري، والمجتمع البشري يؤثر باستمرار في طـريقة حيـاته، وفي قيمه الأخلاقية والحضارية، ودرجة انفتاحه النفسي، ونضجه الانفعالي. .

ومن هنا أيضاً كانت أجدر الرسالات في التأثير بالناس، وقيادتهم، الرسالة التي تقدم لهم منهجاً كاملاً شاملاً للفكر، والأخلاق، والسلوك. . لأن الإنسان في ظل هذه الرسالـة لا يشعر بـالانفصال بين فكـره، وسلوكه، وبين مفـاهيمه بالحياة، وقيمـه الأخلاقيـة ولأن كل جـزء من هذه الـرسالـة يعزز الجـزء الآخر

ويكمله.

ومن هنا ندرك عظمة هذا الدين الذي تَنزَّل من أجل بناء الإنسـان، حينما بدأ مشروعه التغييري الجبار من التحرير الفكري للانسان من أوهام الجاهلية، والابـداع وإعادة بنـائه العقلي على أسـاس من وعي كوني جـديد، يقـوم على أساس الإيمان بالله، الواحد الأحد، المتفـرد بالأسمـاء الحسنى، ذي الطول، والنعم باعث الأنبياء، والرسل لهداية الناس.. والايمان بمرحلية هـذه الحياة، وعود الناس إلى الحياة من جديد، ليروا أعمالهم.

﴿فمن يعمـل مثقال ذرة خيـراً يـره، ومن يعمـل مثقـال ذرة شـراً يره﴾(*)

وما أسهل أن ندرك قيمة هذا الوعي الكوني في شخصية الإنسان المسلم وأثـره العميق في الحياة النفسيـة لهذا الإنسـان هذا الـوعي الذي يبعث وينمي الإحساس الأخلاقي بالحياة، ويعمل على خلق المشاعر المتعالية على جزئيات الحياة، وصغائـر الأمور.. هـذا الوعي الـذي يقاوم التقييم النفسي للظواهـر، والأشخـاص، ويوسـع الآفاق.. ويخلق طمـأنينة النفس، وهـدوء المشـاعـر، والانفعالات، هذا الوعي الذي ينمي روح التفاؤل بالحيـاة، والانفتاح عليهـا، ويترك لأهل الضلال السأم، والتـطيّر، والقلق، والغثيـان.. ولا يقتصر الـوعي الذي يشيعه الإسـلام بين المؤمنين على الوعي الـديني الخاص، الـذي يتمثل بالإيمان بالله، واليوم الآخر بل يتعدى ذلك إلى مجالات أخرى سنأتي عليها إن شاء الله بعد قليل.

الوعي الفكري والفهم:

إن الفكر الذي يعتبر عنصراً من عناصر شخصية الإنسان المسلم ليس هو

(*) سورة الزلزلة، آية ٧، ٨.

(الفهم) والتصديق الساذج بقضايا الإيمان، وتقريرها تقريراً منطقياً، أو عملياً إنما هو، الوعي والفكر المستحضر المعاش في الذهن، والمتذكر باستمرار فهؤلاء الذين يؤمنون بالله تعالى كما يؤمنون بكروية الأرض، ودورانها حول الشمس، ولا يتعاملون شعورياً مع هذه الفكرة الخطيرة. . لا يتمثلون في ذلك الوعي الديني والكوني وإنما هم فقط (يفهمونه) ويبقى الوعي لهذا الإنسان الذي يفكر في الأشياء، ويحسها من خلال ارتباطها بالله ويتذكر الله باستمرار. .

وما يشترط بالإنسان المسلم غير ما يشترط في الشخصية الإسلامية ، إن ما يشترط في الإنسان المسلم من أجل أن ينتمي رسمياً إلى الإسلام هو، أن يؤمن بالله، ورسوله إيمان فهم، ويُعَلَق هذا الإيمان بكلمة الشهادة مثلاً لا أكثر. . . ولكن ما يشترط في الشخصية الإسلامية، ويعتبر العنصر الأول من عناصرها شيء آخر هو، الوعي الإيماني، أو الإيمان بوعي، بمعايشة ذهنية. . بالنظر إلى الأشياء، والعالم من خلال الارتباط بالله تعالى. وبهذه يصبح الفكر الإسلامي شيئاً اخر، أو بالأحرى ينتقل إلى مرحلة أخرى هي مرحلة (الرؤية الفكرية) أو (البصيرة) شيء تحسه، وتراه. . وتؤمن به كما تؤمن بالأشياء الت تواجهها ، وتقوم في حسك، وعقلك[1] فمثلما ترى نفسك وأنت تشا الأشياء، وتبصرها. . وينشد ذهنك اليها. . كذلك ترى نفسك، وأنت تؤمن بالله وتؤمن باليوم الآخر ومرحلية هذه الحياة.

مراحل الاعتقاد:

في هذا العالم ناس ملحدون، تمردوا على خالقهم، فأنكروا وجوده، أو

---

(١) قد يكون معنى البصيرة في مثل قوله تعالى: ﴿هذا بصائر وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾ و﴿قل هذه سبيلي أدعوا الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ هو الفكرة التي تشتمل على عنصري.
(أ) الطابع العملي. . أو بالأحرى أنها فكرة ذات عطاءات عملية.
(ب) أنها فكرة معايشة ومستحضرة فالبصيرة ترادف الوعي، أو الرؤى الفكرية.

عاشوا في هذه الحياة معيشة ضنكا: وفيه أيضاً مشككون، قد أتعبتهم الحيرة، واستحكم فيهم القلق، والتردد. إلى جانب هؤلاء، هنالك مؤمنون بالله تعالى عند حدود (الفهم) ويقررون وجود الله تعالى كما يقررون وجود الحياة على كوكب المريخ، أو كما يشرحون لك تحول السدم إلى مجرات.. فهم يؤمنون بالله من الناحية الفعلية، والمنطقية، ولكنهم لا يؤمنون به شعورياً، ولا يحسون وجوده المقدس.. وهنالك المؤمنون الذين تجاوزوا مرحلة (الفهم) إلى مرحلة (الوعي).

وإيمان الوعي هو أن تبصر الله في خلقه، وعند نعمه ولا تنساه نسيان شعور بل تعيش وجوده، وتستشعر به تعالى وهناك من يتجاوز مرحلة (الوعي) إلى مرحلة (الاحساس) واليقين، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون..

وهكذا فمراحل الاعتقاد ثلاثة كما ورد عن الإمام الصادق (ع):

«أن الأيمان أفضل من الإسلام، وأن اليقين افضل من الإيمان، وما من شيء أعز من اليقين»[٢].

المرحلة الأولى: مرحلة الإسلام، وهي أن تؤمن أيمان (فهم) بشهادة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، ولا تقتضي هذه المرحلة سوى التصديق بالله تعالى، وكماله وتوحيده، ونبوة الرسول (ص)، وتؤمن إجمالاً بما جاء به كما تصدق بالنظريات العلمية مثلاً من دون معايشة ومشاركة، ومن هنا جاء في خبر سماعه عن الصادق (ع):

«الإسلام شهادة أن لا إلا الله، والتصديق برسول الله (ص) به حقنت الدماء وعليه جرت المناكح، والمواريث، وعلى ظاهره جماعة الناس»[٣]

---

(٢) أصول الكافي ج ٢ ص ٥١.
(٣) أصول الكافي ج ٢ ص ٢٠.

المرحلة الثانية: مرحلة الايمان، وهي أن تؤمن بالحقائق الدينية الكبرى إيمان (وعي) لا إيمانِ فهم. . . وبالإيمان تخرج عن مستوى، الفهم، والتقدير العقلي لقضية الوجود الإلهي، واليوم الآخر، وارتباط الخلق ببارئه إلى مستوى الوعي ودخول القضية إلى القلب، والمعايشة الروحية، واستشعار الهداية والطمأنينة.

﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾(*)

وفي خبر سماعة عن الصادق (ع):

«. . والإيمان الهدى وما ثبت في القلوب من صفة الإسلام، وما ظهر من العمل به، والإيمان ارفع من الإسلام درجة. .»(٤)

وعن الفضيل بن يسار عن الصادق (ع):

«أن الأيمان ما وقر في القلوب»(٥)

يبقى هنا: أن العمل بالشريعة إنما هو نتيجة للإيمان لأنه من عناصره، ومظهر له لا مخبر. . وبهذا نجمع بين ما دل على دخالة العمل في الإيمان، وما دل على خروجه عنه من النصوص. .

ويبقى أيضاً: أن من الممكن في مرحلة الايمان أن يقع شيء من الوسوسة، ولا يضر ذلك في إيمان المؤمن، فإن الإيمان اطمئنان القلب، وعقدة الهداية التي تسري في النفس، وهذا لا يلغيه وقوع خاطرة شيطانية في الذهن. . ففي حديث صحيح عن أبي عبد الله (ع) قال: جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله هلكت. فقال له: **أتاك الخبيث، فقال لك**:

(*) سورة الحجرات، آية ١٤.
(٤) أصول الكافي ج٢ ص ٢٥.
(٥) أصول الكافي ج ٢ ص ٢٦.

من خلقك؟ فقلت: الله، فقال لك: الله من خلقه؟ قال أي، والذي بعثك بالحق نبياً لكان كذا، فقال رسول الله (ص): **ذاك، والله محض الإيمان**[٦] إلى غير ذلك من النصوص الواردة في عدم منافاة الوسوسة للإيمان.

المرحلة الثالثة: مرحلة اليقين، وهي أعلى المراحل وأسماها، وأعزها، وهي مرحلة الاحساس، وانكشاف الغطاء.

«لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»

وتحول الغيب إلى شهادة..

وليس هنا وسوسة، أو فراغ، وإنما هو تواجد مستمر للقضية في الاحساس، والشعور..

وأنت تستطيع أن تجد الكثير من المؤمنين الذين عاشوا قضية الايمان، ودخل الإيمان قلوبهم، وشاع الهدى في نفوسهم، ولكن اليقين أمر عزيز لا يأتي إلا للفرد النادر من الناس.. فعن الرضا (ع):

«الايمان فوق الإسلام بدرجة والتقوى فوق الايمان بدرجة واليقين فوق التقوى بدرجة ولم يقسم بين الناس شيء أقل من اليقين»[٧]

ومن نماذج أهل اليقين ما جاء في نص معتبر عن أبي عبد الله (ع):

ومن نماذج أهل اليقين ما جاء في نص معتبر عن أبي عبد الله (ع):

(أن رسول الله (ص) صلى بالناس الصبح فنظر إلى شاب، وهو يخفق، ويهوي برأسه (تأخذه سنة من النعاس فيميل رأسه) مصفراً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه فقال رسول الله: **كيف أصبحت يا فلان؟** قال: أصبحت يا رسول الله موقناً. فعجب رسول الله من قوله، وقال: **«إن لكل يقين**

---

(٦) أصول الكافي ج ٢ ص ٤٢٠.
(٧) أصول الكافي ج ٢ ص ٥١.

حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: أن يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرض ربي، وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة، ويتعارفون، وعلى الأرائك متكئون وكأني أنظر إلى أهل النار، وهم فيها معذبون، مصطرخون وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي. فقال رسول الله (ص) لأصحابه: هذا عبدٌ نور الله قلبه بالإيمان ثم قال: **الزم ما أنت عليه**. فقال: الشاب ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله (ص) فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي (ص) فاستشهد بعد تسعة نفر فكان هو العاشر)[٨]

ذكر الله:

أن مرحلة الإيمان التي تمثل الحد الأدنى في الشخصية الإسلامية، ويعيش معها الكثير من المؤمنين. . تتضمن عنصرين: -

الأول: عدم الارتياب، والشك في وجود الله تعالى أو أية حقيقة دينية أخرى. لقد بحث المتكلمون في أن الظن وهو الاحتمال الراجح الذي يعاكسه احتمال آخر مرجوح هل يكفي في تحقق الإسلام، وانتماء الإنسان إلى الإسلام؟ وهذا على مستوى البحث الكلامي بحث وجيه. . وأما على المستوى التربوي. . فإن من الواضح أن أي احتمال معاكس وأي ارتياب في أي حقيقة دينية فهو يتكافأ مع الحد الأدنى المطلوب في الشخصية الإسلامية.

يقول تعالى:

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم، وأنفسهم أولئك هم الصادقون﴾[٩].

---

(٨) أصول الكافي ج ٢ ص ٥٣.

(٩) سورة الحجرات، الآية ١٥.

الثاني: ذكر الله.. وذكر الشيء، حفظه في النفس والشعور به، وذكر الله تعالى: هو أن يكون وجدانك، وشعورك ممتلىء به منشداً إليه.. أي أن تعيش خشية الله تعالى في مشاعرك، وتفكيرك، ومن نتائج هذا الحضور الشعوري لله تعالى في ذهن المؤمن ذكره على اللسان، وتسبيحه وحمده.

فذهن المؤمن وشعوره (ميال) بطبعه إلى ذكر الله تعالى، والارتباط المستمر به.. و(تداعيات) ذهنه تكون عادة إليه تعالى لأن، الله تعالى هو (وجهة) حياته ومحور تفكيره، وشعوره وتوجهه النفسي فهو إذا تجددت عليه نعمة ذكر الله، وإذا نزلت به نازلة ذكر الله، واسترجع وإذا أقدم على فعل ذكر الله، وإذا أذنب ذكر الله واستغفر إليه، وإذا نظر إلى إبداع الخلق، وشيء من ملكوت السماوات والأرض ذكر الله، ، وهكذا فإن أغلب إحساسه وأفكاره (تدعوه) إلى ذكر الله تعالى، وهذا هو العيش الشعوري، والحياة الذهنية المؤمنة مع خالق الكون العظيم المتعال.. أما أن يكون الإيمان بالله تعالى مجرد كلمة تتردد على الأفواه، وفهم لا يخرج عن دائرة الجزم والتصديق الساذج دون أن يشيع في العقل والشعور والتفكير. فليس هذا من الإيمان في شيء.. وغاية الأمر أنه خطوة نحو الايمان.. وأرضية من الممكن أن يبنى عليه الإيمان، والذكر..

كان متمم بن نويرة يبكي أخاه مالكاً.. يذكره ويبكيه عندما يرى ناراً لأنه بذاك يذكر نار أخيه الموقدة إلى الصباح تنتظر الضيوف، ويبكيه، ويذكره كلما رأى قبراً، [لقبر ثوى بين اللوى فالدكائك]، ولامه صاحبه على ذلك على هذه التوسعة في معايشة ذكرى مالك على هذا البكاء عند كل قبر. وكان جواب متمم: أبياتاً من الشعر يقف إلى الآن عندها الأديب، وعالم النفس والمؤمن الذي يبحث عن تجارب شعورية تشبه تجربة المؤمنين مع الله.

لقد لامني عند القبور على البكا	رفيقي لتذراف الدموع السوافكِ
فقال أتبكي كل قبر رأيته	لقبر ثوى بين اللوى والدكائك
فقلت له: أن الشجا يبعث الشجا	فدعني فهذا كله قبر مالك

أن شدة مقتل مالك في نفس متمم وسعت من نقاط التفاعل الشعوري بين الأخ وأخيه، وأظهرت الترابطات الخفية بين ما يشاهده ويحسه من قبر، ونار، وغير ذلك، وبين الأخ القتيل.

والمؤمن كذلك مع الله وإن شدة تعلقه بالله تعالى وانشداده إليه يجعله دائم الذكر له سريع الإدراك.

للترابطات الموجودة بين الأمور المحسوسة من حوادث وأشياء، وظواهر، وبين الخالق العظيم.

إن تجربة ذكر الله تعالى، ومعايشته الشعورية والذهنية تقوم على أساس توسعة المثيرات الباعثة للذكر شعورياً.. فبينما لا يتذكر الإنسان العادي الله الا عند حوادث استثنائية فإن الإنسان المؤمن، يذكره عند عدد كبير جداً من الحوادث، والظواهر، والأشياء، والأفعال.. من خلال إدراكه للترابطات، الخفية، والظاهرة بين هذه الأمور وبين الله ـ ويفترق هنا الإنسان المؤمن مهما بلغ من الانشداد إلى الله تعالى عن الإنسان المتصوف المغالي في العمليات التصوفية. إذ يحتفظ الإنسان المؤمن بقدرته العقلية على التمييز بين (ما يذكره) بالله تعالى، وبينه سبحانه دون أن يوحد بين المذكِّر والمذكَّر به. أما الإنسان الصوفي الذي يغالي في التصوف فهو يفقد قدرته العقلية على التمييز ويؤكد ـ في ـ شحطاته ـ وحدة المخلوقات مع الخالق.

هذا وبما أن حالة التواجد الشعوري المستمر لفكرة الإيمان بالله تعالى في النفس أمر غير ممكن ـ عملياً ـ فلذا كان ما يربي عليه القرآن الكريم هو، أن نذكر الله ذكراً كثيراً مع إتاحة الفرصة للذكر المستمر.. الدائم لله:

وقد تنوع الحث القرآني على ذكر الله تعالى:

١ ـ ذكر الله كثيراً:

﴿واذكر ربك كثيراً﴾(*)

(*) سورة آل عمران، اية ٤١.

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾[10]

٢ ـ ذكره تعالى عند الذنب

﴿والـذين ذا فعلوا فـاحشـة، أو ظلمـوا أنفسهم ذكـروا الله، فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله﴾[11].

٣ ـ ذكر الله في مواطن العبادة وأوقاتها.

﴿فإذا افضتم من عرفات ، فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾[12].

﴿وسبح بالعشي والأبكار﴾[**]

﴿وسبحوه بكرة وأصيلا﴾[***]

٤ ـ ذكره تعالى في الشدة والبلاء.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا واذكروا الله كثيراً﴾[13]

﴿والذين إذا أصابتهم مصيبـة، قالـوا إنا لله وإنـا إليه راجعون﴾[14]

٥ ـ ذكره تعالى عند التذكير.

﴿والـذين إذا ذكـروا بـآيـات ربهم لم يخـروا عليهـا صمـاً وعمياناً﴾[15].

---

(١٠) الأحزاب: ٤١.
(١١) آل عمران/ ١٣٥.
(١٢) البقرة / ١٩٨.
(١٣) الأنفال/ ٤٥.
(١٤) البقرة/٤٦.
(١٥) الفرقان/٧٣.
(**) سورة ال عمران: آية ٤١.
(***) سورة الأحزاب، آية ٤٢.

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجداً﴾[16].

٦ ـ ذكر الله تعالى بصورة مطلقة.

﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفيةً﴾[17].

إلى آخر ما ورد من الحث على ذكر الله، واستحضاره في مختلف مجالات حياة الإنسان. وهذه الآيات الكريمة إما أن تحث على الذكر الذهني لله تعالى بشكل مباشر أو أنها تحث على الذكر اللفظي، ليكون ذلك سبباً للذكر الذهني وعلى أي حال فهي لا تهدف إلى اللفظ وتكرار الأصوات، وإنما إلى الذكر الحقيقي، والمعايشة الذهنية..

من عطاء الذكر:

قلنا إن ذكر الله هو المعايشة الشعورية له، والاحساس بوجوده المقدس باستمرار. وللذكر هذا آثار عظيمة في شخصية الإنسان المؤمن. نذكرها فيما يلي:

١ ـ إن ذكر الله تعالى شعور بمراقبته، ورصده (سبحانه جلّ وعلا) لأفعال العبد وتصرفاته وفي هذا قوة عظيمة (دافعة) على الالتزام والتقيد بالحدود، والقيود الإسلامية عن أبي عبد الله (ع):

«من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً. ثم قال: لا أعني سبحان الله، والحمدلله، ولا آله الا الله والله أكبر، وإن كان منه، ولكن ذكر الله عندما حل وحرم، فإن كان طاعة عمل بها، وإن كان معصية تركها»[18].

---

(١٦) السجدة/ ١٥.

(١٧) الأعراف/ ٢٠٥.

(١٨) صول الكافي ج ٢ ص ٨.

وفي هذا الخبر دلالة واضحة على أن المفهوم السليم للذكر هو ذكر الله في النفس خيفة، وتضرعاً وإن كان للذكر اللفظي دور، وأهمية تربوية كما مر.

٢ ـ أن تجاوز الأشياء الحاضرة المتناهية، والعيش الشعوري مع الله تعالى يخلق حالة التعالي، والتسامي في شخصية الإنسان المسلم، وهذه الحالة تعد من أكبر مميزاته الشخصية، وسماته الذاتية. . فإن من يعيش حلاوة الذكر ويتنعم باستشعار الله تعالى يقترن ذلك لديه بالشعور بالتعالي، والتسامي على صغائر الأمور وجزئيات الحياة التي تشغل هم الناس وتقع مورداً لتنافسهم، وتصارعهم.

٣ ـ وهذا (التجاوز) الشعوري، والتعالي، والتسامي في المشاعر، والمدركات هو الذي يخلق في شخصية الإنسان المسلم حالة أخرى هي (الاطمئنان)، والاستقرار النفسي و(السكينة)، و(الوقار) ـ في مفهومه الأخلاقي الأصيل ـ قال الله تعالى:

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(١٩).

والسبب في الاطمئنان بذكر الله تعالى. . هو أن الاستقرار النفسي، إنما يتحقق للشخصية فيما إذا ارتبطت شعورياً بمنطلقات غير متغيرة. أما إذا أنشدت إلى أشياء متحركة، مضطربة، فإن هذا الاضطراب سينعكس على النفس بصورة قلق على شيء يخشى زواله، أو شيء يخشى وقوعه، وبصورة خوف، وهم، وحزن. . وجزع. . والمؤمن إذ يعزف عن الدنيا، ويكفر قيمها الفانية، ويعيش شعورياً مع الله. . ويرتبط نفسياً به، فإن الاستقرار عندئذ هو النتيجة الطبيعية المترتبة على ثبات الله تعالى الذي تتعلق به النفس، والشعور.

﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾(٢٠).

---

(١٩) الرعد /٢٨.

(٢٠) الفجر /٢٩.

﴿إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً، الا المصلين﴾[٢١]

٤ ـ ويتعرض الإنسان في مسيرته إلى ألوان من المكاره والمضايقات، والوحدة والغربة، إذ يتفرق الناس عنه ويسخرون منه، ويكذبونه، ويعيشون في عالم غير ما يعيش فيه . .

وهنا قد ينتهي إلى (ضيق) نفسي يمنع عقله من الحركة ونفسه من الانطلاق، وارادته من الثبات، والصمود وقد ينتهي به هذا الضيق إلى (اليأس)، و(التشاؤم)، والشعور بالضعف، والانكسار، والذي يعالج هذه الحالة ويبعث في النفس الانفتاح، والتفاؤل، ويجدد لها حيويتها، ونشاطها واندفاعها في حقول العمل لله . . والجهاد في سبيله هو ذكر الله . . واستشعاره، والاحساس به كما يوجه إلى ذلك ويدل عليه الاعداد القرآني للرسول (ص) في لحظات المعاناة من التكذيب، والسخرية فاقرأ هذه الآيات المباركة، ولاحظ كيف تعالج حالة (الضيق) النفسي بذكر الله تعالى . . واستشعاره والاحساس به.

﴿فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن أناء الليل فسبح، واطراف النهار لعلك ترضى﴾[٢٢].

﴿فاصبر إن وعد الله حق، واستغفر لذنبك، وسبح بحمد ربك بالعشي والأبكار﴾[٢٣].

﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه، وادبار السجود﴾[٢٤].

---

(٢١) المعارج / ٢٠ ـ ٢٢.
(٢٢) سورة طه، آية ١٣.
(٢٣) غافر/ ٥٥.
(٢٤) ق/٣٩ ـ ٤٠.

المكانة الشعورية للحياة في نفس المؤمن

إن أشياء الحياة، وظواهرهـا، تدرك في شعـور المؤمن في سياق مـركب شامل يضم أطراف الوجود كله من حيث المبدأ والغاية، والسنن الجارية فيه وفي هذا المركب الشامل الذي يضع المؤمن فيـه أشياء الحيـاة، وظواهـرها سـوف يعطي كل شيء منها، قيمته الحقيقية فلا (يحقر) ولا (يصم).

وقد نشأ في أطوار الحضارة المادية، وحتى في الحضارة المادية المعاصرة اتجاهان مختلفان، يمثلان الانعكاس الطبيعي للنظرة المادية إلى العالم.

الأول: الاتجاه القائم على تصنيم ظواهر الحيـاة وبالخصـوص ما يتعلق منها بالهوى، والشهوة ومن هنا أصبحت عبادة الدنيا البديل الـطبيعي عن عبادة الله، والتواجد الشعوري للدنيا في نفس الإنسان بديـلاً عن التواجـد الشعوري لله، وحقائق الوجود الكبرى.

الثاني: الاتجاه القـائم على تحقير الحيـاة، وتفريغهـا من أي معنى وهنا يشعر الإنسان بالغربة في هذا الوجود والبعث، والغثيان، والقلق، الخ. نتيجـة لعدم الإيمان بارتباط هـذا الكون بمبـدأ وغايـة وجوديـة، والانسان المؤمن في ارتباطه بالله عز وجـل وتعامله مـع العالم من خـلال التصور الإسـلامي له يضـع الأشياء، والحياة في مواضعها الطبيعية ويمنحها القيم التي تستحقها.

فـلأنه يدرك أن كل هـذه الظواهـر الكونيـة أعـراض وجـوديـة ـ لـو صـح التعبير ـ وأن الحقيقة الوجودية الكاملة التامة هي الله، والله وحده وإن كل ما في الكون يأتي ويـروح وكل شيء فـان، وأن أشياء هـذه الحياة من أمـوال وبنين، ونساء ليس لها قيمة إلا من خلال كونها (نعماً) الهية، ووسيلة خير فهو ـ لهذا ـ لا يمكن أن يصنم هذه الأشياء، والظواهر ولا يمكن أن تحتل في شعوره وتفكيره ما يحتله الله تعالى.

ولأنه يدرك أن هذا الكون هو فعل الله تعالى وأن الحياة نعمة من نعمه، هي وما فيها من أشياء، وإنها يمكن أن تكون طريقاً، ووسيلة تنتهي به إلى خير دائم.. وسعادة أبدية يغطيها رضوان الله تعالى. فهو لا يمكن بحال أن (يحقر) الحياة أو يتعامل معها ـ والعياذ بالله ـ كعبث لا معنى له.

ولأنه يدرك، ويعلم بأن هذه الحياة مرحلة من (مراحل) الحيـاة كلفه الله تعـالى فيهـا، واختبـره واستخلفـه للقيـام بـدور معين ونمط معين من السلوك، والاعتقاد، فهي ليست لديه تحللاً من القيم، وانهماكاً في اللذات، وركضاً وراء الشهوة، والأهواء.

وهكذا فإن لدى المؤمن ثلاثة إحساسات تجاه الحياة:

١ ـ الاحساس بهذه الحياة كـ(نعمة إلهية) وخير الهي يتفضل به الله على هذا الكائن الفقير.

وهو إحساس لا ينتهي إلى (الشكر) فقط، وإنما إلى الانفتاح النفسي على الحيـاة، والتجاوب الشعـوري معها أيضـاً، وبعض النـاس ينـظرون إلى النعم الإلهيـة من مال وبنين ونسـاء.. بنظرة شؤم، وتـطير.. لأنهـا في اعتقـاده هي مصائد الشيطان، وحبائل مكره، وخدعة. وهذا خطأ.. فإن أشياء هذه الحياة نعم الله.. وخيره، وبركاته، وتفضلاته على النـاس.. وحبائـل الشيطان، وخـدعه ليست هذه الأشياء بذاتها، وإنما هي أهواء النفس المرتبطة والمتعلقة بها.

٢ ـ الاحساس بهذه الحياة كمرحلة عابرة في مسيرة الحياة تمهد إلى حياة

دائمة خالدة، والاحساس بقصر مدتها وحركة إحداثها، وعدم استقرارها لأحد.. وهي بهذا تسمى (دنيا) لأنها أدنى من أن تمتلك قلب المؤمن أو تكون محطاً لعبادته، وهواه.

وتربية هذا الإحساس من أهم ما حاوله القرآن الكريم والهداة المعصومون (ع) باعتباره من قمم الاحساسات والمشاعر الإيمانية التي يتميز بها الإنسان المؤمن..

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾[٢٥].

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس، والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأزينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً، أو نهار، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾[٢٦].

﴿وفرحوا بالحياة الدنيا، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾[٢٧].

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً املا﴾[٢٨].

﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو

---

(٢٥) التوبة /٣٨.
(٢٦) يونس/٢٤.
(٢٧) الرعد/٣٦.
(٢٨) الكهف/٤٥ ـ ٤٦.

كانوا يعلمون﴾[٢٩].

وهناك آيات كثيرة تؤكد ها المعنى، وهناك عدد هائل من النصوص الواردة في تصوير عرضية الحياة الدنيا وزوالها.. وكونها منطقة عبور، وممر للآخرة، ومرحلة تمهيدية لها.. والغرض من هذا ليس (تفهيم) المسلمين هذه القضية الواضحة لديهم، وإنما (تحسيسهم) بذلك وتوعيتهم عليه حتى تكون لديهم (بصيرة) من بصائرهم ورؤية فكرية واضحة لديهم تهديهم الطريق، وتدفعهم إلى العمل.

إن وعي الحياة الدنيا على حقيقتها، والإحساس بنهايتها ومرحليتها هو الطريق الطبيعي لأنهاء حالة الركون إلى الدنيا، ومعانيها، والركض وراءها والهم عليها.. وأحياناً يضيع الإنسان المؤمن في هذه الدنيا.. فتراه يبني له أحلاماً واسعة، يستهدف بها الجاه، والمركز.. والمجد والذكر الحسن عند الناس، وينهمك في هذه الحياة.. فيتصارع مع أخوته على معان زائفة فيها.. لماذا؟ لانه يفتقد في هذه اللحظات أحاسيس المؤمنين، ومشاعرهم ولا يملك فعلاً وعياً كونياً عاماً يهديه الطريق ويحدد له القيم الكبيرة لمعاني الإيمان، والقيم الصغيرة لتوافه الحياة الدنيا، ومعانيها المبتذلة.

أن مشكلة الانسان المسلم، وكل إنسان إنه يفهم أكثر بكثير مما يعي، ويعيش في مداركه، ومشاعره، ويعي أكثر مما يطبق، وينسجم نفسياً مع ما يعيه، ويشعر به.

إن هذا الوعي بعرضية الحياة الدنيا، ومرحليتها لا يعطي قيمته في مقام العمل الاعتيادي فحسب.. وإنما أيضاً في مجال المواجهة، والتصدي لاضطهاد الجاهلية وسخرية الناس واستهزائهم، ومن هنا أكد عليه القرآن الكريم في عملية إعداد الرسول (ص) في موارد متعددة.

---

(٢٩) العنكبوت/٤٦.

﴿واصبر عل ما يقولون، واهجرهم هجراً جميلا. وذرني والمكذبين أولي النعمة، ومهلهم قليلا. أن لدنيا انكالا، وجحيماً، وطعاماً ذا غصة، وعذابا أليما﴾(٣٠)

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم، وبئس المهاد﴾(٣١)

﴿فاصبر صبراً جميلاً.. أنهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً. يوم تكون السماء كالمهل. وتكون الجبال كالعهن. ولا يسأل حميم حميماً﴾(٣٢)

أن تنمية الوعي الكوني، وتوسيع أفق المؤمن، وإطار تفكيره من أهم ما يعتني به القرآن الكريم.. وذلك أن شخصية الإنسان تنمو بمقدار توسع آفاقه، ـ ونمو وعيه الكوني الكلي الشامل، فأنت إذ تتحسس الحياة بشمولها وتعي هذه الحياة (علىٰ أنها) مرحلة عابرة. وتعيش هذا الوعي فسوف ترى كم يكون الطغيان تافهاً. وكم يكون الطغاة.. صغاراً في الحساب التأريخي، وحساب الحياة في شمولها وسعتها.. وحساب الكون، وخالق الكون.. وسوف تبصر بعينيك القيمة الصغيرة لكل جاهلية، وللجاهلية كلها في حساب الحياة.

٣ ـ الإحساس بالحياة الدنيا على أنها دار فتنة واختبار، على أنها مرحلة لاختبار الفاعلية البشرية، وأخلاقية هذا الإنسان في مقام عبوديته، وتعامله مع الله، ودوره في هذه الحياة.

﴿الذي خلق الموت، والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً، وهو العزيز الغفور﴾(٣٣)

﴿وأن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب، ولا عمل﴾(*)

---

(٣٠) المزمل ١٠ ـ ١٣.
(٣١) آل عمران ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٣٢) المعارج ٥ ـ ١٠. (٣٣) سورة الملك ٢.
(*) نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

ذكر الموت والاحساس بالآخرة

ولا تنفصل عملية الاحساس بمرحلية الحياة الدنيا وعرضيتها عن الأحاسيس بالموت، واليوم الآخر. ويمكن أن نعد كل هذه الأحاسيس أحساساً واحداً. بنظرة إلى الحياة نظرة شاملة وبعيشها بشمولها هذا الذي يستوعب الحياة الدنيا، ومرحلة الانتقال، والمرحلة الأخيرة الأبدية.

وقد حفل (كتاب) نهج البلاغة بالوعظ، والتذكير بحقيقة الدنيا والموت والآخرة، لأن عصر الإمام علي (ع) كان يعيش طغيان الروح الدنيوية والركون إلى الحياة الدنيا، وكانت المهمات التي أناطها (ع) بالأمة آنذاك مع ظروفها النفسية، وحديته في تطبيق الإسلام بصورته الأصيلة تستدعي الكثير من الوعظ والتذكير. هذا كله مضافاً إلى أنه (ع) كان بصدد بناء الشخصية الإسلامية الذاكرة والمذكرة في الخضم المتلاطم من المسلمين الذين لم يحسن تربيتهم أحد:

كان (ع) يقول:

«وأوصيكم بذكر الموت، وأقلال الغفلة عنه، وكيف غفلتكم عما ليس يغفلكم؟ وطمعكم فيمن ليس يمهلكم، فكفى واعضاً بموتى عاينتموهم حملوا إلى قبورهم غير راكبين وأنزلوا فيها غير نازلين، فسابقوا ـ رحمكم الله ـ إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها، والتي رغبتم فيها ودعيتم إليها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته والمجانبة لمعصيته

فإن غداً من اليوم قريب ما أسرع الساعات في اليوم، وما أسرع الأيام في الشهر وما أسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر»[٣٤]

«واحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة، وليست بدار نجعة قد تزينت بغرورها وغرت بزينتها دار هانت على ربها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها، لم يصفها الله تعالى لأوليائه، ولم يضن بها على أعدائه، ـ خيرها زهيد، وشرها عتيد. . واسمعوا دعوة الموت وآذانكم قبل أن يدعى بكم أن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم، وإن ضحكوا، ويشتد حزنهم، وأن فرحوا ويكثر مقتهم أنفسهم وأن اغتبطوا بما رزقوا قد غاب عن قلوبهم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة، والعاجلة اذهب بكم من الآجلة»[٣٥].

وفي كلام طويل عن وصف المتقين، يقول (ع):

«أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا. . فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف اصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم، وشهيقها في أصول آذانهم»[٣٦].

الوعي الكوني

إلى الآن تحدثنا عن الوعي الكوني في شخصية الإنسان المسلم، ويتمثل في الأساس بوجود الله تعالى، وارتباط الأحداث، والأشياء به وتذكره، ومعايشته الشعورية، وفي الادراك ـ بوعي ـ لمرحلية هذه الحياة، والاحساس بالموت.

---

(٣٤) نهج البلاغة نص رقم /١١٨ .
(٣٥) نفس المصدر نص رقم/ ١١٥ .
(٣٦) نفس المصدر نص رقم /١٩٣ .

﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾(*) وبالحياة الأخرى.

ونستدرك هنا ونضيف الاحساس بحكمة الحياة والتقدير الشامل في الوجود، والاحساس بهذين الأمرين (التقدير، الحكمة) دور حياتي مهم قد تأتي الإشارة إليه فيما بعد عند الحديث عن الرضا بالقضاء، والقدر.

وقد قلنا سابقاً، إن كل إنسان مسلم يؤمن بهذه الأمور، ويفهمها، ومهمة الاعداد الروحي الذي يهدف إلى بناء الشخصية الإسلامية التي لا يكفي فيها أن تفهم وتؤمن بهذه الأشياء وإنما هو (تحسيس) المسلم بهذه الأشياء وتوعيته الوجودية.. التي يوسع من خلالها أفقه، ويرتبط بالله تعالى، وينمي شخصيته بالاتجاه الصحيح، وامتلاك النفس أمام صغائر الأمور، وتفاهات الحياة الدنيا، وخلق حالة الطمأنينة النفسية، والاستقرار الانفعالي، وغير ذلك من الأمور، والمعاني النفسية: التي لا يمكن بناؤها، وتربيتها إلا من خلال التوعية الوجودية، والتحسيس بالحقائق الوجودية الكبرى التي تدرك الشخصية الإسلامية من خلال إدراكها والتحسس بهذه الأشياء في إطار شامل، ونظرة كلية.. وتعيها في سياقها الوجودي، وارتباطاته الكونية الثابتة.

و(التوعية) الوجودية في المنطق التربوي الإسلامي هي منطلق التغيير ومبتدأه الاساسي، الذي يقوم عليه التغير الإسلامي، والتربية الإسلامية. والتربية التي تنطلق من التوعية على (وجود) الله. وتقديره، وحكمته والتحسيس بالحياة نعمها، وفتنها، والمسؤولية فيها، وبالآخرة نعيمها، وعذابها، وغير ذلك من عناصر الوعي الكوني الإسلامي، هي التربية السليمة الأمينة التي لا يخشى من نتائجها وآثارها لا من الناحية الدينية، ولا من الناحية النفسية، ولا من الناحية الجهادية.

(*) سورة الزمر، اية ٣٠.

ونشير أخيرا إلى أن التربيات المعاصرة الممثلة للحضارة الغربية، وقيمها يتوزعهما اتجاهان كل منهما يتناقض مع التربية الإسلامية ذلك أن أحدهما يقوم على أساس إهمال التوعية الوجودية، أو التحسيس الكوني الشامل مدعوماً باتجاه فلسفي، وضعي، يميل إلى التعرف على المعاني الكليةالشاملة، ويقصر دور الإنسان المعرفي والإدراك البشري في حدود الجزئي والواقع أن هذا الاتجاه الفلسفي (اتجاه الوضعية والوضعية المنطقية) اتجاه مرفوض من الزاوية المنطقية وفهماً اجتماعياً ـ باعتباره اتجاهاً فكرياً ـ يقصد من ورائه تثبيت الواقع الغربي الراهن، وتجميد قوة الرفض، والثورة التي لا يمكن أن تقوم إلا على أساس فكرة شاملة تخرج عن الإطار الضيق للجزئيات، والوقائع الحياتية الحاضرة بحيث تحدد الممكن والضروري. . والسليم من وجهة نظر السياق العام للتاريخ، والطبيعة، والمنطق الاخلاقي، وهي معاني مستحيلة من وجهة النظر الوضعية.

والاتجاه الآخر يقوم على أساس التوعية الإلحادية. . في:

١ ـ إنكار وجود الإله الحكيم.

٢ ـ قصر حياة الكائن الانساني في حدود هذه التجربة الضيقة من الحياة. . وهي توعية لا تفرق ـ من حيث الآثار السلبية ـ عن التوعية الأولى القائمة على أساس تحديد الأفق البشري داخل الاطار الحسي، والجزئي، أن لم تزد عليها في السلبيات.

ونحن هنا لا نريد أن ندرس الاتجاهات التربوية المعاصرة، بل ولا حتى الاتجاه التربوي الاسلامي من الزاوية العلمية. . لأن أسلوب هذا البحث وهدفه ينحصران داخل الاطار العملي ولا يتصلان بحال بالأبحاث العلمية والجوانب النظرية. . وإنما يهم هنا أن نشير إلى طابع (التجاوز) تجاوز الأطر الحسية، والجزئية الذي يتمثل بالتوعية الإسلامية الوجودية حيث يستعلي الإنسان المسلم على هذه الأطر، ويتعامل مع الكائن الوجودي المحض الذي يميزه عن عرض

المادة، وهيمنة الحس البشري. وهو يحقق بذلك مرحلة جديدة للانسان تترك وراءه كل المراحل ضيقة الأفق، محدودة الشعور. . وفي طابع (التجاوز) على الأطر الحسية، و(الشمول)، وإدراك الأشياء في سياق كلي، ونظرة شاملة و(المعنى) الذي يضيفه الإسلام على الحياة. والترابطات التي تحكم الأجياء، والأشياء. تلخص سمات الوعي الإسلامي للكون، والحياة وهي سمات ذات أثر خطير على الحياة النفسية للانسان المسلم. وقد يمكن تلخيصه في الانفتاح على الحياة، وفي عدم تصنيمها وعبادة ما فيها من أشياء، وفي الاستقرار النفسي، وروح الالتزام الأخلاقي التي يبعثها التعامل الشعوري مع الله ذي الأسماء الحسنى وكل سمات الخير، والجمال.

الوعي التاريخي

وإلى جانب التحسيس الوجودي، والتوعية الكونية، يقوم القرآن الكريم، والسنة المطهرة بعملية توعية تاريخية تحسس الانسان المسلم بمجموعة من القضايا التاريخية التي تتصل بالنشاط الانساني التاريخي، والصراع بين الحق والباطل، والهدى، والضلال في التاريخ البشري.

ونستعرض هذه القضايا بشيء من الشرح، والتفصيل فيما يلي من نقاط:

أ ـ الشعور بحركة الأحداث:

قد يمر الإنسان بمرحلة تاريخية تنغلق فيها أبواب العمل وتتجمد فيها حركة الدعوة، يغلب فيها الباطل في جولة خاطفة مع الحق، ويجد الجاهلية في حالة من القوة والسيادة والتمكن في الأرض، ويجد أهل الجاهلية يتقلبون في الأرض ويعيثون فيها الفساد بلا رادع ولا معارض، والمؤمنون إلى جانب هذا مستضعفون محاربون من كل حدب وصوب ومضيق عليهم في كل جوانب

حياتهم الإيمانية.

قد يمر الإنسان المؤمن بهذه المرحلة، ويجمد عقلياً بهذه الفترة القصيرة من عمر الزمن، وعمر الحياة.. ويفكر بهذا الوضع على أنه أمر واقع، لا مفر منه، ولا دافع له ويخلده ويصنمه. وهو في هذه اللحظة يجمِّد التاريخ ويثبت ظواهره الفانية الزائلة.

والقرآن الكريم يعالج هذه الحالة فيما يعالجها عن طريق التحسيس بحركة التاريخ، وحركة الأحداث، والظواهر التاريخية.. وعن طريق توسيع أفق الإنسان المسلم وتكوين العقلية التاريخية لديه، وتعليمه على أن يفكر في هذه اللحظات، بما هو جزء من مسلسل الحدث التاريخي المتغير باستمرار، والمتحرك على الدوام. ومن أجل هذا الهدف التربوي الكبير نفسر مجيء الكثير من القصص التاريخية في القرآن الكريم.

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم، وبئس المهاد﴾(٣٧).

﴿وإن يكذبوك، فقد كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير، فكأين من قرية أهلكناها، وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها، وبئر معطلة، وقصر مشيد، أفلم يسيروا في الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في

---

(٣٧) آل عمران ١٩٦ ـ ١٩٧.

الصدور﴾[٣٨].

﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير﴾[٣٩].

﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين، فاجعل لي صرحاً لعلي اطلع إلى اله موسى، وإني لأظنه من الكاذبين، واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فأخذناه، وجنوده، فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾[٤٠].

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوزِ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة. إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين.. قال: إنما أوتيته على علم عنديٍ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً، وأكثر جمعاً؟ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون﴾[٤١].

هذا وتحفل النصوص الواردة عن أهل البيت (ع) في تركيز تربوي، يعمق للإحساس بحركة الأحداث وهي والآيات القرآنية تهدف إلى ذلك بالنسبة إلى جهتين: جهة أصحاب السلطان، والغنى، وأهل النعمة، والثراء.

والجهة الأخرى، هي الجهة المؤمنة المجاهدة التي تتعرض لألوان الاضطهاد، والتكذيب.

تقول النصوص لأصحاب السلطان، والغنى، وأهل النعمة واليسار إن لا تطغوا.. واعتبروا بمن كان قبلكم قبل أن يعتبر بكم من يأتي بعدكم، واعلموا أن الدنيا في حركة مستمرة تطحن كل المستغلين المتكبرين في الأرض

---

(٣٨) الحج / ٤٢ ـ ٤٦.
(٣٩) الحج / ٤٨.
(٤٠) القصص ٣٨ ـ ٤٠.
(٤١) القصص ٧٦ ـ ٧٨.

والراكضين وراء المراكز والمكانات.. والظالمين للناس.

وتقول للمؤمنين لا تنظروا إلى أوضاع الجاهلية كأمر واقع لا مرد له ولا دافع.. وسعوا من أفقكم التاريخي.. وانظروا الأشياء، والأوضاع في حركة مستمرة، وإلى حياة الطغاة كمتاع قليل.. لا تيأسوا ولا تقنطوا فإن الفراعنة إلى انتهاء وإن أوضاع الكفر إلى زوال..

إن ضيق الأفق التاريخي، وتصنيم المرحلة العابرة، والنظر إلى أوضاع الانحراف، كأمر واقع مستقر ينتهي إلى نتائج سلبية عديدة.

ينتهي أولاً: إلى حالة الضيق، وفقدان الأمل.. واليأس معاً؛ يضعف، أو يعدم الاندفاع الرسالي، والحركة، والفعالية المؤمنة.

وينتهي ثانياً: إلى التنازلات العملية من أجل الانصهار في التيار، والتواجد في المجتمع الذي لا يؤمل في تغييره، والقاعدة في هذا المجال تقول: أن الإنسان الذي يفقد الأمل في عملية التغيير الاجتماعي، يبدأ في تغيير ذاته ومواقفه من أجل الانصهار في المجتمع، والذوبان فيه.

وينتهي ثالثاً: إلى التنازل الفكري، أو مراجعة الذات والتشكيك في الموقف المبدئي الذي يعتنقه الإنسان الذي يصنم المرحلة.

هذا إلى غير ذلك من الآثار والنتائج المترتبة ـ بحكم قوانين نفسية ـ على النظرة المصنِّمة للمرحلة.

ومن هنا نعرف قيمة التدخل الرباني، والتوجيه القرآني الكريم للرسول (ص) عندما تجمدت دعوته في مكة وتجمد عمله ـ بعد وفاة أبي طالب ـ إذ من الممكن في هذه الحالة أن يصاب الصف المؤمن بهذه المعاني السلبية من جراء هيمنة الجاهلية، وحيلولتها دون تقدم العمل الإسلامي آنذاك.

فنزل ـ فيما يقال ـ قوله تعالى:

﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم

من قبل﴾[*]

(والمرية هي الأثر الفكري السلبي لعملية التصنيم).

﴿فاستقم كما أمرت، ومن تاب معك، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[٤٢]

(والركون إلى الذين ظلموا هو الأثر العملي السلبي الذي يحذر منه الله تبارك وتعالى رسوله ومن تاب معه).

ب ـ الشعور بوحدة المسيرة:

إن وراء التعدد الهائل والكثرة الهائلة للأنبياء والمرسلين والأئمة، والصالحين، ووراء هذا التعدد في رسالتهم وشرائعهم، ووراء التعدد في أساليبهم، ومراحلهم.. وراء كل ذلك وحدة.. وحدة. في النموذج الرسالي، وشخصية الدعاة (الرسل، الأنبياء، الأئمة)، ووحدة في الرسالة التي يحملونها رغم الاختلاف، الذي يبدو في بعض التشريعات ووحدة في الدعوة، والعمل، وترابط في المراحل والمهمات.

أما كيف يكون هذا الترابط؟ وكيف تكون الوحدة فهذا موضوع آخر للبحث، والتفكير.. غير أن المهم هنا الإشارة إلى ضرورة التحسيس بهذا المعنى.. وضرورة استشعاره للمؤمن،.. فإن هذا الشعور ينتهي من الناحية النفسية إلى أرقى المعاني التي تكون زاد المؤمنين العاملين، ووقودهم في الجهاد، التوحد مع الأنبياء والصالحين، ومحاولة الانصهار في نهجهم الرباني، وعبادتهم، وعبوديتهم لله تعالى والاعتزاز بالنسب التاريخي العريق.. والثقة بالنفس والتعزي عند البلاء والمواجهة بمواجهات الموكب الكريم والرهط

---

(٤٢) هود/ ١١٣.

(*) سورة هود، آية ١٠٩.

الكـريم والاستفادة من تجـاربهم في العمل والجهـاد (والمؤمن ذو نسب عريق ضارب في شعاب الزمان أنه واحد من ذلك الموكب الكـريم الذي يقـود خطاه ذلـك الرهط الكـريم: نوح، وإبـراهيم، وإسمـاعيـل، وإسحـاق، ويعقـوب، ويوسف، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام).

﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون﴾(*)

هذا الموكب الكريم الممتد في شعاب الزمـان من قديم، يـواجه ـ كمـا يتجلى في ظلال القرآن ـ مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة وتجـارب متشابهـة على تطاول العصور، وكر الدهـور، وتغيير المكـان، وتعدد الأقـوام، يواجـه: الضــلال، (والعمىٰ)، والـطغيـان، والهـوى، والاضـطهـاد، والـبغـي، والتهديد، ـ والتشريد، ولكنه يمضي في طريق ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقاً من نصر الله متعلقاً، بالرجاء في كل لحظة بوعد الله الصادق والأكيد.

﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعـودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الـظالمين ولنسكننكم في الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾(٤٣)

(موقف واحد، وتجربة واحدة، وتهديد واحد ويقين واحد، ووعد واحـد للموكب الكريم.. وعـاقبة واحـدة ينتظرهـا المؤمنون في نهـاية المـطاف وهم يتلقون الاضطهـاد، والتهديد، والوعيد).

ولعل في اعتبار القرآن الكريم الايمان بما أنزل من قبل الرسول الإيمان بالرسل السابقين وصفاً للمتقين.

﴿ذلـك الكتـاب لا ريب فيـه هـدى للمتقين، الـذين يؤمنـون بـالغيب.. والـذين يؤمنـون بمـا أنـزل إليك، ومـا أنـزل من

(*) سورة المؤمنون، آية: ٥٢.

(٤٣) إبراهيم ١٣ ـ ٢٤.

قبلك﴾[٤٤].

وأمره بذلك. .

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط وما أوتي موسى، وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون﴾[٤٥]

لعل في ذلك، وغيره تربية للمؤمنين على هذا الشعور، والاحساس بوحدة المسيرة.

ولعل في قوله تعالى:

﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾[٤٦].

دلالة على تحسيس الله تعالى رسله بوحدة خطهم، ووحدة ملتهم، ودعوتهم، وأشعارهم بأن خطهم مترابط الحلقات، مترابط المراحل. . حتى جاء أتباع الرسل فقطعوا أمرهم، وحولوا الوحدة إلى تعدد في الخطوط والاتجاهات، وصنمت كل طبقة منهم المرحلة التي فيها حتى أصبحوا أحزاباً، وشيعاً كل حزب بما لديهم فرحون. فمن الواضح أننا عندما نقول: بأن خط الرسل واحد ومسيرتهم واحدة، فلا يعني هذا أنه لا يوجد تنوع ضمن هذه الوحدة.

إذ من الواضح أن الله سبحانه قد جعل لكل شرعة ومنهاجاً، ومن هنا تنوعاً

---

(٤٤) البقرة ٢ ـ ٤.
(٤٥) البقرة /١٣٦.
(٤٦) المؤمنون ٥١ ـ ٥٣.

في تفصيلات الرسالة، ومراحل العمل غير أن هذا التنوع يخدم الوحدة. . والهدف الواحد للمسيرة كلها. . والإنسان الذي يتلقى من الله سبحانه هذه الرسالة الواحدة يعمل على توزيعها إلى اتجاهات متناحرة مستغلاً الفوارق المرحلية في خطوط العمل لهذه الرسالة الواحدة.

ج ـ الاحساس بحتمية الانتصار النهائي:

وإلى جانب الشعورين الأولين: الشعور بحركة الأحداث، والشعور بوحدة المسيرة المؤمنة، يوجد لدى المؤمن شعور تاريخي ثالث هو، الشعور بحتمية الانتصار. انتصار قضية الرسالة الربانية وأن كل هذا الصراع، وكل هذه المعاناة والجولات بين الحق، والباطل إنما هي، تمهيدات ضرورية للتغير الاجتماعي الإسلامي العالمي بالصيغة التي يريدها الله تعالى، وأن كل يوم يمر هو أسراع زمني بالنصر، وتقدم نحو اليوم الموعود.

أرأيت وعد الله:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم، وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[٤٧].

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر، أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[٤٨]

فمهما طال النصر على أجيال الرسالة، وضاقت الأرض بهم فإن النتيجة الحاسمة. . في المنطق الرباني الذي لا يكذب ولا يخطأ. . هي للذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وللإيمان والعمل الصالح. . ذلك أن الله سبحانه قد خلق

---

(٤٧) النور / ٥٥.

(٤٨) الأنبياء / ١٠٥.

هذا الإنسان، وكل ما سخر له، وأنزل كل الكتب، وأرسل كل الأنبياء الذين نعرفهم، والذين لا نعرفهم من أجل هذه الغاية.

﴿وما خلقت الجنّ والانس الا ليعبدون﴾(*)

وما تجارب الصراع.. بين الهدى، والضلال إلا من أجل الوصول إلى هذه الغاية.

وقد تسأل هنا: إذن لماذا هذه المدة الطويلة والزمن المديد، ولم تتحقق النبوءة الإسلامية، ولم يتحقق النصر الكامل للإيمان على وجه الأرض؟

إن الله سبحانه.. خلق هذا الكون للفتنة، والاختبار لفتنة الإنسان واختبار فعاليته الذاتية، ووجدانه الأخلاقي ولم يشأ سبحانه أن يفرض عليه قضية الإيمان ـ ولو شاء ذلك لهدى الناس جميعاً لأن في فرض هذه القضية نقضاً للغرض الكوني الأصيل وهو (أن يحقق الإنسان إنسانيته وأخلاقيته باختياره ومن خلال الهدي الإلهي والهدي الإلهي فقط) فيقتصر دور الله سبحانه في عملية التغيير الشامل على الهداية العامة.. والهدي النازل على الأنبياء، وبعض التدخلات الأخرى.. أما الفعل التغييري، فللإنسان ومن الواضح أن التغيير الإسلامي الشامل إذ يوكل إلى الإنسان ويعتبر مسؤوليته له سيكون عملية بطيئة طويلة الأمد تحتاج إلى قرون عديدة، وتأريخ مديد..

وحتمية انتصار الحق، واختتام المسيرة بالنصر الشامل ليست حتمية جبر، والجاء كالحتميات المادية المزعومة، وحتمية الجبر الديني المزعوم، وإنما هي حتمية وقوع.. في علم الله تعالى أن سيختار للبشر الهداية، والإسلام.. وعلم الله لا يخطىء ولا يزل، وعلم الله تعالى لا يقلب الواقع وإنما يعكسه ويكشفه ويحكيه وما دام سبحانه قد علم بأن الإنسان سيقوم بعملية التغيير الشامل باختياره ـ ومن خلال تدخل إلهي لا يصل إلى حد الجبر، والالجاء فسوف تقع عملية التغيير الإسلامي الشامل باختيار هذا الانسان وإرادته من دون جبر، ولا

(*) سورة الذاريات، اية: ٥٦.

إلجاء.

لقد فشلت كل الحتميات المزعومة في الجمع بين (إنسانية) التاريخ، وحتميته الحل المقترح لمشاكل الإنسان.. وبقيت فقط الحتمية الإلهية قائمة من دون جبر ولا الجاء (ولتفصيل البحث في ذلك مجال آخر).

وفي القرآن.. شكلان من الوعد بالنصر.

١ ـ الوعد المشروط، وهو ما كان من قبيل.

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[*]

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[٤٩]

وهو وعد يعبر عن قانون اجتماعي يتدخل بموجبه الله تعالى إلى جانب الفئة المؤمنة في صراعها مع الباطل إذا أحسنت اختيار خطتها وصدقها في عزمها، ونيتها.

٢ ـ الوعد المطلق.. وهو الوعد الإلهي الذي ينص على أن التغيير الإسلامي الواقع باختيار الإنسان واقع لا محالة في مستقبل التاريخ.

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض..﴾[٥٠]

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر، ان الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[٥١].

(*) سورة محمد، آية ٧.
(٤٩) الروم /٤٧.
(٥٠) النور /٥٥.
(٥١) الأنبياء/١٠٥.

وكل من الوعدين يجب معايشتهما، والاحساس بهما من أجل المزيد من الدفع، والأمل، ومزيد من الانفتاح. ، والتفاعل مع الحياة الإسلامية، والعمل في سبيل الله.

د ـ الشعور بالائتمام:

لقد ادخر الله سبحانه لعملية التغيير الشامل القائم على أساس الإسلام، القائد المعصوم الإمام الثاني عشر من أهل البيت (ع) وكان من فضله تعالى أن أبقى الإمام حياً مدخراً إلى اليوم الموعود، حياً يعيش بيننا، ويتعرف على أخبارنا، ويستطلع تجاربنا، فشلنا، ونجاحنا، ونحن نخوض ونواجه عملية التمحيص، والاختبار من أجل أن يستمر الشعور بوجود القدوة في وعي الناس. . ومن أجل أن يستشعر الإنسان المسلم هيمنة الإمام، وقيادته ليزداد دفعاً، وحرصاً وإقداماً، وشعوراً بالاتزان والسكينة: بعد أن كانت الأعمال تعرض عليه في شبه تقارير أسبوعية يتعرف بها (ع) على نمو هذا وسقوط ذاك، وتوقف ثالث عند نقطة محدودة لا يحيد عنها.

وانتظار الإمام (ع) له قيمة عملية كبيرة، سواء في كونها قوة دفع كبرى، أو في كونها تأكيداً لتعامل الإنسان المسلم مع الغيب والإيمان به. . ومن هنا ألحّت النصوص الواردة عنهم (ع) في ذلك وأكدت على ثواب الانتظار وكونه من صفات المؤمنين هناك. . كما أكدت على المعنى الايجابي للانتظار ونذكر منها:

عن الرضا (ع) عن آبائه (ع) قال:

قال رسول الله:

«أفضل أعمال أمتي انتظار فرج الله تعالى».

وعن السجاد (ع) قال:

«تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر من أوصياء رسول الله (ص)، والأئمة من بعده، وإن أهل زمان غيبته القائلون بإمامته المنتظرون لظهوره أفضل

أهل كل زمان لأن الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول، والأفهام والمعرفة، ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله بالسيف أولئك المخلصون حقاً، وشيعتنا صدقاً، والدعاة إلى دين الله سراً، وجهراً».

وقال (ع):

«انتظار الفرج من أعظم الفرج»(*)

«من ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف شهيد، مثل شهداء بدر، وأحد»(٥٢).

وفي سبيل تربية الشعور بوجود الإمام، والاحساس بذلك وتربية الشعور بهيمنته، وقيادته، وخلق روح الانتظار له والتطلع ليومه المبارك توجد مجموعة من الأدعية، والزيارات والشعائر ينبغي للمسلم ممارساتها لذلك وقد ورد الكثير منها عن أهل البيت (ع)(**).

ويتصل بمسألة الشعور بالائتمام والاحساس بوجود الإمام مسألة التواصل الشعوري مع الأنبياء، والأئمة (ع)، ونصبهم شعورياً رموزاً، ونماذج للاقتداء، والاحتذاء، والتأسي بهم في المجالات كافة، وهذا معنى أكد عليه القرآن الكريم في عملية توجيه الرسول (ص) وإعداده. ومن هنا وردت الكثير من الآيات لحثه (ص) على الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وعلى ذكرهم، وتمثلهم الذهني.

من أجل الاقتداء بهم عملياً من قبيل قوله تعالى:

---

(٥٢) حق اليقين ـ السيد عبد الله شبرّج ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(*) الغيبة باب ٧ ج ٧٣.

(**) راجع مفاتيح الجنان للقمي، دعاء العهد، دعاء الافتتاح دعاء الفرج، دعاء الندبة الزيارات الخاصة بالإمام الحجة (عج).

﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب﴾[٥٣]

﴿واذكر عبدنا أيوب، إذ نادى ربه إني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾[٥٤]

﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، وإنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار، واذكر إسماعيل، واليسع، وذا الكفل، وكل من الأخيار. هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾[٥٥]

الوعي الذاتي:

وللإنسان المسلم رؤى فكرية تتصل بالذات كماله ذلك في مجال الوجود والحياة، والتاريخ.. ووعي الذات والتحسس بالمعاني المرتبطة بها.. هو الطريق الطبيعي أو الخطوة الطبيعية الضرورية والتي يجب أن تضاف إلى خطوة الوعي الرسالي.. و.. في سبيل التنمية، والبناء.

وللوعي الذاتي.. اشكال، وعناصر:

١ ـ الاحساس الأخلاقي، والشعور بالمسؤولية. وكما يختلف الإنسان المؤمن عن الإنسان الجاهلي في طريقة الشعور بالحياة، وقيمتها ومعناها، كذلك يختلف عنه في الاحساسُ الأخلاقي، ونحن نعرف: أن للعقل البشري مدركاته العملية التي بها ما ينبغي وما لا ينبغي فعله، إلا أن الانسان الجاهلي ـ بسبب اتجاهه الى الدنيا من الناحية العملية ـ يجمد هذا الشعور الإنسانيَ الرائع فلا يعيش أي مسؤولية أخلاقية في الحياة، أما الإنسان المؤمن، فإن طريقته في التعامل مع الكون، ومع الله تعالى، ومع الذات تنشط عنده كافة

---

(٥٣) سورة ص/١٧.
(٥٤) سورة ص /٤١.
(٥٥) سورة ص/٤١.

المشاعر الأخلاقية، والاحساس الأخلاقي بالالزام والمسؤولية. والمقاييس الثابتة للسلوك التي تفوق معاني اللذة والشهوة.

إن افتقاد الشعور بالمسؤولية، والالتزام، والقيمة الأخلاقية للأفعال من أوضح معالم الشعور الجاهلي، شعور الإنسان الضائع الذي ينغمس في لذته ما أمكنه الانغماس، والتردي والقلق الذي جعله يتذبذب بين العوالم المشتتة للنفس، والسلوك.

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾(*)

بينما يعلن الإنسان المؤمن (فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى، وأهمل عابثاً)(٥٦).

والانسان المؤمن لا يحس إحساساً أخلاقياً بالحياة وينمي مدركاته العملية من خلال تنميته للاحساس بالعبودية لله تعالى فقط، وإنما يشعر بالمسؤولية أمام ظواهر معينة في الحياة، وبأهداف معينة محددة.

فالإنسان المؤمن يشعر بالمسؤولية تجاه ذاته.. ومن أجل تغييرها، وتوجيهها نحو الله تعالى، مسؤولية التوبة والعودة إلى الله والاستغفار من الذنوب، والاقلاع عن السيئات مسؤولية تنمية العلاقات مع الله تعالى، ومسؤولية التنمية الثقافية، وتلافي نقاط الضعف الروحي والنفسي، والعملي. التي لا ينفك عنها انسان. وكذلك يشعر بالمسؤولية تجاه الناس والانحراف الذي يعيشون فيه ويشعر بأنه راع، ومسؤول عن رعيته و(أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة بها تقام الفرائض. أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء فريضة عظيمة بها تقام الفرائض، وتأمن

(*) سورة محمد (ص)، آية ١٢.
(٥٦) نهج البلاغة نص ٤٥.

المذاهب، وتحل المكاسب وترد المظالم وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر[٥٧].

وقد تدرس نصوص الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وتشكل انطباعاً بأن الإسلام يعتبر كل فرد مسلم مسؤولاً عن تصرفات الآخرين الا بعذر. . هو مسؤول عن (دفع) الفساد كما هو مسؤول عن (رفعه) وإن الإنسان الذي يسكت عن المنكرات، والمحارم مشارك فيها. . معاقب عليها.

إن الشعور بالمسؤولية تجاه الانحراف الاجتماعي هو بداية افتراق الانسان المسلم العامل عن غيره من المسلمين ومن المؤكد عندئذ أن الشعور بالمسؤولية ليس (فضلاً) للانسان العامل على غيره من الناس عند الله تعالى وقد يكون الإنسان الذي لا يحس بمسؤولية تجاه الناس نتيجة لعدم إحساسه بالانحراف، أو نتيجة لاتجاهه إلى أعمال أسلامية أخرى، أو نتيجة لايمانه بمعذوريته من الناحية الشرعية قد يكون هذا الإنسان أفضل مكاناً عند الله تعالى. . إن منازل الناس عند الله تعالى لا يحددها الوعي والشعور بالمسؤولية وإنّما تحددها درجة (الانقياد) إلى الله تعالى، والقرب منه، والعبودية له. وأن هذا لا يعني بالطبع الغض من قيمة الشعور بالمسؤولية، والشعور بالمسؤولية والاحساس بالانحراف أمران ضروريان. . ويجب التوصل إليهما بمختلف الوسائل، والأساليب لأنهما بداية انطلاق العمل الجهادي في سبيل الله، وذفع المنكرات التي تسخط الله. . وغاية ما نريد أن القيمة الدينية والأخلاقية ليست للشعور بالمسؤولية، والاحساس بالانحراف. . وإنما للانقياد إلى الله، وتنفيذ المسؤوليات المستشعرة وأنت تستطيع أن تقول أن الإنسان المؤمن الذي يعي انحراف الناس، ويشعر بمسؤوليته عن تغيير معالم الانحراف (أنفع) للاسلام عملياً، وأكثر عطاء وفائدة للمسلمين، ولكنك لا تستطيع أن تقول بأي حال من الأحوال أنه أقرب إلى الله من هذا الإنسان المتعبد الذي لم تتح له الظروف أن يعي

---

(٥٧) وسائل الشيعة كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر م ٦ ص ٣٩٥.

مسؤوليته الشرعية، فقد يكون هذا الانسان لجهله معذوراً أمام الله، بينه وبين الله سر تجهله أو ولاية لا نعرفها. . وقد أخفى الله سبحانه كما في الرواية أولياءه في عباده. .

الاعتزاز بالله

٢ ـ الشعور بالعزة والاستعلاء: قال الله تعالى:

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون. إن كنتم مؤمنين﴾(٥٨)

﴿ولله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين﴾(٥٩)

والمقصود بالاعتزاز الذي يشكل شعوراً لامعاً من المشاعر المؤمنة، هو الاعتزاز بالإيمان، والانتساب إلى الإسلام، والعمل في سبيل الله.

فليس يرضي الله للمؤمن بالانكسار، والشعور بالخيبة حتى في أحرج اللحظات التي يطغى فيها الكفر، ويقتل فيها المؤمنون، وتضيق الأرض الواسعة بهم حتى في هذه اللحظات الحرجة، والأوقات العصيبة لا يشعر المؤمن بالضعف، والانكسار، والوهن، والضعة. . وكيف يشعر بالضعة والوهن، والذل، والانكسار من إلى صفه الجبار العزيز المهيمن، والقادر المتعال؟ فالمؤمن كما في الرواية عزيز في دينه ـ وقد فوض الله أموره اليه، ولكنه لم يفوض إليه أن يذل نفسه.

إن لحظة استشعار الذل، أو الانكسار هي لحظة كافرة ولا يكون المؤمن في حالة هذا الشعور لأنه شعور قائم أما على أساس نسيان الله، والانتساب إلى السماء أو على أساس الاستهانة بالعلاقة مع الله تعالى ـ والعياذ بالله ـ.

وليس الشعور بالاعتزاز، والقوة في نفس المؤمن ناشئاً عن الشعور

---

(٥٨) آل عمران / ١٣٩.

(٥٩) المنافقون/٨.

بالمكانة الاجتماعية، أو القدرات العلمية، أو غير ذلك من معاني الدنيا، وإنما ينشأ هذا الشعور من الاحساس بالصلة بالله تعالى، والاحساس بعزته، وعظمته، وعزة المؤمنين به، والكادحين إليه. فهو في حقيقته اعتزاز بالمعنى الايماني الذي يشعره في نفسه، واحساس بقيمة الصلة بالله.

وكما يريد الله تعالى من المؤمن أن يكون عزيزاً في نفسه عزيزاً في مشاعره، كذلك يريد منه أن يكون عزيزاً في مواقفه عملاقاً شامخاً مستعلياً على الطغاة، واتباع الطواغيت حتى في أحرج اللحظات، عندما يقسو الزمن وتخون دنيا الناس ويتحكم في مصائر الأمة شياطينها وطغاتها.

عن أبي عبد الله (ع):

«إن الله فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع أن الله عز وجل يقول:

فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً ثم قال: إن المؤمن أعز من الجبل، أن الجبل يستقل منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقل من دينه شيء»[٦٠].

فالمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً، ولا يكون ذليلاً يعزه الله بالايمان والاسلام.

﴿ولله العزة، ولرسوله، وللمؤمنين﴾[*]

إن استرحام الكافر، واستعطافه، والتذلل للطغاة بداية التنازل، والانحراف فعلى المؤمن أن يكون صلباً حازماً لا يستجدي العطف، وأن كان يستعمل المرونة، والمداراة ولا يطلب الرحمة من الجبابرة وإن كان يدخل معهم في فنون التعامل الحكيم، والمناقشات المبدئية.

---

(٦٠) وسائل الشيعة كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(*) سورة المنافقون، آية: ٨.

الشعور الجماعي والشعور بالاخاء

٣ ـ والشعور الجماعي هـو أن يعيش المؤمن ذاته كعضـو في جماعـة. . وكفرد في أمة مؤمنة من الناس. . وهذا الشعور إذا لاحظناه بالنسبة إلى الامتداد الزماني سميناه ـ كما سميناه ـ بالشعور بوحدة المسيرة. . . وإذا لاحضناه بالنسبة إلى الامتداد المكاني، والمؤمنين المعاصرين سميناه بالشعور الجماعي. . وفي الشعور الجماعي. . كما يشعر المؤمن بذاته كفرد له خصـوصياتـه الفرديـة أي يشعر بأناه الخاصة، كذلك يشعر بأناه الإسلامية العامة. . أناه كمؤمن، أو بكلمة أخرى يشعر بـأنه، جـزء من جبهة الايمـان وتكتل المؤمنين لله تعـالى. . يشعر بذات عامة تجمع المؤمنين جميعاً. . وبالخصوص المؤمنين الذين يسيرون في طريق العمل، والجهاد في سبيل الله تعـالى وليس في هذا التخصيص مـانع أو حزازة، وقد سجله القرآن الكريم.

﴿إن الذين آمنوا، وهاجروا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا، ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض والـذين آمنـوا، ولم يهـاجـروا، مـالكم من ولايتهـم من شـيء حتـى يهاجروا﴾[٦١]

والشعور بالاخاء قريب من الشعور الجماعي. . والشعـور الجماعي هـو الشعور بالتكامل الايماني كجسد واحد فيه أعضاء وأجزاء والشعور بالإخاء، هو الشعور بوحدة النسب نسب الايمان، والعقيدة. . نسب السماء لا نسب الأرض ومعاني الأرض من العنصرية، والأقليمية وغيرها.

وينتهي هذان الشعوران إلى ما نسميه اليوم بـ(المشاركـة الوجـدانية) أي

---

(٦١) الأنفال /٧٢.

شعور المؤمن بما يشعر به إخوانه من آلام، وأفراح، وعواطف.

يألم إذا تألموا، ويفرح إذا فرحوا.

عن أبي عبد الله (ع):

«إنما المؤمنون أخوة بنو أب وأم وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون»[٦٢]

وعنه (ع):

«المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد أن اشتكى شيء منه، وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة، وإن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها»[٦٣].

٤ ـ التواضع:

أ: التواضع لله.. ويقصد به الاستشعار المستمر لنقاط الضعف الروحي، والنفسي، والتقصير أمام الله سبحانه وتعالى، وهو بهذا المعنى يتقابل مع الاعجاب بالذات والتكبر أمام الله.. والعياذ بالله.. والمن عليه بالإسلام، والعمل. وفي الرواية أنه سئل الرضا (ع) عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فقال:

«التواضع إن يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم».

والتواضع ـ عنتدئذ ـ يكتسب قيمته من أمرين.

١ ـ إن التواضع هو الاستشعار الكامل للعبودية لله تعالى ولا يمكن لهذا الكائن الصغير أن يؤدي حق الله كاملاً، وكيف يؤدي حق من أداء حقه إليه،

---

(٦٢) أصول الكافي ج ٢ ص ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٦٣) نفس المصدر.

يثبت له حقاً جديداً، وشكره يحتاج إلى شكر؟. . وأيضاً فإن التواضع إدراك لقضية واقعية هي وجود الضعف الأخلاقي، والنفسي والروحي في الإنسان وأي إنسان يخلو من الضعف، والقصور، والتقصير؟ قد يطغى الإنسان ويتصور نفسه خالصاً مخلصاً من العيب والضعف، والذنوب، ولكن لا يوجد إنسان في العالم يصدق مع نفسه إذا اعتقد بذلك.

٢ ـ أن التواضع خلافاً للعجب بالنفس، والتواضع له قيمة عملية كبرى باعتباره أنه لا يجمد وضع الإنسان المسلم عند حد معين، ـ ونقطة معينة من النمو، والتطور، بخلاف العجب الذي يتصور فيه الانسان إنه وصل إلى نقطة الكمال الأخلاقي والروحي، فيعتقد الإنسان عندئذ حرارة المعاناة التي تحرك، وتدفع إلى أمام. . والانسان الذي يفقد نار المعاناة ما أسهل ما يستحوذ عليه الشيطان. ففي نصٍ عن أبي عبد الله (ع) قال رسول الله (ص):

«إن موسى سأل إبليس عن الذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم ،استحوذ عليه؟ قال: (أي إبليس): إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه»(٦٤)

ويظهر من النصوص الواردة عن أهل البيت (ع) أن المؤمن في حالة المعاناة، وحرارة الاندفاع، ـ والحرقة في التوجه أفضل ـ حتى مع الذنب ـ منه وهو في حالة الاستقامة والعجب بذاته. .

عن أبي عبد الله (ع) في خبر صحيح.

«أن الرجل ليذنب الذنب، فيندم عليه، ويعمل العمل، فيسره ذلك فيتراخى عن حاله تلك فلئن يكون على حاله تلك، خير له مما دخل فيه»(*)

---

(٦٤) الاصول من الكافي ج ٢، ص ٣١٣
(*) الأصول من الكافي ج ٢ باب العجب ح ٤.

وعنه:

«إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلي المؤمن بذنب أبداً»(**).

وعن أحدهما (ع): (دخل رجلان المسجد أحدهما عابد، والآخر فاسق فخرجا من المسجد، والفاسق صديق والعابد فاسق. وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته، يدل بها فتكون فكرته في ذلك وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه، ويستغفر الله عز وجل مما صنع من الذنوب)[٦٥]

وفي نص آخر (إن الله تعالى من حنانه على عبده المؤمن أنه يلقي مما عليه في بعض الليالي نعاساً، فتفوته صلاة الليل حتى لا يدل، ويعجب بنفسه، وهو يداوم عليها).

والسبب أن التواضع لله تعالى من أخص خواص الشخصية الإسلامية كانت لغة الأنبياء، والأئمة (ع) مع الله تعالى في منتهى الأدب، والتذلل، والخضوع لله فيها اعتراف بالتقصير، والذنوب، والحاح في طلب المغفرة والتوبة والقبول، والشعور الدائم بحق الله تعالى عليهم، وبعدم ادائهم لحق الله.

﴿وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وارنا مناسكنا، وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم﴾[٦٦].

وأما موسى فقد.

(**) الأصول من الكافي ج ٢ باب العجب ج ١.

(٦٥) أصول الكافي ج ٢ ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

(٦٦) البقرة /١٢٧.

﴿قال: رب أني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾(*)

﴿وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب﴾ (٦٧)

ومن أروع معاني التواضع لله تعالى والأدب معه سبحانه ما سجلته الصحيفة السجادية من ألوان الاعتراف بالتقصير ونقد الذات والاستغفار واستشعار الضعف والقصور فأقرأ أن شئت من مناجاة الشاكين.

«إلهي اليك أشكوا نفساً بالسوء أمارة وإلى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الأمل إن مسها الخير تمنع، وإن مسها الشر تجزع، ميالة إلى اللعبة واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو»(**)

ومن مناجاة التائبين.

«إلهي البستني الخطايا ثوب مذلتي وجللني التباعد منك لباس مسكنتي وأمات قلبي عظيم جنايتي فاحيه بتوبة منك يا أملي وبغيتي»(***)

واقرأ في الصحيفة تجد الكثير من هذا الأدب الرفيع.. حتى لتكاد تشعر بأن قلب زين العابدين (ع) يتقطع من خشية الله وشدة التألم من التقصير والمخالفات، ولأننا لا نعيش معنى للأدب لله، ونتناسى أن كل إمام مهما كان وكل نبي له مخالفات وتقصيرات داخل اطار العصمة، فإننا نحاول أن نصنع المشاكل، ونثير الأبحاث الطويلة، ونحاول أن نجمع الأجابات المختلفة عن

---

(٦٧) سورة ص/٢٤.

(*) سورة القصص، آية: ١٦.

(**) مفاتيح الجنان، مناجاة الشاكين، ملحق الصحيفة السجادية.

(***) مفاتيح الجنان، مناجاة التائبين، ملحق الصحيفة السجادية.

السؤال القديم: كيف يمكن لزين العابدين وهو الإمام المعصوم آن يعترف بالذنوب والتقصيرات والمخالفات أمام الله؟ وننسى أن زين العابدين لو آمن بأنه لا تقصير له، ولا مخالقة عنده، لما كان معصوماً بحال من الأحوال.

ب ـ التواضع للمؤمنين: ومن ألوان الوعي الذاتي التواضع للمؤمنين وليس المقصود منه التأدب معهم واحترامهم وحسن الخلق والمداراة وغير ذلك من التعاملات الخارجية الحسنة فإن هذا نتيجة للتواضع لا التواضع نفسه أما التواضع فهو ألا تشعر بكونك أعلى منزلة، ودرجة من أي مؤمن تلقاه.. بل أن تشعر بأنك أقل المؤمنين حظاً، وأخفضهم منزلة.. وهو شعور ضروري ومهم بالقدر الذي هو طبيعي من الإنسان المؤمن، وذلك لأن مقياس المسلم في الضعة والرفعة إنما هو درجة القرب من الله تعالى ومدى قبوله سبحانه للانسان وقد تعلم أنك أكثر من أخيك المؤمن في العلم، والثقافة كما قد تعلم أنك أكثر خدمة منه للدين والمسلمين، بل قد تعلم أنك تصلي أكثر مما يصلي، وتعبد أكثر مما يعبد، ولكنك لا يمكن أن تطمئن إلى أن مقامك عند الله تعالى أرفع من مقامه، ومنزلتك أعلى من منزلته. ومن الممكن أن يكون هذا الإنسان الذي تحتقره عيناك ممن ترجو شفاعته غداً، لأن له سراً مع الله لا تعلمه أنت ولا غيرك. ومن هنا يحكي القرآن الكريم عن بعض أهل النار قولهم.

﴿ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخرياً، أم زاغت عنهم الأبصار﴾(٦٨)

وعن أبي جعفر الباقر (ع) عن آبائه عن علي (ع) قال:

«ان الله أخفى أربعة في أربعة.. الى أن قال: وأخفى وليه في عباده فلا تستصغرن عبداً من عبيد الله فربما يكون وليه، وأنت لا تعلم»(٦٩).

والإنسان الذي قد يسقط في أعيننا لذنب ارتكبه أو خطأ وقع فيه، قد يتوب

---

(٦٨) سورة ص/٦٣

(٦٩) مقدمات العبادات ص ٧٩.

في مستقبله، ويكون في مراتب القرب من الله تعالى، ونبقى نحن في أوضاعنا الفعلية.

ونتيجة لشعور المؤمن بالتواضع للمؤمنين، واحترامهم الذاتي يتسم سلوكه معهم بالتقدير، والاحترام، والخدمة والأنس يصافح الغني، والفقير، والصغير، والكبير، ويسلم مبتدئاً على كل مؤمن، ولو كان عبداً من أهل الصلاة هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة جميل المعاشرة.. كما ورد في صفة الرسول (ص).


الفصل الثالث
الوجدان
العاطفة المبدئية والانفعال الإرسالي

في الفصل السابق تناولنا الوعي الديني، والوعي التاريخي والوعي الذاتي. وهي مجموعات تؤلف جانب البصيرة والرؤية الفكرية للشخصية الإسلامية.. وهذا هو الجانب الأول في الشخصية الإسلامية.. والمرتكز الأساس الذي تقوم عليه، أما الجانب الآخر ـ والأساس الآخر.. فهو الوجدان الإسلامي بالمعنى الواسع الذي يشمل العاطفة كالحب والبغض، والانفعال كالخوف، والرجاء، والغضب، والفرح.

دور الوجدان في الحياة الانسانية

وللوجدان بالمعنىٰ المذكور دور كبير في حياة الفرد البشري. فليس الإنسان مركباً آلياً يتحرك بسبب الاثارات أو بالأحرى الحركات الخارجية، كما هو شأن كل جسم مادي لا يملك الحيوية الذاتية، والاندفاع الذاتي، وليس الإنسان كذلك كائناً عقلياً صرفاً يعقل، فيتحرك بسبب رؤيته العقلية فقط، ويتصرف بإرادة محضة لا يشاركها حب، ولا بغض، ولا غضب، ولا سرور..

ليس الإنسان كذلك ولا يمكن أن يكون كذلك، وإن أصرت مجموعة من الفلاسفة على أن يكـون الإنسان ارادة محضـة، وعقلاً محضـاً، وأن ينطلق من أفعـاله، وتصرفاته من الاحساس بالواجب الأخلاقي والشعور بالالزام فقط.

وبسبب هذا الأمر. .

وبسبب أن للوجدان ـ عاطفة وانفعالاً ـ أثراً كبيراً في الفكر، وفي السلوك إذ يدفع نحو بعض المواقف ويمنـع من بعض، ويقرر بعض الأفكـار، ويحول دون بعضها الآخر، بسبب هذين الأمرين (عدم انفكاك الإنسـان عن العاطفـة، والانفعـال، وأثرهمـا الكبير في الفكـر، والسلوك) أكد الإسـلام في مفـاهيمـه الأخلاقية ومناهجه التـربويـة على كل من الميـول النفسية (العـواطف)، وعلى الاستجابات النفسية الثائرة من غضب، وفرح، ومن خوف، ورجاء.

مبدآن اسلاميان للحياة الوجدانية

وكان التأكيد الإسلامي، والعمل الذي تقوم به التربية الإسلامية، باتجاه الحياة الوجدانية للإنسان، مرتكزاً على أساسين أو مبدأين:

المبدأ الأول:

تكوين وجدان إسلامي خاص بالإنسان المسلم. وقد أعد الإسـلام بهذا الصدد قائمة طويلة للمعاني التي يجب أن يبتني عليها الإنسان المسلم، وتقوم على أسـاسه الشخصيـة الإسلاميـة والتي تتألف من عنـاصر عـديدة كحب الله تعالى، والانس به، والاشتياق إليه والخوف منه، ورجاؤه والرضا بقضائه وقدره، وحب المؤمنين، وحب الرسالة، وبغض الكافرين، والمنحرفين، والشـريرين، والسرور بالحسنة والتضايق من المعصية والانفتاح النفسي على الحياة والابتهاج بها إلى غير ذلك من المعاني الإسلامية الكثيرة في هذا المجال. . وتوجد إلى جانب ذلك عناصر سلبية في الوجـدان المسلم. . كالـزهد الـذي يعني تفريـغ الإنسان المسلم لوجدانه من حب الدنيا. . والخوف عليها ورجائها.

لمـاذا يصر الإسـلام على تكوين وجـدان خاص بـالإنسان المسلم، ولا

يكتفي منه بالعمل؟ أن السبب في هذا الاصرار من قبل الإسلام يعود إلى أمرين:

١ ـ أن هدف الإسلام ليس مجموعة من التصرفات، والمواقف، والحركات يؤديها الإنسان المسلم، وإنما هو بناء الإنسان الصالح بكل ما يعنيه الإنسان من الفكر، والروح، والوجدان. والسلوك أن الإسلام يهدف إلى إيجاد صيغة جديدة للإنسان تختلف عن كل الصيغ المعروفة للإنسان في مختلف الحضارات، صيغة كاملة شاملة.. وليست محصورة ضمن نطاق الفعل، والسلوك الاجتماعي وبهذا يختلف الإسلام عن مجموعة من أنظمة الأرض التي لا تريد سوى أن تؤكد سلطتها وسيطرتها السياسية، والاجتماعية على الناس..

٢ ـ ينظر الإسلام إلى الشخصية الإنسانية وحدة متكاملة يؤثر كل جانب منها، وكل جزء في الجانب الآخر، والأجزاء الأخرى، ومن هنا فهو يرى أن من غير الممكن أن نؤمن جانباً من الشخصية الإنسانية دون تأمين كافة الجوانب الأخرى، ليس من الممكن للإسلام أن يحكم السلوك الاجتماعي، والسياس للناس دون أن يغير من مضمونهم العاطفي، والانفعالي، والوجداني، ودون يغير من مفاهيمهم الحياتية ورؤاهم الفكرية حول الكون، والحياة كما لا يمكنه أن يؤكد على جوانب الفكر، والوجدان في شخصية الإنسان المسلم دون أن يؤكد على جانب السلوك، والنظام الاجتماعي، والسلطة الزمنية.

المبدأ الثاني:

تحكيم العقل والدين على العاطفة، والانفعال فمهما كانت العواطف، والانفعالات رسالية، وانسانية عامة أو منحرفة فهي ـ محكومة ـ في شخصية الانسان المسلم ـ لارادة الله تعالى التي يعرفها العقل.

وعلى هذا فالعاطفة والانفعال ـ ولو كانا مبدأين ـ يعتبرهما الإسلام (طاقة نفسية) لا بد منها، أما الجهاز الحاكم في الشخصية فليس هو العاطفة، ولا الانفعال وإنما العقل، والارادة، أولهما: يوضح الصحيح من الخطأ والحلال

من الحرام في ضوء المنطق الشرعي، وثانيهما ينفذ ويقرر عملياً ويرتكز ذلك على ما يلي:

١ ـ ان ارتباط الغريزة، والعاطفة، والانفعال الذي تقتضيه هذه الدوافع ليس ارتباطاً حتمياً، وإنما هو ارتباط اقتضائي. إذ يمكن للإنسان أن يحول بين العاطفة والانفعال وبين نتائجهما العملية.

٢ ـ إن مقتضى العبودية لله تعالى هو، أن ينسجم الإنسان سلوكياً مع ارادته تعالى، سواء كانت مثبتة تشريعياً على شكل الزام، أو على شكل ترجيح، أو كانت إرادته تعالى هي ترجيح أحد الأطراف المتزاحمة من وجهة نظر المصالح، والمفاسد.

٣ ـ إن العواطف ولو كانت دينية ـ لا تقتضي دائماً الفعل الذي ينسجم مع إرادة الله تعالى، بل قد تختلف مقتضياتها مع مقتضيات الارادة الالهية فقد يسبّ المؤمن ـ لعاطفته الدينية ـ الذين كفروا فيسبّوا الله تعالى، وقد ينفعل ـ غاضباً لله تعالى فيتعجل بموقف يعود بالضرر على الدين وعلى هذا أناط الإسلام (الفعل) بالتدبر، بالعاقبة والتعقل كما جاء في حديث عن رسول الله (ص):

«إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن يك رشداً فامضه، وإن يكن غياً فدعه»(*)

الضغط على العواطف الرسالية في حياة القادة

والأمثلة على الضغط على العواطف الرسالية، في سبيل المصلحة العليا للرسالة كثيرة في حياة الرسول (ص). والأئمة (ع).

اذكر من سيرة الرسول (ص) موقفه في صلح الحديبية، في شكل الكتاب بينه، وبين موفد المشركين إذ رفض المشرك (سهيل بن عمرو) أن يفتتح الكتاب

(*) من لا يحضره الفقيه ج ٤ باب ١٧٥ ج ٥٨٩٤.

بـ (بسم الله الـرحمن الرحيم) وأن يسمي فيـه محمداً بـرسول الله (ص) وأقـرَّه الرسول بـذلك، وأن يـرد (ص) بعض المسلمين المهاجـرين إليه من العـذاب الجاهلي فيردهم إلى المشركين لموقع العهد بينه (ص) وبينهم وهو مـوقف في قمـة الضغط على العاطفـة الـرسـاليـة لمجـرد الـوفـاء بشـرط اشتـرطـه (ص) للمشركين[١].

واذكر من سيرة الإمام علي (ع) موقفه. عندما غلب الانحراف على الخط الإسلامي الأصيل بعد وفاة الرسول (ص) وفي ذلك يقول (ع) كما في الخطبة الشقشقية: (وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يشيب فيهـا الصغير، ويهـرم فيها الكبيـر، ويكدح فيهـا مؤمن، حتى يلقى ربّه فرأيت أنّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهباً)[٢]

ومن سيرة الامام الحسن عملية الصلح مع معاوية التي لم تتحملها حتى القلوب المؤمنة.. فتفجرت على شكل ملاحـظات، وكلمات نـابية قـوبل بهـا الإمام (ع) من قبل خيرة أصحابه.. ولكن المرحلة، ومصلحـة الإسلام العليـا التي هي المقياس في صحة المـوقف، والانفعالات كـانت تقتضي منه (ع) أن يقبل بالصلح ضمن شروط معينة.

وأما الآن فإلى مجموعة من العواطف الاسلامية والانفعالات المؤمنة.

حب الله:

أول عناصر العاطفة الايمانية، حب الله تعالى قال سبحانه:

﴿ومن النـاس من يتخذ من دون الله انـداداً، يحبـونهـم كحبّ الله

---

(١) أعلام الورى للطبرسي ص ٩٧ ـ ٩٨
(٢) نهج البلاغة نص رقم/٤٨ تعليق صبحي الصالح

والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[3].

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم، وأخوانكم، وأزواجكم، وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله، ورسوله، وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[4].

وعاطفة الحب أوسع العواطف الايمانية، وأشملها، وتتمثل في الميل النفسي إلى الله تعالى والاستعداد الدائم للانس والالتذاذ بلقائه وينبسط هذا الحب، ويتفرع إلى معاني أخرى بسبب ارتباطها بالله، بنحو من أنحاء الارتباط.

ويرتكز حب الله في نفس المؤمن على أوسع المرتكزات النفسية، وأوثقها وهي اثنتان:

١ ـ حب الذات.. وحب الذات أمر فطري في الإنسان بمعنى أن الانسان مجبول على حب ذاته وهو حب يمتد وينبسط على خالق الذات، والمنعم عليها، ومن يمدها بالنعم صباحاً ومساء.. ومن هنا جاء في الحديث عن الرسول (ص):

«أحبّوا الله بما يغذوكم به من نعمه، واحبوني لحب الله»[*].

٢ ـ حب الكمال، والجمال، وهو حب آخر جبل عليه الإنسان، غير حب الذات.. والله سبحانه منتهى الجمال، والكمال، والصفات الحسنى كلها له.

من عطاء الحب الالهي

ولحب الله تعالى آثار كبيرة على شخصية الانسان المؤمن:

(*) آمالي الشيخ الطوسي باب ١٠ ح ٦٨.
(٣) البقرة/ ١٦٥.
(٤) سورة التوبة/ ٢٤.

١ ـ الأثر العملي: وهو الطاعة والاستقامة على خط الله تعالى في الحياة

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾(*)

وفي المعاني للصدوق عن الصادق (ع) قال: ما أحبَّ الله من عصاه ثم تمثل بقوله:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته إن المحبّ لمن أحبّ مطيع

وفي مناجاة المحبين للسجاد (ع) (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا) وفيها أيضاً (يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين، أسألك حبك وحب من يحبك، وحب كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن يجعلك أحبّ إليّ مما سواك، وأن يجعل حبّي إياك قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك)(**).

وفي قصة مصعب بن عمير، وهو أحد المؤمنين الذين تربوا على يد رسول الله (ص)، وكان فتى مترفاً في بيت مرفه، يصفه رسول الله (ص) ـ كما في الرواية ـ ما رأيت بمكة أحسن لمة، ولا أرقّ حلقة، ولا أنعم من مصعب بن عمير، في هذه القصة: إن رسول الله (ص) رآه بعد ذلك وعليه جلد كبش من أثر الحرمان في الله ومن أجل الله تعالى، فقال (انظروا إلى هذا الذي نوّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام، والشراب، ولقد رأيت عليه حلة (ثوبا) شراها بمائتي درهم، فدعاه حب الله، ورسوله إلى ما ترون).

٢ ـ الانس بالله ورسوله في الوحدة.. والأنس بعبادة الله تعالى في الأيام المعتادة وأيام الوحدة، والغربة من أهم آثار أو أسس حب الله تعالى وقد كانت عبادة الله تعالى قرة عين الرسول (ص) والأئمة (ع) من بعده. وقد كانوا عليهم

(*) سورة آل عمران، آية: ٣١.
(**) مفاتيح الجنان، مناجاة المحبين. ملحق الصحيفة السجادية.

السلام عندما تحدد ممارساتهم الاجتماعية، وصلاتهم بالناس يأنسون بالصلاة، وتلاوة القرآن الكريم ويملأون كل أوقاتهم بالعبادة، والصلاة، أنساً بربهم، وحباً وعبودية.

بل نلاحظهم أنهم (ع) وإن كانوا يؤدون واجبهم في العمل الاجتماعي، ويعملون تخطيطاً وجهوداً من أجل قضية الإسلام، يتمنون لو أتاحت لهم الظروف أن يتفرغوا للعبادة والالتقاء المباشر بالله تعالى وليس في هذا غض وإقلال من قيمة، وشأن العمل الاجتماعي، والجهاد في سبيل الله ولكن المؤمن يأنس بالله تعالى، وعبادته المباشرة من سجود، وركوع، وذكر أكثر مما يأنس بالممارسات الاجتماعية والاختلاط مع الناس.

وفي الرواية: أن موسى بن جعفر (ع) كان كثيراً ما يسمع في دعائه ـ عندما كان في السجن ـ يقول: (اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد)[٥] وكان (ع) مشغولاً يحيي الليل كله صلاة، وقراءة للقرآن، ودعاء، واجتهادا، ويصوم النهار في أكثر الأيام، ولا يصرف وجهه عن المحراب[٦].

ويرد الكلام نفسه، وإن كان بصيغة أخرى عن الحسن العسكري (ع) ففي الخبر (دخل العباسيون على صالح بن وصيف عندما حُبِسَ أبو محمد (ع) فقالوا له: ضيق عليه ولا توسع فقال لهم صالح: ما أصنع به وقد وكلت به رجلين شر من قدرت عليه، فقد صارا من العبادة، والصلاة والصيام إلى أمر عظيم ثم أمر بإحضار الموكلين به. فقال لهما: ويحكما ما شأنكما في أمر هذا الرجل فقالا: ما نقول في رجل يصوم النهار ويقوم الليل كله لا يتكلم ولا يتشاغل بغير العبادة فإذا نظر إلينا ارتعدت فرائصنا وداخلنا ما لا نملك من أنفسنا)[٧].

(٥و٦) الارشاد للشيخ المفيد ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨

(٧) الارشاد للشيخ المفيد ص ٣٣٨ ـ ٣٨٩.

وهـذا علي بن الحسين (ع) الذي كـانت ظروفـه لا تسمح لـه بـالعمـل الاجتماعي المكثف بحال من الأحوال، فأتاحت له شيئاً من الوحـدة، والتفرغ سجل لنا تـاريخه أروع درجـات الانس، والتوجـه، والشوق إلى الله تعـالى. . فكان من أدعيته ما تقرأه في الصحيفة قطعاً من قلبه الخاشع، وروحه المتحفزة وأنسه بالله تعالى العلي العظيم. . وكان من عبادته ما حكـاه أبو عبـد الله (عليه السلام) مـن دخول الباقر (ع) (فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد، فرآه قد اصفر لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء، ودبرت جبهته وانحرف أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة. وقال أبـو جعفر (ع) فلم أملك ـ حين رأيته بتلك الحال ـ البكاء ـ فبكيت رحمة له)(*).

٣ ـ حب الرسالة والعمل من أجلها، فمن شؤون حبّ الله تعالى حب دينه الـذي شرعـه للناس لينهجـوه في هذه الحيـاة، وحب تقدم النـاس نحـو هـذه الرسالة، وتطبيقهم لها وحب الإسلام والرسالة الإسلامية يكون على نحوين:

أ ـ حب الرسالة والعمل من أجلها باعتبـار أنها تحقق لـلانسان سعـادته، وتتمثل فيها كافة المصالح الانسانية أو حبها باعتبار اقتناع الانسان بها، وكـونها جزءاً من شخصيته وكيـانه، أو بـاعتبارهـا من دين الآباء، ومـا شاكـل ذلك من الشؤون والاعتبارات التي لا يكون فيها أي نحو من الارتباط بالله تعالى، وليس لهـذا الحب والعمل قيمـة من وجهة نـظر الأخلاقيـة الإسلاميـة، ولا يعتبر من المعاني التي يتشكل منها وجدان الانسان المسلم، وإنما هو من قبيل حب أي إنسان لعقيدته، وقومه، أو وطنه، وأمثالها من المعاني التي يضحي بعض الناس بمصـالحهم الشخصية في سبيلهـا، وتعتبر تـوسعاً لـدائرة الـذات، والمصلحة الشخصية.

ب ـ حب الإسـلام لأنه دين الله تعـالى وإرادته التي يجب أن تـطبق في الأرض. . وهذا هو الحب الذي ينبع عن حب الله تعالى ويتفرغ عنـه، ويعتبر

(*) وسائل الشيعة، أبواب مقدمات العبادات ب ٢٠.

أثراً من آثاره في الحياة النفسية، والعملية للإنسان المسلم، ويقابل هذا الحب بغض الانحراف وانكار المنكر في القلب. . كما سوف يأتي أن شاء الله تعالى.

ومن آثار حب الله تعالى، الزهد في الدنيا، ومن آثاره أيضاً حب المؤمنين. .

حب المؤمنين أو الحب في الله

عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص):

«ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان. إلا ومن أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله»(*)

وعن علي بن الحسين (ع) قال:

«إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين قام مناد فنادى ليسمع الناس فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس فيقال لهم اذهبوا إلى الجنة بغير حساب»(**)

وعن أبي عبد الله (ع):

«كل من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له»(٨)

إن حب المؤمنين نتيجة طبيعية لحب الله تعالى. لأنهم مرتبطون بالله بأسمى معاني الارتباط، وحب الشيء ينبسط وينسحب على ارتباطاته، ومتعلقاته.

أمرّ على الدّيار ديار سلمى أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب الحب في الله والتعفف في الله ح ٣.
(**) الأصول في الكافي ج ٢ باب الحب في الله والتعفف في الله ح ٨
(٨) أصول الكافي ج ٢ ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

ومـا حـبّ الـديـار شغـفن قـلبـي ولـكن حـب مـن سـكـن الـديـارا

وينتج حبّ المؤمنين من جهة أخرى من التجانس في العلاقة بالله تعالى، والعقيدة، والحياة في عالم يغترب فيـه المؤمنون الحقيقيـون، والانسان يـألف مجانسه، ومماثله..

ويعـزز تحابّ المؤمنين فيمـا بينهم وينميه الخلق الإسـلامي من الأدب، والاحترام، والتزاور، والتكافل.. وغير ذلك من التعامل الذي يهدف الإسـلام من التشجيع عليه توثيق الصلة بين المؤمنين وتركيز علاقتهم العاطفية.

إنّ حيـاة المؤمنين فيمـا بينهم هي حيـاة الحب، والإنس، والانفتـاح، والاحترام، والتواضع.. فلا حقد، ولا بغضاء ولا كراهية، ولا انقباض.. هي حياة ملؤها الرحمة، والحنان، والعطف لا تشوبها شائبة.. من غلظة، وجفاء، وقطيعة..

الاختلاف والتنافر بين المؤمنين

وقـد نلاحظ في حيـاتنا اليـومية بعض المؤمنين الـذين يتنافـرون، بسبب اختلافهم في الرأي حول قضية إسلامية، فتشيع بينهم العداوة والتحاقد، والعياذ بالله، إنّ هؤلاء لم يعرفوا حدود الأخوة الإيمانية، ومستلزماتها.. ولـم يعوا بعد أن اختـلاف الـرأي لا يفسـد، للحب قضيـة، وأن لكـل مجتهـد أجـرين، إن أصـاب أجـر، وإن أخـطأ أُجر، وإن حيـاة الايمان، والـوحـدة الـروحيـة بين المؤمنين أهم بكثيـر من الموقف الفـلانيٍ الذي يؤمن بـه أحدهمـا، ويكفر بـه الآخر، حتى ولو كان هذا الموقف صحيحاً.

وقد نلاحظ في حياتنا اليومية أيضاً بعض المسلمين الذين يتنافرون بسبب مصالح شخصية ـ قد تظهر بمظهر ديني ـ فيحقد أحدهما على الآخر بسبب أنـه أخطأ في حقه، أو نقده أو نصحه بأسلوب حاد، أو زاحمه على مركـزه، أو لم يتابعه في رايه، وغير ذلك من الأسباب السخيفة.

أن المؤمن يتجاوز الخطيئة، ويكظم الغيظ، ويغفر زلات اخوانه، ويتغاضى عن سيئاتهم.. أو ليس أخلاق المؤمن من أخلاق الله؟ ومن راجع النصوص الواردة عن أهل البيت (ع) في أخوة المؤمنين، وحقوق الأخوة، وجد بها ما يقصم الظهر.. وسنأتي على ذكر الكثير منها أن شاء الله تعالى في القسم الثالث من هذا الكتاب ويكفينا هنا أن نذكر بعض هذه النصوص:

عن أبي عبد الله (ع): (قال الله عز وجل: ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن)(*) وعنه (ع) عن أبيه: (أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يواخي الرجل على الدين، فيحصي عليه عثراته، وزلاته ليعنفه بها يوماً ما)(**).

وعنه (ع): (من روى على أخيه المؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان). (وإذا اتهم المؤمن أخاه إنماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء) وعن أبي جعفر (ع): «أيّما مسلم أتى مسلماً زائراً، أو طالب حاجة، وهو في منزله، فاستأذن له ولم يخرج إليه لم يزل في لعنة الله حتى يلتقيا) وأخيراً عن أبي عبد الله (ع): (إذا غاب المؤمن فاحفظه في غيبته، وإذا شهد فزره، وأجله، واكرمه، فإنه منك، وأنت منه، فإن كان عليك عاتباً، فلا تفارقه حتى تسأل سميحته، وأن أصابه خير فاحمد الله، وإن ابتلى فاعضده، وإن تمحل عنه فاعنه. وإذا قال الرجل لاخيه: أف، انقطع ما بينهما من الولاية، وإذا قال: أنت عدوي كفر أحدهما فإذا اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء)(٩)(***).

---

(٩) أصول الكافي ج ٢ موارد متفرقة

(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب من أذى المسلمين واحتقرهم ح ١.

(**) الأصول في الكافي ج ٢ من طلب عثرات المؤمنين ح ١.

(***) نظراً لاهمية هذا الموضوع الحساس ارتأينا نشر هذا البحث الهام المنشور في احدى الدوريات الاسلامية (بتصرف طفيف) والذي يتحدث عن ظاهرة حب الظهور التي تعتبر من اهم اسباب التنافر والاختلاف بين المؤمنين.

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين﴾.

حبّ الظهور حالة مرضيّة تصيب أوساطاً إجتماعيّة مختلفة، وتتفاوت خطورتها بتفاوت الشريحة الاجتماعية التي تمنى بها من حيث الأهميّة ومن حيث اتّساع المساحة التي يتفشّى فيها ذلك المرض، ويأخذ هذا المرض صفة الظاهرة عندما يزداد عدد المصابين، وينتشر بشكل يتجاوز الحالات الفرديّة.

إنّ تناول هذا الموضوع يأتي في سياق التشخيص الدقيق لظهور هذه الحالة على بعض العاملين من جانب ولحرصنا الشديد على الحيلولة دون ان تتحول تلك الاصابات المتفرّقة إلى ظاهرة لا سمح الله من جانب آخر، إضافة إلى أنّها تعمل ما بوسعها لتنقية أوساط الأمّة من الشوائب السلوكيّة أيّاً كان نوعها، ثم انّ توعية المؤمن على مثل هذه الظواهر يسهم وبدرجة كبيرة بكبح جماح التفاقم الذي يحوّل المرض من صورة استثنائية في حدود عدد ما إلى حالة متجذّرة في الكيان الحركي تطفح على سطحه في حقل ما من حقول العمل والعياذ بالله.

حديثنا هنا وضمن هذه الظاهرة سينصب على عدّة نقاط:

١ ـ كيفيّة تحديد الظاهرة من خلال التعرّف على ابرز سماتها.

٢ ـ العلاقة بين حبّ الظهور وبين التنازع على الموقع.

٣ ـ أسباب الظاهرة وعوامل انتشارها.

٤ ـ النتائج المترتّبة عليها.

٥ ـ المعالجة الاسلامية في هذا المجال.

(أولاً): كيف نحدد ظاهرة حبّ الظهور؟:

ربّما يكون من الصعب أحياناً إن لم يكن من المتعذّر تحديد الدوافع الحقيقيّة لحركة صنفين من العاملين في وسط الدعاة الى الله، وسرّ الصعوبة ينشأ من أنّ طبيعة العمل هي الدعوة إلى الله تعالى، ومهمّة كهذه تتطلّب أن يجنّد الداعية كلّ ما لديه من أجل أن يؤدّي دوره في الأمّة والحركة ولعلّ مظهر الداعية العامل الحريص والنشط الذي ينذر نفسه لله (عزّ وجل)، ويتفانى في الدعوة اليه ولا يريد إلّا رضاه يتداخل ـ أحياناً وللوهلة الأولى ـ مع مظهر ذلك الذي يندفع من حبّ ذاته ويبقى رازحاً تحت وطأة تلك الحالة حيث يتذوق المدح ويشتاق الى الشهرة ويجعل همّا الارتقاء في المواقع ويبحث عن دائرة الضوء.

. . . .

= ولا بدّ للجواب على سؤال: كيف نحدد ظاهرة حبّ الظهور؟ من أن نتناولها من منظورين: منظور تحديد المرض ومنظور كونه ظاهرة لأننا بصدد الحديث حول حبّ الظهور كظاهرة، وليست صورة إستثنائيّة وإن كنّا نؤكّد على الترابط بين الأمرين إذ أنّ المرض قد يبدأ بالفرد العامل ثمّ يشمل أفراداً عاملين ثمّ يكون ظاهرة تتحوّل إلى حالة دائمة ومستحكمة بحيث يتعذّر معها العلاج والاستئصال.

ولنأخذ مثلاً:

* تحديد هذه الحالة المرضيّة هو إبراز الذات من خلال الحديث والاستشهاد.

فالداعية يمكن ان يتناول أيّ موضوع وأيّ حديث من الزاوية الرساليّة سواء أكان حديثه على صعيد التربية أو التثقيف العام أو ممارسة النقد أو أيّ صعيد آخر، واتّجاه كهذا بالحديث يستوجب توضيح كامل أطراف الموضوع وبأعمق ما تتطلّبه مصلحة الاسلام، فمحور التناول هو الاسلام من حيث يبدأ إلى حيث ينتهي، فمفردات الحديث تدلّ من خلال عرضه على أنّه يريد أن يصل بالمعنيين بالحديث لما فيه مصلحة الاسلام وحتّى إذا صادف أن تكون هناك مفردة واحدة أو أكثر متعلّقة بذاته إلّا أنّها واضحة من خلال الاتجاه العام للحديث ومن خلال التركيز على المصلحة الاسلامية انّها ليست المستهدفة، خصوصاً إذا بلغت به الحكمة الحدّ الذي يستخدم فيه أسلوب الكناية في المفردات التي تتعلق به، أمّا الذي يتحدّث من موقع الاصابة بمرض حبّ الظهور فهو لا يرى لذّة في كلّ حديث ولا مبرر لطرح أيّ موضوع إلّا أن يكون ذلك مدخلاً من مداخل الذات وفرصة لاستلاب اعجاب الآخرين به ولا يكون همّه إلّا أن يترك عند المستمعين لحديثه فارقاً فيما ينظرون به إليه بحيث ينتهي بهم إلى أنّه مثقّف... انّه عامل وانّه ذكيّ وانّه يخشى الله وانّه محبّ، وكلّ مظاهر حبّ الذات، وبذلك يستشعر الدعاة وهم يستمعون إليه بأنّه يطوف بهم في أرجاء ذاته متشبثاً بها في هذا الحديث أو ذاك وانطلاقاً من هذا الدّافع تراه يستعظم موقفاً ما ليس له مثل هذه الأهميّة ويستهين بموقف آخر رغم ما فيه من أثر بالغ وقدسيّة معيّنة كلّ ذلك على اساس ماله من دور في الموقف الأول وغياب الموقف الثاني.

وعندما يضع الداعية نصب عينيه المتبنّى الاسلامي الملتزم يكون من السهل تشخيص هذا العارض المرضيّ الذي يصيبه أو يصيب الآخرين، وهذا المتبنّى الذي لا يستدعي أن يعرّف بدوره في حدث مّا انطلاقاً من حبّ الذات والشهرة، كما

لا يستدعي ان يختزن من المعلومات ما يخصّه هو بالذات ليستعظم قدره، إنّما يريد منه أن يعرف بأهميتها ويدرك خطورتها ويحفظ لها كلّ ما من شأنه أن يجعله بمستوى مهمتّه، ولا بأس أن يعرف في هذا السياق بدوره ودور إخوانه، وهو حين يلجأ إلى الحديث عن نفسه بالكنية متجنّباً حقيقة وبدون تكلّف ذكر نفسه فقد حفظ الابتعاد عن تلك الظاهرة غير الصحّية في عمل الداعية.

*** محاولة إضعاف دور الآخرين والتقليل من شأنهم:**

ومن العلامات التي تفصح عن هذه الحالة عند البعض هي محاولة بخس الآخرين حقّهم والتقليل من شأن قدراتهم وجهدهم، في حين يحاول أن يصوّر جهده وكفاءته وما يقوم به من نشاطات بصورة النموذج الرائد في العمل والوعي والإتقان، وفي كلّ حال ينبغي أن نميّز بين التقويم الموضوعي والتسديد وبين محاولة الإضعاف وبخس الأخرين أشياءهم.

والدعاة الرساليين دأبوا على حبّ العمل تقرّباً إلى الله (عزّ وجل) ودرجوا على مواجهة الصعاب سعياً لنيل رضوانه، الحالة عند من تظهر عليه أعراض (حبّ الشهرة) تختلف تماماً، فهو قبل أن يقترح عملاً مّا ينظر إلى ما يوفّر له ذلك العمل من فرصة للظهور ويكسبه ذلك التكليف من موقع، فتراه يلتمس العذر تلو الآخر للابتعاد عن الأعمال التي ليس لها مردود اعلامي معيّن يسدّ عنده نهم حبّ الشهرة، فيما يبذل كلّ ما في وسعه للوصول إلى العمل الآخر الذي يحقق فيه مآربه.

العامل الاسلامي المصاب بمرض حبّ الشهرة والتنازع على الموقع يشعر أنّه بحاجة إلى أن يدخل في حساباته التقييميّة قرب هذا العامل أو ذلك منه شخصيّاً وتبدأ عمليّة حبّ الظهور تجرّه إلى اقتراف خطأ تقريب غير الكفؤ وإبعاد الكفؤ أحياناً لا لشيء إلاّ لأنّ الأول يسهم في تعزيز موقعه ويشارك في تسليط الاضواء عليه، وبذلك يتخذ المرض صفة غاية في الخطورة حتّى يمتدّ إلى بناء الأجهزة التي يعمل فيها، والمصاب هنا يمارس اعطاء المقترح من موقع كونه مكبلاً بما ينفعه او يضره ذلك المقترح لا بما ينفع أو يضرّ العمل.

*** تحمّل المسيرة:**

يفترض بالدعاة المجاهدين أنّهم ربطوا مصيرهم بالاسلام واتخذوا منه هدفاً ومنطلقاً للعمل، وهم والحالة هذه يتحلّون بالقدرة على مواصلة السير والصبر على المكاره لأنهم ينظرون إلى الطريق وما يعتريه من مشاكل من خلال الهدف الكبير الذي

يريدون تحقيقه، وهذا ما يضفي عليهم طابع الاستقرار رغم الظروف الصعبة التي تحيط بهم، أمّا الذين يريدون أن يعرفوا عند الآخرين ويحتلّوا مواقعاً مّا خدمة لأنفسهم فهم لا يقوون على تحمّل المصاعب ولا يقدرون على مواصلة السير، وتبدو عليهم ظاهرة التقلّب والاضطراب، فهم في مقطع الظرف السهل واثناء المدّ ينشطون ويحاولون احتلال حجم أكبر من حجمهم، فيما تبدو عليهم في مقطع الظرف الصعب واثناء الجزر آثار التعب التي تصل مع اشتداد وتوالي المحن إلى حدّ الاعياء لأنّهم لا ينسجمون في مثل هذا الجوّ مع طموحاتهم الذاتيّة مما يؤدّي إلى التلكّؤ بالمسير متفيّئين ظلال هذه الذريعة أو تلك، أو انّهم يسايرون العمل وفي نفوسهم قدر من السأم لأنهم يحسّون أنّ البذل والعطاء لا يصبّ في توسعة دائرة الشهرة ولا يضخم من بريقهم الظاهري.
وهنا نثبت أيضاً أنّ هذا لا يصلح أن يطلق على أولئك الذين بدت لهم رؤية معيّنة أيّاً كان تقييمنا لها وأدّت بهم تلك الرؤية أو ذلك التصوّر إلى اتّخاذ موقف ما في أصل المواصلة في المسيرة الاسلامية أو تخفيض معدّل التحرّك على نفس المسار.

***صناعة الموقف:**

للداعية موقف في كلّ حدث، ولمّا كان المطلوب منه أن يكون ذا موقف مبدئي، فأنّ معايير الربح والخسارة في اتخاذ الموقف خرجت من دائرة الذات إلى أفق الرسالة فقد يتطلّب موقف مّا أن يضحّي من أجل رسالته وقد يكون حجم التضحية بحجم ماله أو نفسه وقد يكون أقلّ من ذلك، والذي يجعل الدعاة على هذا المستوى من الاستعداد في اتخاذ الموقف هو مبدأيتهم، أمّا اتخاذ الموقف من زاوية ما يعزز شهرته أو تجنّب ما يلحقه من ضرر على أقلّ تقدير فانّ ذلك هو الذي جعل الموقف مضغوطاً بحسابات الذات الأنانيّة وليس الذات الرساليّة، فالذي يلحظ أحياناً على البعض انهم ليسوا بمستوى الموقف لا لأنّهم لا يعون الصواب من الخطأ في المقام بل لأنّهم لا يقوون على أن يتحمّلوا نقد الجهّال أو لغط المغفّلين أو سوء فهم بعض المؤمنين ممن لا يملكون الوعي العالي لكامل الموقف.
وكلّما كان العامل الاسلامي أكثر مراعاة للشهرة وأحرص على الموقع في اتخاذ الموقف كلّما كان التفاوت أكبر بين بعد المبدأ وبعد الموقف في شخصيّته، أمّا حالة التقارب فإن لم يكن هناك تطابق بين المبدأ والموقف لا تحصل إلّا للذين اندكّت مشاعرهم بوعاء الاسلام ولا يهمّهم إلّا مصلحته.

. . . .

= ومراعاة الناس في ظرفٍ مّا أو في حدث معينّ لا يعني أنّها لا تؤخذ بنظر الاعتبار، فهي قد تشكّل جزءً من الموضوع الذي خصّه الله تعالى بحكم دون غيره لكنّ الذي يُراد من الدعاة هو أن يراعوا مرضاة الناس بمقدار ما يأمر به الشارع المقدّس وجعله جزء الموضوع لا أن تراعى مسألة الشهرة على حساب الموقف الرسالي.

*** السرّية:**

السرّية ليست هدفاً بحدّ ذاتها، ولذلك ينظر لها من خلال خدمتها للأهداف، فالسرّية تراعي بمقدار ما تكون تلك المراعاة ذات مصلحة أو على الأقل لا تضرّ بالعمل أمّا أن تتحوّل السرّية إلى ضرر فلا نجد ما يبررالإلتزام بها، والداعية يعرف وبحكمته كيف يجسّد مفهوم السرّية أثناء مسيرته التكامليّة، لكننا نلحظ أحياناً مفارقات من البعض على شكل ثرثرة تنمّ عن حبّ الشهرة حيث يتيح هؤلاء لأنفسهم أن يتحدّثوا عن امور لا لشيء إلاّ لأنّ لهم دوراً فيها أو يتحدثون عن مواقعهم بطريقة التصريح أو التلميح، معلنين تصرّفهم هذا بأنهم يشهدون عن حسّ ويتكلّمون عن تجربة، نحن لا نريد أن نغفل دور الحديث المقرون بالدليل الحسيّ ولا نبخس التجربة قيمتها في كلام المتحدّث لكننا لا نريد أن يكون ذلك ستاراً يخفي خلفه حالة من حبّ الشهرة أو اتخاذها مقدّمة لاحتلال موقعٍ مّا.

وهكذا نرى أنّ المصابين بهذا المرض «حبّ الشهرة» قد هدموا حاجز السرّية لا لمصلحة العمل بل لأنّ ذلك الحاجز يحول دون شهرتهم وإلقاء الضوء على ما لديهم من مسؤولية، فيما نجد الداعية المتجرّد لا يتحدث عمّا عنده من معلومات إلاّ بحدود ما يملي عليه الواجب، فقد يكون هو بذاته وراء موقف من المواقف الكبيرة ولكنّه لا يحاول إظهار ذلك حفاظا على ذلك العمل.

*** هدف العلاقة:**

هدف العلاقة فيما بين المؤمنين الرساليين وما بينهم وبين الأُمّة هو التغيير ومعنى أن يكون التغيير أساساً في العلاقة هو أنّ الداعية الرسالي في شغل شاغل في أيّ جوّ من الأجواء ومع أيّ من الأشخاص فهو يبذل جهده من أجل تصحيح الأفكار والسلوك والموقف والعلاقات كلّ ذلك يأتي في سياق مهمّته التغييريّة الكبرى وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلاّ أنّ هذه العمليّة لا تتمّ دائماً بدون ثمن وقد يبلغ ذلك الثمن حدّاً باهظاً، وهذا يتطلّب أن يبذل جهداً كبيراً مرّة أو وقتاً طويلاً مرّة أُخرى وقد يبدي قدراً عالياً من التحمّل وسعة الصدر، وقد يتطلّب أن يضحّي

= ببعض عواطفه من أجل أن يعزّز مبادئه في نفوس الآخرين.

الذين يتحركون من موقع حبّ الشهرة يتحركون مع المباديء بالإتجاه الذي لا تكون تلك الحركة على حساب شهرتهم ومتى ما بدى لهم أنّ أمراً ما يتطلّب التنازل عن بعض الشهرة أو يصدّع مكانتهم عند الآخرين فسرعان ما يتراجعون مبدئياً من أجل الحفاظ على منسوب اعجاب الآخرين بهم، وبذلك يجعلون رسالتهم على طبق استمالة الآخرين لذاتهم، ليس المهمّ عندهم أن تكون مبادؤهم كبيرة عندما يتخاطبون بل المهم أن يكونوا هم كبار في نفوسهم، ولعلّ نظرة واقعية لهم وهم يمارسون هذا العمل توضّح لنا الصورة المشوّهة في العمل إذ أنّهم يعمدون في الشقّ الأول من العلاقة على مدح الآخرين وعدم إظهار السخط على بعض تصرّفاتهم السيّئة لا لشيء إلّا لإمرار المقدّمة اللازمة من وجهة نظرهم للشقّ الثاني وهو الحديث عن الذات وأنّهم ماذا عملوا وأنّهم يملكون الخبرات الكثيرة والمواقف القوّية الحافلة بملاحم البطولة والنجاح وما إلى ذلك لذلك تحسّ وأنت ترصد الذين يتعاملون معهم أنّهم يخرجون بنتيجة قد تمتدّ إلى بعض الوقت، إنّ هؤلاء كبار فيما يمتلكون من مواهب وفيما يطرحون من مدّعيات، أمّا ما هي درجة تغيّرهم إسلاميّاً على يد هؤلاء فهذا ما لا تجد له تأثيراً يتناسب مع ذلك الجهد أو تلك القابليّة.

إنّ هذا المرض لا يخلو منه مجتمع رسالي على مستوى الأفراد وعلى طول امتداد التأريخ وهو أمر متوقّع لا يهدد مصير ذلك المجتمع بالخطر، إلّا أنّ الشيء الذي يخشى منه على المجتمع هو أن يتحوّل ذلك المرض الفردي إلى ظاهرة مؤثّرة على مسيرة هذا المجتمع وأخلاقيته الإسلاميّة..

(ثانياً): العلاقة بين حبّ الظهور وبين التنازع على الموقع:

عندما يستولي حبّ الظهور على العامل الإسلامي في نطاق عمله يكون من المتوقّع والحالة هذه أن يستبد هذا الإتجاه باهتمامه ويسيطر على تفكيره ونشاطه، وهذا سوف ينعكس على إخوانه العاملين وفي أيّ من موقع من مواقع العمل فهو يريد لنفسه ولا يريد لهم ويسمح لها ولا يسمح لهم، يتحسس من تحمّل إخوانه لاعباء المسؤولية متصوّراً أنّهم يفكّرون كما يفكّر ويستهدفون ما يستهدف، فهو لا يملك القدرة على أن يتصوّر إخوانه على حقيقتهم من أنّ ما يتحملّونه من مسؤولية هو إفراز طبيعي لحاجة العمل إلى كفائتهم وأنّهم ينظرون إلى المسؤولية على أنّها واجب إسلامي وأنهم يخشونها لأنها تؤدّي بهم إلى الحساب:

﴿وقوفهم إنهم مسؤولون . . . ﴾
من هنا نجد العلاقة بين حبّ الظهور والتنازع على الموقع علاقة الأسباب بنتائجها . .

(ثالثاً) : أسباب الظاهرة وعوامل انتشارها :

١ ـ ضعف العلاقة بالله تبارك وتعالىٰ :

الداعية الذي توطّدت علاقته بالله تعالى لا يستذوق طعماً ألذّ من طعم القربة إليه فهو لا يأنس إلّا باتجاه مرضاته ولا يرجوا أحداً غيره، وبذلك تحسن سريرته وتخلص نيّته ومتى ما وصل إلى هذا المستوى يحظى برضاء الله .

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) :
«وإنّ الله سبحانه يدخل ويصدق النيّة والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنّة» .
كما انّ حسن السريرة يكون بذرة صالحة لحسن الطالع وسبباً لصلاح علانيّته ويقول الحديث الشريف :
«من أصلح سريرته مع الله أصلح الله علانيته» .
لكنّ الفرق كبير جدّاً بين من ينطلق من كسب الشهرة واحتلال الموقع الأعلى في العمل وبين من ينتهي إليه بسبب توثيق الله تبارك وتعالى، كما انّ الفرق كبير أيضاً بين من يبحث عن الضوء ليعرف من يلاحقه الضوء لأنّ الله جلّ شأنه يريد له ذلك .
المؤمنون يخافون الضوء الاعلامي عندما يستمدّ جذره من رغبة النفس لأنّه مسرباً من مسارب الشيطان اللعين وبالتالي لا بدّ أن يثابوا على تطهير قلوبهم منه .

٢ ـ طبيعة جوّ العمل :

مثلما يتحرّك الداعية في جوّ اخوانه الدعاة الى الله يتحرّك وبدرجة أكبر مع أجواء العمل عامّة ويستوحي الرؤى وبناء الشخصيّة من خلالها، وفي حالة وجود ظاهرات غير طبيعيّة في أجواء العمل فانّ البعض من الدعاة يكون عرضة للتأثّر بها والاندماج معها، لذلك يتوجّب تنقية أجواء العمل وتحصين الداعية من قبل إخوانه ضدّ الظواهر غير الطبيعيّة بالإضافة إلى ضرورة مراقبة الداعية لنفسه وتنقيح عمله

. . . .

= واتّجاهه في الحياة.

٣ ـ عدم اندكاك الداعية في اجواء العمل الاسلامي ومفاهيمه:

إن الأجواء التربوية التي توفرّها الرسالة الاسلامية الرصينة ينبغي أن تحدث التغيّر اللازم في بناء الشخصيّة الداعية الى الله وانّ عدم التفاعل والاندكاك بالأجواء الاسلامية يتسبب في بروز ما تحمله الشخصيّة من رواسب الحياة الاجتماعيّة المتأثّرة بالبيئة والنوازع غير المنصهرة في الاتّجاه الإسلامي للشخصيّة. . . لذا فانّ الأفكار والمفاهيم وأساليب العمل التي يحصل عليها الداعية تبقى ضعيفة أمام الرواسب والنوازع البشريّة غير المتغيّرة ومنها نزعة حبّ الظهور والتنازع على المواقع التي يعطيها الناس قيمة في الأجواء غير الإسلاميّة.

إنّ الداعية ينبغي أن يعي مهمّته الرسالية في الحياة ألا وهي الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، ويفهم أنّ العمل الرسالي عمل عبادي، وليس كالعمل (السياسي) في صفوف الأحزاب والمنظّمات غير الإسلامية التي يعلّق الكثيرون منهم وجودهم في صفوف تلك الأحزاب على احتلال المواقع وحمل العناوين.

(رابعاً): النتائج المترتّبة على هذه الظاهرة:

١ ـ إنّ تفشّي هذه الظاهرة يفقد الرساليين مصداقيّتهم الإيمانيّة ويشلّ قدرتهم التغييريّة وسط الأمّة ويعطيها انطباعاً غير مشرق عن العاملين الاسلاميين مما يفقد الأمّة ثقتها بهم ويقتل روح الأمل فيها.

٢ ـ إذا ما قدّر لهذه الظاهرة أن تؤثّر في بنية العمل فانّها لتؤدّي إلى ظهور عناصر غير كفوءة وهدر طاقات مهمة مؤهّلة لتحمل المهام الرسالية، مما يؤثّر على مسيرة العمل تأثيراً سلبيّاً وضارّاً.

٣ ـ إنّ تفشّي مثل هذه الظاهرة من شأنه أن يكون جوّاً في صفوف الدعاة مشبعاً بهذه الروح غير الصحّية، فتؤثّر على الدعاة الآخرين وتترك بصماتها السلبيّة على شخصيّاتهم الايمانية.

٤ ـ إنّ جوّاً يسوده التنازع على المواقع وتشيع فيه روح حبّ الشهرة يؤدّي إلى جملة ظواهر مرضيّة أخرى أهمّها:

إنّه يخلق أرضية مناسبة لزرع بذور الانشقاق ولعلّ من العوامل الأساسية لحالات بروز ظاهرة الانشقاق يقف عامل حبّ الشهرة والتنازع على الموقع في مقدّمة هذه =

= العوامل.
٥ ـ عجز الامة المؤمنة عن أداأ مهامّها الأساسيّة والوصول إلى أهدافها الحقيقيّة وبذلك تفقد ـ لا سمح الله ـ مبررات وجودها في الحالة التي تستحكم فيها هذه الظاهرة غير الصحيّة.

(خامساً): المعالجة الاسلامية في هذا المجال:

إنّ الاجراءات التي تعتبر علاجاً لهذه الظاهرة من جانب، وإجراءً وقائيّاً لها من جانب آخر هي:

١ ـ تعميق العلاقة بالله سبحانه والتربية على نكران الذات.

إنّ النفس الإنسانيّة بطبيعتها تحبّ المدح وتميل إلى الشهرة لكنّ الذي يكبح جماحها هو خشية الله في السرّ والعلن ومداومة الذكر واستذواق طعم القرب منه، فالذي يتفانى في ذات الله لا يحسّ بلذّة أقوى من تلك اللذة ولا يرى موجوداً يقصده أعظم من الحقّ جلّ وعلا، فكلّ عناء يتلاشى بالفناء في حبّه، وكلّ همّ يزول أمام رضاه...

إنّ الشهيد هو المثل الأعلى للفناء في ذات الله ونكران الذات والإبتعاد عن الشهرة وحبّ الظهور...

٢ ـ تنمية الإحساس بسموّ الهدف.

إنّ عمليّة شدّ الداعية إلى هدفه الإسلامي المقدّس من شأنها أن تجعله يتسامى على الكثير من المشاعر والأهداف الشخصيّة توصّلاً إلى ذلك الهدف الرسالي الكبير، فكلما كانت أهدافه الرساليّة كبيرة في نفسه كانت نفسه واهتماماته كبيرة أيضاً وكان انتصاره على النوازع الأنانية أقوى وأشدّ.

٣ ـ المحاسبة والتقويم الموضوعي.

إنّ عدم المحاسبة والتقويم الموضوعي من شأنه أن يفسح المجال أمام نموّ ونشوء الظواهر والحالات غير الصحّية كحبّ الشهرة والإطراء والتسلّق والتنازع والتمحور... إلخ، لذا ينبغي للامة أن تحاسب على مثل هذه الحالات وتحول دون حصول حالات التقويم غير الموضوعي الذي كثيراً ممّا يتسبب في الإنتفاخ والفهم الخاطىء للذات عند البعض.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

المشاركة الوجدانية

والمشاركة الوجدانية هي، أن يكون المؤمنون في حالة من التعاطف، والانسجام الوجداني، وكأنهم مشتركون في وجدان واحد، ومن هنا إذا تألم واحد منهم تألم الآخرون وإذا فرح فرح له الآخرون، وهكذا في الحزن والهم والسرور.. وفي المشاركة الوجدانية لا يفقد الفرد المؤمن شخصيته الفردية ضمن المجموع المركب من المؤمنين وإنّما يوسع من دائرة روحه الاجتماعية.. وارتباطه النفسي بأخوته في الله تعالى..

وقد قرأنا فيما سبق بصدد المشاركة الوجدانية روايتين:

١ ـ عن أبي عبد الله (ع) (إنما المؤمنون بنو أب وأم وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون).

٢ ـ وعنه (ع) (المؤمن أخو المؤمن، كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده، وأرواحهما من روح واحدة. وأن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها)(*)

(*) راجع الروايتين في الأصول في الكافي ج ٢ ص ١٦٥، ١٦٦.

ونضيف الى الروايتين ما يلي:

ـ «فأنهم (اي الناس) إما اخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق...».

نهج البلاغة كتاب ٥٣

ـ «المسلم اخو المسلم هو عينه ومرآته دليله، لا يخونه، ولا يخدعه، ولا يظلمه، ولا يكذبه، ولا يغتابه».

اصول الكافي ج ٢ باب اخوة المؤمنين لبعض

خوف الله ورجاؤه، وتعلق القلب به:

قد تجد الكثير من الناس الذين يتسمون بالايمان، يتلهون عن الله تعالى، ويشدون قلوبهم إلى غيره. يخافون من الأرض، ولا يخافونه، ويرجون الدنيا، وزخارف الحياة، ولا يرجون رزقه أو نعيمه، ولا يستشعرون عندما يذكرون الله تعالى لا خوفاً، ولا رجاء، ولا خشية، ولا خشوعاً، وإنما هي كلمة تجري على اللسان، وفكرة تمر على الخاطر ثم ينزاحا ليحل محلها الثرثرة، وأحلام، وهموم الدنيا، قد تتلمس قلبك أحياناً فلا تجد فيه عند ذكر الله إيماناً، ولا كفراً ولا خوفاً ولا رجاء.

غير أن المؤمن يعرض لنا في كتاب الله تعالى، وكلمات المعصومين من خلفه في صورة أخرى.

١ ـ يعرض لنا قلب المؤمن رقيقاً، حساساً، مرهفاً.. يتأثر، ويتحرك، وينفعل، ويخشى، ويخاف، ويتطلع.. وليس كومة لحم هامدة غليظة قاسية.. (لمتان: (لمّة من الشيطان ولمّة من الملك فلمّة الملك، الرقة، والفهم، ولمّة الشيطان السهو، والقسوة)(*) (يا موسى لا تطول في الدنيا أملك فيقسو قلبك، والقاسي القلب مني بعيد)(**).

﴿ألم يئن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾(١٠).

٢ ـ هذه الرقة في القلب هذه الحساسية.. والانفعال بكل معانيه وأشكاله

(*) أصول الكافي ج ٢ باب القسوة ح ٣.
(**) اصول الكافي ج ٢ باب القسوة ح ١.
(١٠) سورة الحديد /١٦.

مـرتبطة في قلب المؤمن بـالله تعالى وليس بـالمنصب الشخصي، ولا بالمـركز الاجتمـاعي، والمـال.. ولا من القـوم، والعشيـرة، وغيـر ذلـك من المعـاني الدنيوية.. الكثيرة التي تتعلق قلوب الناس بها، فتنفعل بحركتها وتنعكس عليها تقلبات هذه المعـاني، واضرابهـا ولنأخـذ الآن أشكال تعلق قلب المؤمن بـالله تعالى.

١ ـ رجاء الله تعالى في النوائب... عن أبي عبد الله (ع) (إنه قرأ في بعض الكتب أن الله تبارك وتعالى يقول وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كلّ مؤمل من الناس غيري باليأس، ولا كسـونه ثـوب المذلـة عند الناس، ولا نحينه من قربي، ولا بعدنّه من فضلي. أيؤمل غيري في الشدائد، والشـدائد بيـدي؟ ويرجـو غيري، ويقـرع بالفكـر باب غيـري وبيدي مفـاتيـح الأبـواب، وهي مغلقة وبـابي مفتوح لمن دعـاني؟ فمن ذا الذي أملني لنـائبـة فقطعته دونهـا؟ ومن الذي رجـاني لعظيمـة فقطعـت رجـاءه مني؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة، فلم يرضوا بحفظتي وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني، وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي ألم يعلم من طرقته نـائبة من نـوائبي، أنه لا يملك أحـد كشفها غيـري إلا من بعد أذني، فمالي أراه لأهياً عني؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعتـه منه فلم يسألني رده وسال غيـري، أبخيل أنـا فيبخلني عبدي؟ أو ليس الجـود، والكرم لي؟ أو ليس العفو، والرحمة بيدي؟ أو ليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟ فيـا بؤساً من القـانطين من رحمتي ويـا بؤسا لمن عصاني ولم يراقبني)[١١].

عن الصادق (ع) (كان فيما أوصى به لقمان لابنه أن قال: يا بني خف الله خوفاً، لو جئته ببر الثقلين خفت أن يعذبك الله، وأرج الله رجاء، لو جئته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر الله لك).

---

(١١) وسائل الشيعة جهاد النفس باب ١٢ ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

وعنه (ع) (كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد هذا على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا).

وعنه (ع) (ارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته، وخف الله خوفاً لا يئسك من رحمته)[١٢].

إن كلاً من الرجاء، والخوف لو أخذا منفصلين أحدهما عن الآخر، لاثر هذا على سلوك الإنسان المسلم تأثيراً سلبياً ـ كما يبدو ذلك من هذا النص، وغيره، لأن الرجاء، بلا خوف يجرّ إلىٰ المعصية، والخوف بلا رجاء ييئس من رحمة الله تعالى، وسلوك اليائسين سلوك منحرف والإنسان يعمل لأماله العريضة، ورجاؤه بالله تعالى أن يثيبه وينجيه من عذاب اليم.

٢ ـ **خشية الله تعالى**.. والخشية هي الانفعال المأخوذ بعظمة الله تعالى وهيبته.

﴿ألم يئن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾[*].

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[**].

٣ ـ **الإنس بالله تعالى**. والرضاء بقضائه، وعدم الجزع والضيق والسخط من قضاء الله تعالى وقدره.

من آثار تعلق القلب بالله تعالى

من آثار تعلق وربط القلب بالله تعالى في خوفه، وتطلعه وخشوعه، وحركته الوجدانية.. الانقطاع عن معاني الدنيا، والتسامي على قيمها،

(١٢) وسائل الشيعة جهاد النفس باب ١٣.
(*) سورة الحديد، اية ١٦.
(**) سورة فاطر، آية ٢٨.

وأشياءها. . والقلب الذي لم ينشدَّ إلى الله في انفعالاته وحبّه، من الطبيعي أن ينشدَّ إلى معاني الجاه، والمال، ويرجو الناس، ويخافهم، ويكون قلبه كريشة في مهب الريح، تتذبذب، وتتقلب، وتتحرك متأثرة بأبسط التغيرات التي تحدث في عالم المعاني الدنيوية فإذا أصابه الخير كان منوعاً، وإذا أصابه الشر كان جزوعاً همه لا ينقطع، وقلقه لا ينتهي بحال. .

ومن هنا جاء عن أبي عبد الله (ع) (أن القلب إذا صفا ضاقت به الأرض، حتى يسمو)(*) ، و(من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سمت نفسه عن الدنيا)(**) (وإن حب الشرف والذكر لا يكون في قلب الخائف الراهب)(***) وفي الآثار من حديث قدسي (لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس غيري باليأس، ولاكسونه ثوب المذلة عند الناس).

الرضا بقضاء الله وقدره

هذه الحياة بما فيها من أشياء، وحوادث هي محل رضاء الانسان المؤمن، لأن الإنسان إذ يرتبط بعلاقة الحب مع الله تعالى، فإنه يرضى بكل ما يصدر عنه تعالى من مخلوقات وحوادث. . وقد عد الرضا بالقضاء والقدر من أهم صفات الانسان المؤمن وعناصر أيمانه، وأكد عليه في النصوص تأكيداً بالغاً. . وهو بلا شك ذو أهمية عظيمة في الحياة، ويشكل ميزة للانسان المؤمن على الإنسان الكافر أو الإنسان الذي لا يعيش قضية الايمان.

فالأشياء، والحياة، وحوادث الطبيعة كما هي محط خلاف بين الانسان المسلم، والإنسان الجاهلي المادي من الناحية الفكرية والعقائدية. . كذلك هي

(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب ٦١ ح ١٠.
(**) الأصول في الكافي ج ٢ باب ٣٣ ح ٤.
(***) الأصول في الكافي ج ٢ باب ٣٣ ح ٧.

محط خلاف بينهما من الناحية النفسية. كيف نتعامل مع الحياة وحوادث الحياة؟ هل نعيشها برضا، وقناعة وابتسام، وانفتاح، أو نعيشها ضيقاً وضنكا، وجزعا، وسخطا؟.

أن المؤمن يعيش هذه الحياة بالرضا، والقناعة، والابتسام والانفتاح، وتعامل مع حوادث الطبيعة كانسان متعاطف منسجم قانع.. وينطلق المؤمن في ذلك من أمرين يرجعان إلى أن كل ما في هذا الكون من أشياء، وظواهر، وأحداث فهو من صنع الله.

١ ـ علاقة الحب بالله تعالى.. التي تقتضي من الإنسان المسلم الذي يحب الله تعالى أن يرضى بأفعاله، ومخلوقاته، وكل ألوان التدخل منه (سبحانه وتعالى) في هذا العالم الفسيح).

٢ ـ إيمان المسلم بأن كل ما في هذا الكون من أشياء، وكلما يقع فيه من حوادث خاضع للتقدير. هادف للحكمة ويوجد وراءه هدف مرسوم، وغرض، وقصد في صالح الكون والحياة.

عن الصادق (ع):

«أن أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله عز وجل»[*].

وعنه (ع):

«عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلاً كان خيراً له. وإن قرض بالمقاريض كان خيراً ل، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له»[١٣].

وعن أبي جعفر (ع):

«أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عز وجل من عرف الله

(١٣) اصول الكافي ج ٢، ص ٦٢.
(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب ٣١، ج ٢.

عز وجل. ومن رضي بالقضاء أتى عليه القضاء وعظم الله أجره ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء وأحبط الله أجره»(**).

«ثم إن صاحب الرضى أبداً في روح وراحة وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضى وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية، وسر الحكمة الأزلية، فكأن كل ما حصل وفق مراده وهواه. وفائدة الرضا عاجلاً فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم، وآجلاً رضوان الله. والنجاة من غضب الله»(١٤).

وليس من الرضا بالقضاء، والقدر، الرضا بالمنكر، والانحراف، حتى ولو أصر على ذلك المتصوفة والمنحرفون.

لأن الانحراف والمنكر سببه، وفاعله الانسان، ولا يرضى الله به وإنما يرضى المؤمن لرضى الله، ويغضب لغضبه، ومن هنا جاء عن الرضا (ع):

«ومن يرضى شيئاً كمن آتاه. ولو أن رجلاً قتل بالمشرق فرضي بقتله رجل بالمغرب لكان الراضي عند الله عز وجل شريك القاتل»(١٥).

وعن علي (ع):

«العامل بالظلم، والمعين له والراضي به شركاء ثلاثة»(*)

وعلى العكس من ذلك أكدت النصوص على ضرورة الانكار القلبي والسخط على المنكرات، والانحرافات، وأكدت على المؤمن أن يعمق من أنكاره، وسخطه وأن يقاوم الألفة النفسية للمنكرات، بسبب الفتها خارجاً وذلك:

---

(١٤) جامع السعادات ج ٣.
(١٥) وسائل الشيعة أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب ١٣.
(**) الاصول في الكافي ج ٢ بآب ٣، ح ٩.
(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب الظلم ح ١٦.

أولاً: أن الإنكار القلبي للمنكر، والانحراف حصانة من الانجراف إلى المعصية، والتأثر بالبيئة، وحاجز نفسي يمنع المؤمن من الانحراف مع التيار المنحرف.

ثانياً: أن الإنكار القلبي للمنكر هو الأساس النفسي أو أحد الأسس النفسية، للاندفاع نحو التغير، والحركة في سبيل التغيير الرسالي.

ثالثاً: أن إنكار المنكر قلبياً ينتهي إلى بعض المعاملات السلبية مع العاصين، والمنحرفين، وقد أمر الرسول (ص) كما في الرواية عن الإمام علي (ع) أن يواجه العاصين بوجوه مكفهرة ومن هنا اعتبر الإنكار القلبي من مراتب الإنكار في كتب الفقهاء.

«الزهـــــد»:

يتقوم الزهد الإسلامي بتحرير الوجدان من حبّ الدنيا، والانعتاق الداخلي من قيود الشهوة، والأهواء.

ولحب الدنيا آثار سلبية خطيرة في سلوك الإنسان، وحياته النفسية، ذكرتها النصوص الإسلامية وحذرت منها[١٦].

---

(١٦) من المناسب هنا أن نشير أولاً إلى موقف الاسلام من الحياة الدنيا. . فإن للاسلام ثلاثة مواقف من الدنيا موقف نظري، وموقف تشريعي، وموقف أخلاقي، ويتمثل الموقف النظري في اعتبار الحياة الدنيا مرحلة من مراحل الحياة وليست كل الحياة (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) وفي كونها داراً للفتنة والمسؤولية يؤكد فيها الانسان ذاته واختباره بين الخير والشر (الذي خلق لكم الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) وفي معانيها من مال، وبنين، ونساء. . نعماً إلهية تستحق الشكر والحمد والانفتاح النفسي، وفي كون العامل الدنيوي عاملاً رئيسياً محركاً في التاريخ. . الخ.
وأما الموقف التشريعي فيتمثل في السماح ويحث على استغلال الخيرات والنعم الإلهية انطلاقاً من مفهوم الخلافة عن الله وفي تنظيم عملية استغلال النعمة بالشكل الذي ينسجم مع مصالح الانسان العامة ودور الانسان كعابدٍ لله تعالى.

نذكرها فيما يلي ثم نرجع إلى الزهد ومفهومه الإسلامي الأصيل.

١ ـ المخالفة . .

فأول هذه الآثار السلبية، مخالفة الشريعة . . وكلّ حبّ وكلّ عاطفة، يتجه اتجاهاً عملياً، ويتطلب مواقف خاصة. ولا يهم الحب هذا، والعاطفة هذه، ما إذا كانت هذه المواقف تتوافق مع الشرع، أو العرف أو عاطفة أخرى، أو لا تتوافق معها. . فأنت إذ تحب الجاه والمركز ـ والعياذ بالله ـ فمن الطبيعي أن تسعى لها وقد يتوقف حصولك على المركز الاجتماعي على فعل محرم، كالرواية على أخ مؤمن، من أجل شينه، والحط من قيمته أمام الناس، فترتكب هذا المحرم في لحظة ضعف أو غفلة أو تمرد، فيقطع الله سبحانه ولايته منك، ويخرجك منها إلى ولاية الشيطان، ولا يقبل الشيطان ولايتك. . والانسان مثلاً إذ يحب الدنيا، حياتها وأمنها، وراحتها، ويرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، ويطمئن إليها فمن المعقول جداً أن يرفض الجهاد في سبيل الله، ويتنكر لطريق ذات الشوكة، لأنه طريق عناء وتضحيات.

﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم

= ويتمثل الموقف الأخلاقي في، محاولة الاسلام تحرير الانسان المسلم من الأهواء والشهوات وحب الدنيا.

وبتقرير آخر لموقف الاسلام من الدنيا: إن للدنيا معاني ثلاثة وللاسلام من كل معنى وموقف.

أ ـ الدنيا بمعنى الحياة للانسان على وجه الأرض وينظر الاسلام إليها على أنها مرحلة من مراحل الحياة. . ومخلوقة من أجل الفتنة وتأكيد فعالية الانسان في الأرض ونعمة من نعم الله.

ب ـ الدنيا بمعنى الأشياء التي تقع محطاً لأغراض الناس كالمال والبنين والنساء والقناطير المقنطرة وكذلك الأوضاع كالامن، والراحة، وما شاكل ذلك وهذه معان يؤمنها التشريع الاسلامي للانسان ويشجعه على تناولها والسعي لها، وإن كان يقوم بعملية تنظيم تشريعية من أجل تحديد هذا السعي وتنظيمه.

ج ـ الدنيا بمعنى الأهواء الباطلة ولكل هوى غير رسالي وهذه الدنيا التي تحاول (الأخلاق) الاسلامية تطهير وجدان المسلم وتأمره بالاعراض عنها.

إلى الأرض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة.إلا قليل﴾(*).

ومن هنا وبسبب أن المخالفة هي النتيجة الطبيعية ـ لحب الدنيا ـ يقول الإمام (ع) كما في الرواية:

«حب الدنيا رأس كل خطيئة»(**).

«ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاؤها، أحدهما في أولها، والآخر في آخرها، بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم»[17].

٢ ـ هم لا ينقطع..

وحب الدنيا ينتهي إلى انشغال نفسي، وعملي يتنافى مع ما يتطلبه وضع الإنسان المؤمن من تكريس كل طاقاته النفسية، وجهوده في عبادة الله تعالى، وتعبيد الناس له، وما يكون عليه من تعال وتسام في الوضع، والسلوك.

عندما تحب الدنيا، والمال، والجاه وغيرهما تكون بذلك قد ربطت قلبك بشيء متغير، كثير التغير والتبدل مما يؤدي إلى أن تضطرب حالاتك النفسية وتتغير من فرح غامر إلى حزن كئيب، ومن حب إلى كره، ومن غضب إلى رضاء، وقلق وهم فان.

«من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال»[18]

«من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات على الدنيا، ومن اتبع بصره

(*) سورة التوبة، آية: ٣٨.
(**) الأصول في الكافي ج ٢ باب ١٢٦ ح ٨.
(١٧) وسائل الشيعة جهاد النفس باب ٦٥ ص ٣١٩.
(١٨) أصول الكافي ج ٢ ص ٣٢٠.

ما في أيدي الناس كثر همه، ولم يشف غيظه، ومَن لم ير الله عز وجل على نعمه الا في مطعم أو مشرب وملبس فقد قصر عمله ودنا عذابه»[١٩].

٣ ـ حب الدنيا وحلاوة الايمان:

عن جعفر بن غياث عن أبي عبد الله (ع) قال: سمعته يقول:

«جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا»

ثم قال: قال: رسول الله (ص):

«لا يجد الرجل حلاوة الايمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا»

ثم قال أبو عبد الله (ع):

«حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الايمان، حتى تزهد في الدنيا»[*]

وعن عبد الله بن القاسم عن أبي عبد الله (ع):

«ألا من صبّار كريم فإنما هي أيام قلائل، ألا أنه حرام على قلوبكم أن تجد طعم الايمان حتى تزهد في الدنيا».

وسمعت أبا عبد الله (ع) يقول:

«إذا تخلىٰ المؤمن من الدنيا سما، ووجد حلاوة حب الله ، فلم يشتغل بغيره».

قال وسمعته يقول:

«إن القلب إذا صفا ضاقت به الأرض حتى يسمو»[٢٠]

إن التحلية لا تكون إلا بالتخلية ـ كما يقولون ـ وحب الله ، ومعايشة هموم

(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب ذم الدنيا ح ٢ .
(١٩) أصول الكافي ج ٢ ص ٢١٥ .
(٢٠) وسائل الشيعة جهاد النفس باب ٦٢ ص ٣١٣ .

الرسالة، والتفاعل النفسي، والشعوري مع حقائق الكون والمبدأ، والدعوة، إنما يكون عن طريق إضعاف ، أو إلغاء حب الدنيا في قلب المؤمن الرسالي وقطع القلب عما في أيدي الناس. .

﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما أتاكم﴾[٢١]

إن المؤمن نوع جديد، ودم جديد، وصياغة جديدة للإنسان، ليس لها سابقة في حضارة المال، وحضارة الدنيا، ليس فقط في مفاهيمه، وبصائره، ورؤاه الفكرية وإنما أيضاً ـ وابتداء ـ في أحاسيسه، وعواطفه، وتعلقاته القلبية، وهمومه، وانفعالاته. . وبينما لا يتحرك قلب ابن حضارة الدنيا، والمال لسوى بريق الذهب، والتمركز في دنيا الناس، فإن قلب المؤمن يصفو فتضيق به الدنيا حتى يسمو ويذوق طعم الإيمان، ولا يتناغم مع غير معاني القدس والطهر، ولا يرق لسوى خوف الله ورجائه والتطلع إليه.

٤ ـ الدنيا والحكمة. .

من الممكن أن يكون الإنسان عالماً بالدين، ومحباً للدنيا، وراكضاً وراءها في ذات الوقت، ولكنك لن تجد حكيماً واحداً من أهل البصائر في دين الله وهو يحب الدنيا ويسعى لها أكثر من سعيها لأن حب الدنيا غطاء القلب، وحجاب عليها يمنع من الحكمة والتبصر. . وروح دين الله وقيم هذا الدين لا يعطيها ولا يتحملها إلا مؤمن امتحن الله قلبه للايمان، وطهره من حب الدنيا.

«من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا، داءها، دواءها وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السلام»[*]

والشهوة، والهوى، حجاب عن إدراك لطائف الحقائق الدينية، وقيم الإسلام الأخلاقية، ولكم أدى الركون إلى الدنيا، والاطمئنان إليها إلى تحريف آيات الله المباركات في الكدح والجهاد؟ ولكم أدى الركون إلى الدعة والراحة،

---

(٢١) سورة الحديد/٢٣.

(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب ذم الدنيا ح ١.

وحب الثرثرة، والألفاظ البراقة إلى الأعراض عن نصوص العبادة، وآيات التربية، والاعداد الروحي، بل وتحريفها لكي تكرس حياة الانقطاع عن الله بدل أن تكون أداة للانقطاع إليه؟

عن أبي عبد الله (ع):

«تجد الرجل لا يخطىء بلام، ولا واو خطيباً مصقعاً، ولقلبه أشد ظلمة من الليل المظلم وتجد الرجل لا يستطيع أن يعبر عما في قلبه بلسانه، وقلبه يزهر كما يزهر المصباح»(**)

وعن أبي جعفر (ع):

«القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعي شيئاً من الخير، وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء، فالخير، والشر فيه يعتلجان، فأيهما كانت منه غلب عليه. وقلب مفتوح، فيه مصابيح تزهر، ولا يطفأ نوره إلى يوم القيامة وهو قلب المؤمن»(٢٢)

٥ ـ الدنيا تفرق، ولا تجمع

الدنيا: هوى الذات، ولكل شخص هواه، فإذا وجدت عشرة من أهل الدنيا فاعلم أن هناك عشر غايات مختلفة متناقضة كل واحد من هؤلاء يريد مثلاً المركز والجاه أي يهدف إلى أن يكون الشيخ المبجل والحاكم المطلق دون سواه لأن مشيخته لا تتم إلا بعبودية الآخرين. أما المؤمنون فهواهم الله والانسجام مع دين الله تعالى.. والله سبحانه وتعالى واحد، وطاعته واحدة، وهذا هو السبب في أن سرعة ائتلاف الأبرار إذا التقوا، وإن لم يظهروا التودد بألسنتهم كسرعة اختلاط ماء السماء بماء الأنهار وأن بعد؛ وائتلاف قلوب الفجار إذا التقوا، وإن أظهروا التودد بألسنتهم كبعد البهائم عن التعاطف، وإن طال اعتلافها على مذود

(**) الأصول في الكافي ج ٢ باب ذم الدنيا ١٨٥ ح ١.

(٢٢) أصول الكافي ج ٢ ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

واحد[23]

الزهد تحرر وانعتاق:

لا يستنكر الخلق الإسلامي امتلاك المؤمن الدنيا من مال ، وجاه، وبنين، ولكنه يستنكر امتلاك الدنيا ومعانيها للمؤمن وأن تكون معبودة له من دون الله ، أو مع الله . الشهوات العاجلة كالشره في الأكل، والجنس، والمال، والرفاه، والزينة، والأمن، والاستقرار، والاطمئنان إلى الدنيا. . والراحة والجاه. . هذه كلها معاني الدنيا واشياؤها التي يزهد المؤمن ويبتغي أن يزهد فيها. . لأن المؤمن ذو أفق واسع، ومنظار عريض، يضع الأشياء موضعها، ولا يعطيها سوى قيمها الحقيقية، وأنت عندما تنظر المال، والجاه. . في المنظار الاسلامي للحياة والآخرة والله . . فلن تر لهما ـ أخلاقياً ـ سوى رقم ضئيل ليس له في الحساب شيء وليس له في القلب مكان.

فالزهد ـ عندما يدعو له الإسلام، ويربي الإنسان المسلم عليه ـ مسألة طبيعية لا تزيد على معايشة النصوص الإسلامية للحياة، والتفاعل النفسي بـ حقائق الوجود، يتحول من خلاله الإنسان المسلم من إنسان يرتبط بهذه المعاني الزائلة، ويصنمها، ويعبدها في القلب، والوجدان إلى إنسان يتعالى عليها، ويتسامى عنها، ولا يعطيها سوى قيمها الحقيقية التي تستحقها. . وقلب المؤمن كلما نما حبه لله تعالى ولدينه وللمؤمنين، وازدادت همومه الرسالية، وتوجهاته النفسية للعمل والجهاد كلما ضعف حب الدنيا في قلبه، وزهد في معانيها الزائلة: مالاً، وجاهاً، وزخرفاً، وشهوات. .

فالزهد إذن هو التحرر الداخلي من قيد الشهوة والهوى، والانعتاق النفسي الحقيقي من الدنيا، ومعانيها وهو بذلك سبب، ونتيجة في آن واحد للانقطاع

---

(٢٣) تحف العقول ص ٢٧٥ .

إلى الله تعالى، والارتباط بالسماء. . أو بالأحرى العبودية الكاملة لله في المشاعر والعواطف والسلوك.

لقد طبَّلوا للحرية الغربية، والحرية في المجتمعات الديمقراطية، حرية في مجال السياسة، وحرية وفي مجال السلوك الشخصي، وحرية في الاقتصاد، وحرية في المجالات كافة. ولكن الإنسان المؤمن وحده هو الذي، يعرف أن الحرية الحقيقية ليست في هذا، ولا في ذاك، ولكنها في الزهد والتحرر الذاتي وإن الحرية تجاوز القيود التي تكبل الإرادة الانسانية وتمنع الإنسان من الإبداع، والفعالية في مجال النمو والتكامل وتحقيق إنسانيته، وعبوديته لله. وهذه القيود هي القيود الخارجية الطبيعية والاجتماعية ولكنها (قبل ذلك هي) القيود الذاتية. . قيود التخلف العقلي. وضيق الأفق، ومادية الاحساس، وقيود العاطفة المكبلة بالمال، والطين، والجاه، والشهرة والجنس، والقناطير المقنطرة.

وليس الزهد في المفهوم الإسلامي الواعي سوى التحرر الذاتي من هذه القيود، وتحويل هذه المعاني التي يركض وراءها الناس ويطمئنون إليها، إلى معان زهيدة تافهة إلى جنب الله، ومعاني الخير، والقيم الإسلامية الرائدة.

وهذا التحرر الذاتي المتمثل بالزهد ـ على خلاف من حب الدنيا والركون اليها ـ هو وحده الذي يمكن الإنسان المؤمن من تذوق حلاوة الإيمان والأنس بالله والتعالى على صغائر الحياة.

«حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الايمان حتى تزهد في الدنيا»(*).

وهو وحده ـ أو مع التقوى ـ الذي يمكن الإنسان المسلم أن يدرك الحق ويتحسس روح هذا الدين وقيم هذه الرسالة (إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة) وقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من

(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب ٦١ ح ٢.

رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾[٢٤].

هذا ولكننا لسنا مع الانحراف الصوفي الـذي يعتبر طـريقة العلم بـالله، والمعارف الدينية هو، طـريق الريـاضة والـزهد. . والمـراحل العمليـة الأخرى للصـوفي، والعارف. فقد أنزل الله تعالى كتابه بصائر وهدى للناس، وبعث نبيه ورسـوله يتلو عليهم آيـاته، ويعلمهم الكتـاب، والحكمة ويـزكيهم. . وطـريق المعرفة هو هذا الطريق، إن تتعرف على أفكار الإسلام ، وتشريعاته من خلال المقـاييس التي وضعها الإسـلام، والبيانـات التي جعلها للنـاس. . ولكن علم الإنسان المسلم أن يعد نفسه من أجل أن يكـون (متلقياً) من الله متفـاعلاً مـع النص منفتحاً عليه مطهراً من الحجب والغشاوات التي يصرف الله بها كثيراً من الناس عن آياته.

وبالزهد في الدنيا. . يطمئن الانسان المسلم، ويخرج عن قـانون الهلع والجزع:

﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسـه الشر جـزوعاً وإذا مسـه الخير منوعا إلا المصلين﴾(*)

ويخرج عن دائرة الاضطراب النفسي.

﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما أتاكم﴾(**).

وبالزهد في الدنيا. . في الجاه والمركز والتحكمات والظهـور بين الناس يجتمع شمل المؤمنين، ويتماسك صفهم ويتوحدون في كدحهم إلى الله تعالى.

---

(٢٤) سورة الحديد/٢٨.

(*) سورة المعارج الآيات ١٩ ـ ٢٢.

(**) سورة الحديد، الآية ٢٣.

الزهد معنى نفسي:

من خلال ما مر نعرف أن الزهد معنى نفسي، يرجع إلى طبيعة القيم النفسية، والميول الذاتية، والعاطفية للانسان وهو وإن كان له آثار عملية غير أنه ليس معنى سلوكياً.

فليس الزهد إذاً بتضييع المال، وتحريم الحلال، وتطليق الحياة، والتظاهر بالفقر مع مجموعة هائلة من الأوساخ والقذارات..

وتشهد على هذه النصوص التالية:

«ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال، ولا تحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله عز وجل»(٢٥).

في حديث معتبر: «أن رجلاً قال لأبي عبد الله (ع):

«والله أنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي، وعيالي، وأصل بها، وأتصدق منها، وأحج وأعتمر. فقال أبو عبد الله (ع): ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة»(٢٦).

وعن علي بن الحسين (ع): (ألا وأن الزهد في آية من كتاب الله عز وجل).

﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما أتاكم﴾(٢٧).

وغير ذلك من النصوص الدالة على كون الزهد المطلوب هو معنى نفسي ووجداني..

---

(٢٥) وسائل الشيعة مقدمات التجارة باب ٨.

(٢٦) وسائل الشيعة مقدمات التجارة باب ٧.

(٢٧) أصول الكافي ج ٢ ص ١٣٨.

ولكن يجب علينا هنا أن نستدرك، ونتذكر بأن هذا المعنى النفسي الأخلاقي ـ ككل المعاني النفسية ـ له صلة وثيقة بالسلوك، والمواقف الخارجية، فالزاهد المسلم يختلف من الناحية السلوكية عن غيره.. فهو لا يلح في الطلب ـ طلب المال ـ ولا يكثر من تناول الملذات.. ولا يركض، ولا يسعى للجاه، والمركز.. لأن همومه الرسالية تستوعب كيانه النفسي والسلوكي.. ومن هنا جاء في الرواية عن أبي عبد الله (ع):

«ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن إليها ولكن أنزل بفسك من ذلك بمنزلة المنصف (النصف خ ل) المتعفف، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف وتكسب ما لا بد للمؤمن منه. إن الذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم»[٢٨].

إن وقت المؤمن، وهمومه، ودوره الذي ينتظره في الحياة الإسلامية لا يتسع للطلب الزائد، والملاذ الكثيرة، والمساعي الشخصية إلا بالقدر الذي يهيء له ضرورة العيش، وضرورة الحياة، وكل ما عدا ذلك فهي أحابيل الشيطان، وشباكه التي يصطاد بها الكثير من المؤمنين ويخرجهم بها من دائرة العمل في سبيل الله والجهاد للرسالة إلى دائرة الحياة الشخصية التافهة الصغيرة.

الزهد تحرر، والصبر ارادة:

الزهد ـ كما عرفنا ـ قطع علاقة القلب بالدنيا.. وربطه بالله..

«لا يصدق إيمان عبد حتىٰ يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده»[*].

ويختلف الصبر عن الزهد في أن الصبر يتمثل في ضبط النفس، ومخالفة

---

(٢٨) وسائل الشيعة مقدمات التجارة باب ١٣.

(*) نهج البلاغة، فصار الحكم ٣١٠.

الهوى، فهو إرادة حازمة أمام القيم الذاتيـة، وشهوات النفس. وأهـوائها، أمـا الزهد فهو إلغاء الأهواء وقطع القلب من كل ما عدا الله وهو بذلك أعلى منزلة من الصبر وإن كان مرحلة في الطريق إليه.

عن أمير المؤمنين (ع):

«النـاس ثلاثـة: زاهد، وصـابر، وراغب، فـأما الـزاهد: فقـد خـرجت الأحزان، والأفراح من قلبه فلا يفرح بشيء من الدنيا ولا يأسى على شيء منها فاته. فهو مستريح. وأما الصابر: فإنه يتمناهـا بقلبه فـإذا نال منهـا الجم نفسه عنها بسوء عاقبتها، وشنآنها، ولو اطلعت على قلبـه لعجبت من عفته، وتواضعه، وحزمـه، وأما الـراغب: فلا يبـالي من أين جاءتـه الدنيا من حلال أو حرام ولا يبالي ما دنس فيها عرضـه، وأهلك نفسه، واذهب مروءته فهم في غمرة يعمهون، ويضطربون».

طمأنينة الوجدان الاسلامي:

وجـدان الإنسان الجـاهلي في اضطراب دائم. وقلق مستمـر، وانفعـال قتال، ذلك أن وجدانه يرتبط بالدنيا ومفاهيمها، والدنيا، ومعـانيها في تغيـر من حـال إلى حال لا استقـرار فيها، ولا ركـون.. وهذا الاضـطراب، والحركـة، والتغير الذي يقع في الأوضاع الدنيوية للانسان ينعكس على وجدانـه فيمزقـه، ويتركه في لجة من الاضطرابـات والانفعالات السـريعة القـوية.. أمـا الإنسان المؤمن فقلبه مطمئن، ووجدانه هادىء.

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾(*).

﴿يـا أيتها النفس المـطمئنة، ارجعي إلى ربـك راضية مـرضيـة.

(*) سورة الرعد، آية ٢٨.

فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾[٢٩]

وهذه إحدى سمات الوجدان الايماني.. الطمأنينة بذكر الله.. وتنعكس على سلوكه، وتعامله مع الناس، ومشيه على الأرض بين الناس.

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[٣٠]

وتنبع عن قطع القلب بالمعنى المتغير المتذبذب، والرائح الجائي الذي ينعكس اضطرابه، وتذبذبه على كل قلب تعلق به، وانشد إليه من جاه، وبنين، ومال، ورفاه.. وغير ذلك من دنيا الناس، وهمومهم.

أن أولى محاولات الاسلام التربوية، وقد تكون من أهمها على الاطلاق، هي بناء شخصية الانسان المسلم على أن تكون (مستقلة) عن الأحداث مستعلية على صغار الدنيا، ومتجاوزة لمعانيها، وبالتالي قطع (الصلة التأثيرية) للمؤمن بحركة معاني الحياة وتذبذبها.. واستبدال ذلك بشدها إلى الله، وإيجاد نحو من الصلة الجديدة بالأحداث، وهي صلة التأثير، والقيادة، والتغير، وقد يعتبر الإنسان المؤمن من حركة الأحداث، والاضطراب أمور الحياة، ويعرج من خلال ذلك إلى الله.. المطلق المتعال.. ولكنه ـ في صياغة الإسلام ـ أسمى من أن تمزقه هموم الحياة، أو تكون قائدة له عاملة فيه..

من الممكن أن نختصر الأمور.. أو الانفعالات التي تأكل قلوب الناس، وتمزق وحدتهم الشخصية ـ وتفقدهم الارادة، والتماسك في ثلاثة:

١ ـ الخوف والقلق.

٢ ـ الجزع والضيق.

---

(٢٩) سورة الفجر ٢٧ ـ ٣٠.
(٣٠) الفرقان/٦٣.

٣ ـ الغضب، والأحقاد الشخصية.

١ ـ قلق الإنسان، وخوفه على ماله من الضياع، وتجارته من الخسران، والكساد، وخوفه، وقلقه على أوضاعه الهادئة من أن تصاب بأذى ومتاعب، وقلقه، وخوفه على حياته من أن تتعرض للمخاطر. . ومركزه، وجاهه أن يصاب بسوء هذه وغيرها هي المخاوف التي اعتادها الناس، ووعي المؤمن للحياة بصورة أخرى غير الصورة المادية، واتجاهه النفسي المتمثل بالزهد بالمعاني الدنيوية. . هما الأمران الكفيلان في مواجهة عقد المخاوف، والقلق. إن زهد المؤمن بالمال وزهده بالراحة، والرخاء، والأمن إذا ما قيسا إلى الراحة الأبدية والرخاء الأبدي، وزهده بالحياة الدنيا بالقياس إلى الحياة الأبدية، السعادة الدائمة، أن هذا الزهد لكفيل بالحد من درجة المخاوف، أو إزالته من صفحة النفس نهائياً، لأن الخوف، والقلق لا يكون إلا بالنسبة ألى المعاني التي تملك النفس وتملأ الوجدان، والزهد في منطق الإسلام هو التحرر الوجداني من هذه الأشياء، والمعاني.

وإذا كانت قمة مخاوف الناس، وقلقهم، وخوفهم على أنفسهم من المكاره، والأذى، وخوفهم على حياتهم من الخطر، والهلاك، فإن المؤمن المشبع بروح الرسالة. . المربى على هدي كتاب الله يأنس بالموت في سبيل الله كما يأنس الطفل بثدي أمه.

﴿وذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب، ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح أن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[٣١].

وإذا كان الناس يفرون من الموت فإن المؤمن بدلاً عن ذلك يستعد له، وينتظره بفارغ الصبر ويتطلع إلى اليوم الذي يستشهد فيه في سبيل الله ولو على يد أشرِّ خلق الله، وذلك لأن المؤمن الرسالي لا ينظر إلى الموت في سبيل الله

---

(٣١) سورة التوبة/ ١٢٠.

على أنه إعدام الحياة.. بل على أنه بداية الحياة الحقيقية التي يجهلها الناس، ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾(٣٢)

٢ ـ ومن مظاهر اضطراب الشخصية الانسانية الجزع والضيق عند المصيبة، والفشل.

﴿إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعا، الا المصلين﴾(٣٣).

وللشر الدنيوي أشكال كثيرة خسارة في مال، فقدان ولد، أو حبيب.. سقوط الهيبة، والمكانة في أعين الناس، فشل مشروع عملي.. الخ.. والاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هم المصلون المؤمنون الذين يعيشون في صلاتهم مع ربهم أحاسيس وتوجهات، والواقع أن مصائب الناس هذه ليست مصائب عند المؤمن حتى يجزع عليها، أو تضيق نفسه بها.. ولو صدقت عليها إنها مصائب بالنسبة له، فإنما تقع عليه، وهو يعاملها ضمن تصور شامل للوجود، والحياة، ومفاهيم واقعية يتعزى بها المؤمن، ويستلهم منها الثبات ويستمد منها الطاقة.

المؤمن أساساً.. لا يصل انفعاله عند المصيبة الشخصية إلى حد الضيق فضلاً عن الجزع.. لأن مستوى (الزهد) الذي عنده، ودرجة ارتباط قلبه بالله تعالى يخففان من درجة الاصابة)، والتأثر بالحدث، ولا يمنع هذا من أن تدمع عينه على فلذة كبده مثلاً، وهو يموت بين يديه، ويحزن قلبه حزناً ضعيفاً هادئاً.. ولكن لا يتضايق، ولا يقول ما لا يرضي الرب، ولا يستقل منه شيء.

---

(٣٢) سورة البقرة/١٥٤.
(٣٣) المعارج ١٩ ـ ٢١.

إن المؤمن يحافظ على درجة كبيرة من الانفتاح النفسي على الحياة، والابتسام لها مهما تداكَّت عليه المصائب ونزلت به النوائب الشخصية وحلت به الخطوب، والانتكاسات.. والذين يبكون من كل شيء، ويضيقون من كل حدث ويسودون وجه الحياة البسام، فإنهم يعوزهم الكثير من معاني الايمان ودرجات التعالي الروحي، والزهد الواعي الأصيل..

٣ ـ والغضب، والأحقاد الشخصية.. هي الأخرى مما يأكل في قلوب الناس، ويمزق تماسكهم الشخصي.. الغضب للذات عندما تهان، أو تتعرض لبعض الألوان البسيطة أو الشديدة من الاعتداءات، والأخطاء في حقها.

والحقد على الانسان الذي يرتكب بعض الأعمال المشينة عن غفلة أو تعمد.. أو على الإنسان الذي يهبه الله بعض القابليات، والقدرات التي يتقدم بها علينا، ويبرزها في مراكزنا.. هذا جزء اخر.. ووجه آخر لاضطراب الوجدان البشري.. ولكن الوجدان الذي لم يرب في ظل هداية الله تعالى.. فإن الغضب حسب ما توحي به هذه الهداية يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل.

«إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم وأن أحدكم إذ غضب احمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه»(٣٤)

إن هذا الغضب من الشيطان لأنه ينبع من قيم شخصية ذاتية ومن (أنا) فاسد لا نضج فيه، وأن الغضب يفسد الإيمان.. لأن الغاضب في غضبه يخرج عن حدود المنطق الديني، والمنطق الأخلاقي.

وكذلك الحال في الحقد، والعداوة الشخصية.. التي تصدر من وجهة نفسية عن قيم أنانية، وخبث في الذات والمؤمن لا يكون مؤمناً، وهو حاقد على

---

(٣٤) أصول الكافي ج ٢ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

أخيه، أو كاره له حتى يرجع إلى حبه فـإن المؤمن يأنس إلى أخيـه المؤمن كما يأنس الظمـآن إلى الماء.. أو كمـا يأنس الـطير إلى وكـره وأين هذا من حقـد متأصل، وعداوة متمكنة من القلب مفسدة له، أن المؤمن ليتسامى فلا يرد على الإساءة.. بل وهو في أكثر الأحيان لا ينظر إليها على أنها إساءة، أو يحسب لها في نفسه أي حساب.. في خبر معتبر عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ﷺ) في خطبته:

«ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟ العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك والاحسان إلى من أساء إليك، واعطاء من حرمك»(*)

وإن المؤمن ذو قلب رحيم، عطوف حنون يسامح ويكظم الغيظ، ويعفو عن الناس وإن أساءوا، ويصلهم وإن قطعوا، ويحترمهم وإن أهانـوا، والمؤمن أسمى من أن يصدر عن غيض، وينطلق عن غضب، أو حقد وكيف يعرف قلبه الأحقاد وقد تمكنت فيه هداية الله وحب المؤمنين؟

العلاقة الوجدانية بالرسالة ونجاح الدعوة:

المؤمن في الأساس ينطلق في عمله الرسالي الـدعوتي، لأن الله تعـالى يطلب منه ذلك، ولأنه يثيبه عليه.. ولكن الانسان المسلم لا يتعامـل مع عمله على أساس أنه (مسؤولية) يريد التنصل منها، وإبراء ذمتـه، وعهدتـه من عبء الأمـر، والطلب الإلهي.. بـل، ولا يتعـامـل معـه على أنـه (طـريق للثـواب) الأخروي.. فقط.. وإنما تنشأ عنده قبل العمل لله، وأثناءه علاقـات وجدانيـة تتمثل في حب هداية الناس، والتطلع إلى تغييرهم، وإصلاح دينهم، وآخرتهم، وينشط لديه الحس الأخلاقي فيهمه أمر الناس، والاحسان إليهم وطاعتهم لله.. ففي الرواية عن عمار السابطي قال قلت لأبي عبد الله (ع): (أيما أفضل العبادة في السر مع الإمام منكم المستتر في دولة الباطل، أو العبادة في ظهور الحق،

(*) الكافي في الأصول ج ٢ ص ١٠٧.

ودولته، مع الإمام منكم الظاهر؟ فقال: يا عمار الصدقة في السر والله أفضل من الصدقة في العلانية وكذلك والله عبادتكم في السر مع إمامكم المستتر في دولة الباطل وتخوفكم من عدوكم في دولة الباطل، وحال الهدنة أفضل ممن يعبد الله عز وجل ذكره في ظهور دولة الحق مع إمام حق ظاهر في دولة الحق. .

ثم قال عمار: قلت: جعلت فداك فما ترى إذاً أن نكون من أصحاب القائم، ويظهر الحق، ونحن اليوم في إمامتك وطاعتك أفضل أعمال من أصحاب دولة الحق والعدل؟

فقال (ع):

«سبحان الله أما تحبون أن يظهر الله تبارك وتعالى الحق، والعدل في البلاد، ويجمع الله الكلمة ويؤلف الله بين قلوب مختلفة، ولا يعصون الله عز وجل في أرضه وتقام حدوده في خلقه، ويرد الله الحق إلى أهله فيظهر حتى لا يستخفي بشيء، من الحق مخافة أحد من الخلق»[٣٥]

وهكذا لا يريد الامام أن يجعل من قضية تطبيق حدود الله أو إقامة دعائم، ومعالم رسالته في الأرض مجرد قضية مسؤولية باردة. . يتهرب عنها الانسان في أي لحظة، ويتوهم فيها أن هناك عملاً آخر أكثر ثواباً، واجراً. . ويتعامل معها تعاملاً فردياً جافاً، وإنما هي قضية رسالة ربانية. . وارادة الله تعالى في الأرض يكتِّل لها الامام، والاسلام القيم الدينية النفسية المتعلقة بالثواب، والقيم العاطفية الراجعة إلى حب الله، وحب رسالته، والغضب لمحارمه، إذا انتهكت، والقيم الانسانية الأخلاقية المتعلقة بالعدل، والاحسان، والتأليف بين القلوب، وأمثالها من المعاني، والتي لا يريد الإسلام أن يميتها، ويذيبها في الحس الديني بمعناه الضيق المحدود، وإنما يشركها في عملية البناء والتربية.

ونتيجة للتعامل العاطفي مع قضية الدعوة. . والعلائق الوجدانية بها، فمن المعقول أن يألم المؤمن في اللحظات التي ينحرف فيها الناس، ولا تحقق

---

(٣٥) أصول الكافي ج ١ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

الدعوة نجاحاً حسياً ملموساً، ويحس بحزن هادىء رزين، وتصيبه حالات من التحسر على الناس وشيء من الأسى المخفف ومن الطبيعي أن يسر، ويفرح عندما يتحقق نحو من التقدم للدعوة والعمل عند الناس.. وليس في هذا ما ينقص من دينه وارتباطه بالناس.. وهذه سيرة الرسول (ص) والأئمة (ع) حاشدة بالأمثلة على هذه الأواصر القلبية، والتعلق الوجداني (العاطفي، والانفعالي) بينهم وبين الدعوة ومع الناس.. وأسبق الأمثلة إلى الأذهان.. ما يبدو من خلال القرآن الكريم من أن رسول الله (ص) وهو قمة ما أمكن للهدى الإلهي أن ينشئه ويربيه ـ كان يتحسر على قومه ويصيبه نحو من أنحاء الألم النفسي على أنهم لا يؤمنون(*).. وكل ما حاوله كتاب الله تعالى هو أن عزاه وسلاه، وألفت نظره إلى وسائل التثبيت، والتسلية، والعزاء من خلال معايشة التصور الرباني للحياة. واللجوء إلى الله.

الحد من العلاقة الوجدانية بالدعوة:

هذا وجه للمسألة. والوجه الآخر لها.. هو أن التربية الإسلامية، إذ تحاول تنمية العلاقة الوجدانية بالدعوة والرسالة، وتوطيد العواطف الدعوتية، والاسلامية التغيرية من حب الناس، وحب هدايتهم، والسرور بذلك، وما يترتب على ذلك ـ بحسب قوانين النفس ـ من آلام نفسية معينة عند تكذيب الناس وسخريتهم بالرسالة، وإعراضهم عنها.. إن التربية الإسلامية إذ تحاول ذلك تحذر من نقطتين تعبران عن الافراط في هذا الجانب.

١ ـ أن تنمو العلاقة العاطفية بالدعوة إلى الله وإلى رسالته.. على حساب العلاقة العاطفية بالله تعالى نفسه.. بحيث يكون حب الدعوة أكبر من حب الله.. وتتقدم بالتالي قضية الدعوة من الناحية العملية على قضية الالتزام

(*) ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات...﴾ فاطر ٨ ﴿إنك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ القصص ٥٦ ﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى..﴾ طه ٢.

الشرعي والتعبد بحدود الشريعة، وخط الإسلام يذكرنا هذا بالمحاولات التي كانت تبذل من قبل بعض أصحاب الإمام (ع) من أجل حمله (ع)، لانتهاج بعض الوسائل والأساليب ليبقى الناس إلى صفه، ويتحركوا للجهاد. . وكان جوابه (ع). . انني أعرف ما يصلحهم، ولكن لا أريد إصلاحهم بفساد نفسي. .

إن الهدف النهائي في الدعوة. . وكل ما يتصل بها من تخطيط، وجهود هو رضا الله سبحانه. . وإن المنبع النفسي الذي نشأت عنه العلاقة ـ العاطفية والوجدانية بقضية الإسلام هو العاطفة الربانية والوجدان الديني. . فلا يمكن بحال أن تكون العاطفة الدعوتية في شخصية الإنسان المسلم ـ اركز، وأقوى من العاطفة الدينية. . أو العاطفة الإلهية بحيث تحكمها وتتمكن منها عند التزاحم والتعارض.

وقد نلاحظ في واقعنا التربوي بعض النماذج التي تعكس الأمور، وتجعل قضية الدعوة (هدفاً) وقضية الله (وسيلة) لا بمعنى النفاق، والعياذ بالله. . ولكن بمعنى أن الأصالة النفسية للدعوة والرجحان لها في كثير من موارد التزاحم والتعارض.

وقد تكون الاستقامة السلوكية. . وسيلة للتأثير في الناس، وقد يفسر في هذا الاتجاه وهو، أن لا يملك الهدف الاجتماعي سوى قيمة نفسية أضعف من القيمة النفسية لله تعالى، وفي طولها لا في عرضها ـ قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾(٣٦)

فليس في الآية دلالة على النهي عن هداية الناس، وأمرهم بالرشاد لأن الأمر بالمعروف، والعمل في سبيل هداية الناس من شؤون هداية النفس، فالانسان لا يهتدي، إلا إذا امتثل أوامر الله بما فيها الأمر المتعلق بهداية الناس،

---

(٣٦) سورة المائدة / ١٠٥.

والاهتمام بشؤون المسلمين.

وإنما تهدف الآية ـ في ضوء بعض التقادير ـ إلى النهي عن أن ترتبط قلوب العاملين الاسلاميين بالناس، وهدايتهم بحيث تكون هداية الناس هي الأول، والأخير، والشغل الشاغل، والمعبود من دون الله.. إنما المؤمن الرسالي حقاً هو ذلك الذي يعبد الله ولا يعبد سواه، ويهدف بالدرجة الأولى إلى هداية نفسه، وعبادة الله. وإذا كانت هداية النفس، وعبادة الله تنتهي إلى الاهتمام بأمور المسلمين، والعودة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فليس هذا سوى (شأن) من شؤون هداية النفس، وليس له شخصية مستقلة، أو كيان خاص.

٢ ـ والنقطة الثانية: هي أن لا تخرج العلاقة الوجدانية بالدعوة، والعمل إلى مستوى يضر العمل، ولا يخدمه.. فإن العواطف الدعوتية قد تدعو الانسان إلى تجاوز مصالح العمل والدعوة والاضرار بها.. لأن من طبيعة العاطفة أن تكون عمياء.. وإنما تكتسب رؤيتها من العقل والانتباه..

والأمر كذلك بالنسبة إلى الانفعالات.. فقد يؤدي تجمد الدعوة، وتكذيب الناس، وسخريتهم، وإعراضهم عن الرسالة إلى حدوث شيء من الحزن الهادىء، والألم النفسي البطيء.

وهذا أمر طبيعي نتج عن الحد الأدنى المعروض من العواطف الرسالية.. ولكن قد يؤدي ذلك إلى (الضيق) النفسي، والهلاك، والاحساس بالفشل وهذا معنى مرفوض من وجهة نظر الإسلام التربوية لأن مثل الانفعالات التي لا يحتفظ الإنسان المسلم معها بالحد الأدنى من الانفتاح النفسي الذي تستلزمه الدعوة، ويستلزمه الاستمرار فيها وزيادة فعاليتها، وتنشيطها، مثل هذه الانفعالات لا تكون في مصلحة العمل، وإنما على حسابه، وعلى حساب الدعوة والرسالة خاصة إذا أدى مثل هذا الضيق إلى شيء من الحيف، والانحراف والخروج عن الجادة الاسلامية من الزاوية النفسية، والفكرية.

وهذا هو الذي كان الهدي الإلهي يحول بينه، وبين رسول الله (ص) في

اللحظات الحرجة، والأيام الصعبة.. أيام التكذيب، والسخرية، والاعراض.. أيام الغربة، والجفاء، والضيق، والاضطهاد.. فليس المهم أن لا يـألم رسول الله (ص) ولا يحزن على الناس.. ولكن المهم أن لا تتـطور هذه الحـالة إلى معنى لا ينسجم مع النموذج الأمثل للشخصية الإسلامية.. كان الهدي الإلهي يحـول بين هذا المعنى وبين رسـول الله وذاك من خـلال تـذكيـره بـالله تعـالى وتحسيسه بالتصور الرباني للكون، والحياة، وحثه على الممارسات العبادية.. وإقامة الصلاة.

﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبـح بحمد ربـك، وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾(٣٧).

﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون﴾(٣٨)

﴿لعلك باخع نفسك إلا يكونـوا مؤمنين أن نشاء ننـزل عليهم من السماء آيةً فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾(٣٩).

والحـال في انفعال الفـرح والسرور عنـد النصر.. كـالحـال في انفعـال الحسرة والألم النفسي والضيق.. عند التكذيب والسخرية والاعراض. فالسرور عند النصر أمر طبيعي ومرغوب ولكن المفروض أن لا يتحول إلى فرحـة نفسية غامرة تفقد الإنسان المسلم توازنه وتنسيـه الله، وتوهمـه إمكانيـة الاعتماد على الذات أو تنسيه نفسه وعيوبها.

﴿إذا جـاء نصر الله والفتـح. ورأيت النـاس يـدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾(*).

---

(٣٧) سورة الحجر/٩٧.
(٣٨) سورة النحل ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٣٩) سورة الشعراء/٣.
(*) سورة النصر.

إذ تفيد هذه الآية أن لحظة النصر.. يحتاج الإنسان فيها إلى ذكر الله، واستغفاره والتوجه إلى عيوب النفس حتىٰ لا يطغىٰ أو ينسىٰ.. بل حتىٰ لا تتضرَّر قضية الدعوة نتيجة لتمكن النشوة والفرح من قلوب الدعاة.

الغضب الرسالي

إن الغضب الشخصي مرفوض في الخلق الإسلامي.. أما الغضب الرسالي، الغضب لمحارم الله إذا انتهكت، ولدين الله إذ حُرِّف، فأمر يُربّي عليه الإسلام(٤٠) وهو نتيجة طبيعية للقيم الرسالية في الشخصية الإسلامية.. وإذا ما وجدنا أنفسنا أحياناً لا نشعر بالانكار القلبي للمنكر والغضب عليه فهذا ما يعني أن علينا أن نشحذ قوانا الانفعالية وننشئها علىٰ الإسلام من جديد.

غير أن هذا الغضب.. الرسالي يجب أن لا يخرج عملياً عن حدود الرسالة نفسها.. وكثيراً ما يكون التصرف الغاضب غير منسجماً مع مقاييس الرسالة وغير موافقاً لأحكامها.. والجهاز الحاكم في الشخصية هو العقل الذي

---

(٤٠) في الخبر عن أبي عبد الله (ع): (أن الله بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلباها على أهلها، فلما انتهيا إلى المدينة، وجدا فيها رجلاً يدعو، ويتضرع.. إلى أن قال: فعاد أحدهما إلى الله فقال: يا رب إني انتهيت إلى المدينة، فوجدت عبدك فلاناً يدعوك، ويتضرع إليك، فقال امض كما امرتك به فان ذا رجل لم يتمعر ـ أي يبدي ـ وجهه غيظاً لي قط: (الوسائل أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ب ٦).

وعن أبي جعفر (ع) أوحى الله إلى شعيب النبي (ع) (إني معذب من قومك مئة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم فقال يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي (الوسائل كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨)

وعن علي بن الحسين (ع): (قال: قال موسى بن عمران: يا رب من أولئك الذين نظلهم في ظل عرشك يوم لا ظل الا ظلك؟فأوحلى الله إليه، الطاهرة قلوبهم والبرية أيديهم الذين يذكرون جلالي ذكر آبائهم إلى أن قال: ﴿ **والذين يغضبون لمحارمي إذا استحلت مثل النمر إذا جرح**﴾ (الوسائل كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ب ٨).

يحدد الموقف الذي يستلزمه المنطق الديني، وليس العواطف والانفعالات.

والمؤمن في ميدان العمل يحتاج أكثر من غيره إلىٰ إرادة حازمة وشخصية مستقلة عن الأحداث والاثارات، فيجب أن لا يرد إذا جُهل عليه، ولا يثور إذا استثير وإنما يكون حكيماً . . متعقلاً باستمرار، وفي كل مجال.

قال أبو جعفر عليه السلام:

«في حكمة آل داوود ينبغي للمسلم أن يكون مالكاً لنفسه مقبلاً على شأنه عارفاً بأهل زمانه، فاتقوا الله، ولا تذيعوا حديثنا»[٤١]

وعن أبي عبد الله عليه السلام:

«كضم الغيظ عن العدو في دولاتهم تقية حزم (الحزم ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة) لمن أخذ به وتحرر، من التعرض للبلاء في الدنيا، ومعاندة الأعداء في دولاتهم، ومماظتهم في غير تقية ترك أمر الله. فجاملوا الناس يسمن ذلك لكم عندهم، ولا تعادوهم فتحملوهم علىٰ رقابكم فتذلوا»[٤٢]

وليس كضم الغيظ والغضب عن العدو أمامه فقط وإنما في كل أمر تقتضي فيه مصلحة الرسالة الكف ويقتضي فيه الغضب الحركة والاستجابة للاثارات.

هذا وقد سجل الله تعالى لنبيه الكريم في القرآن قصة ذي النون (يونس «ع») وأمر بذكرها.

﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادىٰ في

(٤١) الوسائل أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص ٣٤.
(٤٢) أصول الكافي ج ٢ ص ١٠٩.

الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾[٤٣]

وخلاصة القصة وما عليها من تعليق كما في (في ظلال القرآن لسيد قطب).

«أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه فضاق بهم، صدراً، وغادرهم مغاضباً ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ظاناً أن الله لن يضيق عليه الأرض، فهي فسيحة والقرى كثيرة والأقوام متعددون، وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجهه الله إلى قوم آخرين. ذلك معنى **﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾** وقاده غضبه الجامح وضيقه الخانق إلى شاطىء البحر فوجد سفينة مشحونة فركب فيها إذا كانت في اللجة ثقلت وقال ربانها: إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق فساهموا فجاء السهم على يونس فألقوه أو ألقى هو نفسه فالتقمه الحوت مضيقاً عليه أشد التضييق..».

«إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة فضاق صدراً بالقوم والقى عبء الدعوة وذهب مغاضباً ضيق الصدر حرج النفس فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين.. وأصحاب الدعوات لا بد أن يتحملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها والايذاء من أجلها. وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس. مرير على النفس حقاً، ولكنه بعض تكاليف الرسالة فلا بد لمن يكلفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولا بد أن يثابروا ويثبتوا ولا بد أن يكرروا الدعوة ويبدوا فيها ويعيدوا..».

«إن من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لدعوته فيهجر الناس.. إنه عمل مريح قد يُفَتِّر الغضب ويهدىء الأعصاب ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين؟

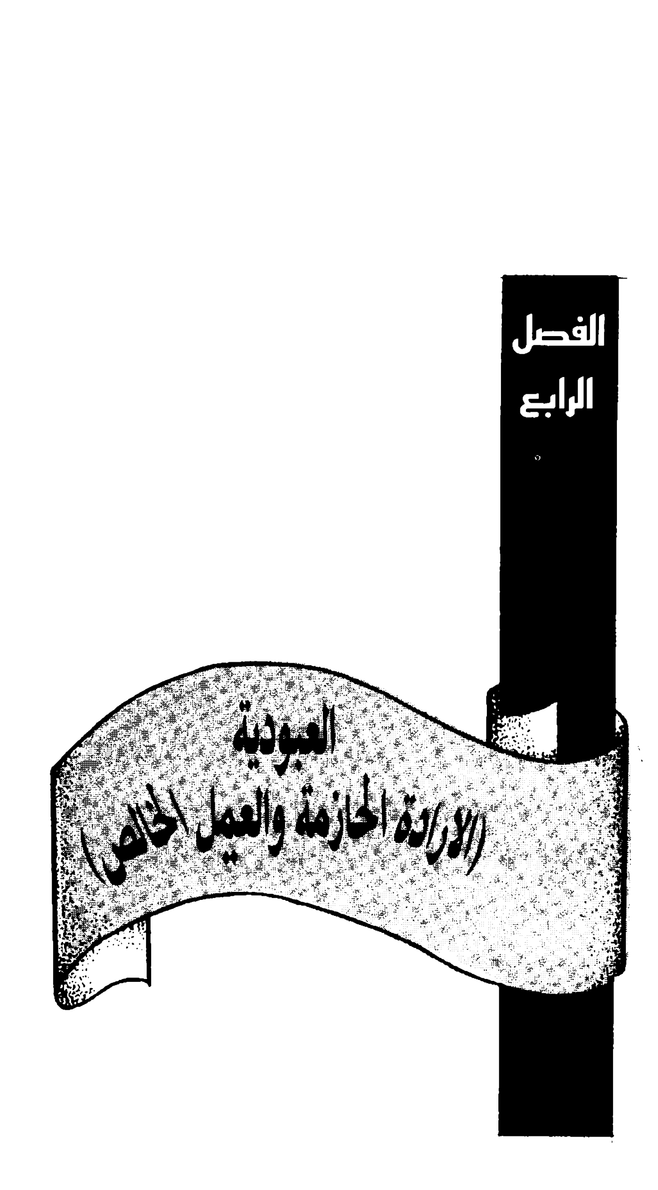
---

(٤٣) سورة الأنبياء، الآية ٨٦، ٨٧.

إن الـدعـوة هي الأصـل لا شخص الـداعيـة! فليضيق صـدره. . ولكن ليكظم الغيظ ويمضي. وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون. . ».

«إن الداعية أداة في يد القدرة، والله أرعىٰ لدعوته وأحفظ فليؤد هو واجبه في كل ظرف وفي كل جو، والبقية على الله والهدى هدى الله. . ».

«وإن في قضية ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه، وأن في رجعة ذي النون إلىٰ ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها وأن في رحمة الله لـذي النون واستجـابة دعـائه المنيب في الـظلمات بشرىٰ للمؤمنين ﴿**وكذلك ننجي المؤمنين**﴾.


الفصل
الرابع
العبودية
(الإرادة الحازمة والعمل الخالص)

الارادة الربانية محور مركزي في الشخصية الاسلامية:

قد نطلق كلمة (الارادة) ونقصد بها الاختيار، وأعمال القدرة في ترجيح جانب الفعل أو جانب الترك، فنقول: أن فلاناً أراد كذا، ولم يرد كذا. . وقد نطلق كلمة (الارادة) ونريد بها الشوق إلى الفعل، أو بعضه بالنسبة إلى تركه فيقول الأصولي، أن من مبادىء الحكم. . الملاك والارادة. . وقد نطلقها ونريد بها الجهاز الحاكم في الشخصية الذي يسيطر على رغبات النفس، فيمنع من بعض الأفعال، ويلزم بالبعض الآخر. . ومن هنا يقال: إن إرادة فلان ضعيفة بمعنى، أنه منساق مع رغباته، وليس لديه القدرة على التحكم فيها، وإرادة فلان قوية بمعنى أن لديه قدرة كافية على التحكم في الأهواء، والرغبات الشائعة الآنية. . وهذا هو المقصود.

ويتلخص هذا الجانب في شخصية الإنسان المسلم في (حلول الإرادة الربانية محل الارادة الشخصية) بحيث تكون إرادة المسلم، وجهازه الحاكم في شخصيته ممتثلاً لارادة الله تعالى، الارادة التشريعية بالطبع[1] ومنسجماً معها ولهذه الارادة التي تشكل العنصر الثالث البارز في الشخصية الإسلامية ـ مضافاً إلى عنصري الإيمان، والحب ـ حيثيات، وجهات ثلاث:

---

(١) لله سبحانه أرادتان: إرادة تتعلق بذات الفعل والحدث، وهذه هي الارادة التكوينية، ومن هنا ﴿إذا أراد الله شيئاً قال له كن فيكون﴾ وإرادة تتعلق بفعل الانسان، على أن يصدر باختياره وحريته، وهي الارادة التشريعية، كإرادة الصلاة والصوم، وترك شرب الخمر.

١ ـ القـدرة على التحكم في الأهـواء، والشهـوات، والسيـطرة عليهـا، ومخالفتها، والارادة من هذه الجهة تسمى بـ(الصبر) و.

«الصبـر من الايمان بمنـزلة الـرأس من الجسد فـإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»(*)

٢ ـ انسجام هذه الارادة، وتوافقها مع الارادة الربانية التشريعية. . وتسمى الارادة بهذا اللحاظ بـ(الطاعة) أو (الالتزام).

﴿تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجـري من تحتها الانهار، خـالـدين فيهـا، وذلـك الفـوز العـظيم، ومن يعص الله ورسـولـه، ويتعـد حـدوده يـدخله نـاراً خـالـداً فيهـا ولـه عـذاب مهين﴾(**).

﴿ومـا كان لمؤمن ولا مؤمنـة إذا قضى الله ورسولـه أمراً أن يكـون لهم الخيرة من أمرهم﴾(***).

٣ ـ انبعـاث الارادة الشخصية عن الارادة الإلهيـة أو عن دافع ديني عـام وهذا هو (الاخلاص)

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾(****)

وسندرس هذه الجوانب الثلاثة إن شاء الله. . وندرس معها أيضاً. . قضية (التعقـل) في السلوك بوصفـه بُعداً آخـر للارادة المسلمـة. . وقضية (التـوكل) بوصفه عملية تعزيز لارادة المواجهة والاقدام في شخصية المسلم.

والشخصية الإسلامية. . باعتبار تمكن الارادة الربانية فيهـا. . تخرج في سلوكها، ومواقفها من دائرة السلوك الفطري الشهوي إلى دائرة السلوك الهادف،

(*) الأصول في الكافي ج ٢ باب الصبر ح ٢.
(**) سورة النساء، آية: ١٤.
(***) سورة الأحزاب، آية ٣٦.
(****) سورة البينة، آية ٥.

والملتزم. . ومن دائرة السلوك الفوضوي المزدوج إلى النظام، والوحدة والتماسك. . ومن دائرة السلوك الأناني الذاتي.. إلى دائرة السلوك الغيري، الأخلاقي. .

وبهذا يتجلى الفرق من هذه الناحية بين الشخصية العادية، وتصرفاتها الجاهلية التي لم يتمكن (الدين منها) ولم يدخل الايمان في وجدانها، وقلبها، وبين الشخصية الإسلامية.

(*) الشخصية الجاهلية تعيش على شهواتها، وغرائزها الفطرية المصاغة بصيغة اجتماعية مادية. . وبهذا تكون لديها الغرائز (طاقة) و(دافعاً) و(غاية) أما في الشخصية الاسلامية فالغرائز لا تكون في العموم سوى طاقة نفسية، ولكنها طاقة تستخدم في غايات أسمى ولخدمة هدف أخلاقي معين، وانسجاماً مع خط رسالي خاص، وهذا معنى خروج الشخصية الإسلامية من دائرة الفطرية والشهوة إلى دائرة الالتزام والهدفية.

(*) والانسان له شهوات متعددة، وغرائز مختلفة وميول متباينة ـ نابعة من الغرائز، والشهوات الفطرية، والشخصية الجاهلية لا تملك (المحور المركزي) والقيادة المركزية التي تنسق بين هذه الشهوات، والغرائز، والميول وبذلك فهي تعاني من الفوضى والتعدد، والازدواج، والاضطراب النفسي. . أما الشخصية الاسلامية فهي على العكس، تمتلك هذا المحور المركزي، متمثلاً في الارادة الربانية، والحس الأخلاقي المتعلق بالله تعالى، وهي بذلك تحقق (وحدة) الشخصية، وانسجام طاقاتها، وتلاحمها لخدمة هدف معين... وهذا معنى خروج الشخصية الاسلامية من دائرة السلوك الفوضوي المزدوج إلى النظام والوحدة والتماسك الذاتي.

(*) ـ والشخصية الجاهلية ـ التي تنتمي إلى الحضارة الجاهلية في أي وقت، وأي مكان ـ شخصية أنانية لا تعمل لسوى ذاتها، ولا تخدم غير اغراضها الشخصية. والشخصية الاسلامية شخصية أخلاقية تسعى إلى مثل أخلاقي أعلى يحقق للمجتمع مصلحته في الوقت الذي يحقق فيه للفرد مصالحه الشخصية.

الشخصية الاسلامية والشخصية المزدوجة

إذن فالشخصية الإسلامية هي التي تشكل الارادة الربانية فيها المحور المركزي، والجهاز الحاكم الذي ينظم لها عملياتها السلوكية، ومواقفها في الحياة.. وتصرفاته الخاصة في الأسرة والمجتمع..

ولا توجد ارادة أخرى تفوق، أو تساوي، أو تقارب هذه الارادة الربانية فيها.. وفي مقابل ذلك نجد في واقعنا.. ما يمكن تسميته بـ(الشخصية المزدوجة) من الناحية الدينية.. والازدواج في الشخصية من الناحية الدينية هو، تشتت قواها، واتجاه الدوافع المتقاربة في القوة إلى العمل في اتجاهات متعاكسة، أو هو بكلمة، عدم تمكن (الارادة الربانية) من السيطرة الكاملة على الشخصية.. والتحكم الكامل في قواها، ودوافعها.. ونلاحظ عند بعض الناس المسلمين أنهم يعملون الخيرات ويخلصون لله تعالى.. وأحياناً كثيرة مساوية أو مقاربة يعملون لذواتهم، ومراكزهم، وجاههم حتى لو خالفوا بذلك إرادة الله عز وجل.

والازدواج على قسمين:

١ ـ الازدواج الفكري.. وهو الصدور فكرياً عن منابع ثقافية مختلفة ورؤى مذهبية متناقضة، فتراه مرة يفكر بطريقة الاسلام في التفكير، ويتحدث بلغته، ويتبنى مفاهيمه، وأخرى يفكر بطريقة التفكير الغربي، ويتبنى الكثير من مفاهيم الحضارة الغربية، وقيمها مع تغليفها بالغلاف الاسلامي وهو لا يشعر بذلك.. وسنتناول هذا النحو من الازدواج في الجزء الثاني أن شاء الله تعالى.

٢ ـ الازدواج النفسي والسلوكي.. وهو وجود عوامل، ودوافع نفسية متناقضة الاتجاه متقاربة المستوى، والدرجة بحيث لم يتضاءل أحدها مقابل الآخر، فهو صاحب مركز يفكر ويسعى إلى تكوين مركز اجتماعي، أو ثقافي مرموق ويحب الظهور في هذا المجال، وذاك.. وصاحب دين يخشى الله،

ويعمل له. . وهذا الازدواج ما يمكن أن نسميه بالشرك في العبادة، لأن هذا الانسان له معبودان. . أحدهما الله والآخر هو الهوى. . ومن الممكن أن نسمي الازدواج الأول بـ(الشرك الثقافي) ونعمم هذين الشركين إلى الشرك في الذات (الايمان بتعدد الالهة) والشرك في الصفات (الايمان بمفارقة الصفات الالهية للذات المقدسة).

الازدواج، والنفاق:

والفرق على هذا الأساس بين الازدواج، والنفاق واضح وذلك لأن المنافق ليس مزدوج الشخصية بين الكفر والاسلام لا من جهة عقائدية، ولا من جهة ثقافية، ولا من جهة نفسية سلوكية. . وإنما هو كافر خالص يعلن إيمانه زوراً ومنافاة.

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾(٢).

﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله، والله يشهد أن المنافقين لكاذبون اتخذوا إيمانهم جنة﴾(٣).

وأما الإنسان المزدوج فهذا الذي تعيش في نفسه قوى متصارعة ليس لأحدها الغلبة على الأخرى. . هو هذا الإنسان، الذي (يعيش) ساعة لربه، وأخرى لقلبه، ويمارس في الساعة التي لقلبه ألواناً من الفجور، والمحارم والشبهات. . هو هذا الانسان ذو العاطفة الدينية التي تستنفر في لحظات خاصة.

---

(٢) سورة البقرة، آية ١٤.
(٣) سورة المنافقون آية ١.

الازدواج الصريح والازدواج الخفي:

وفي حياتنا الدينية نجد ازدواجاً صريحاً كالذي ذكرناه يعترف به الانسان بأن هذا شيء يختلف عن ذاك، وإنه مرة يعمل لدينه، وأخرى يعمل لشياطينه.. ويمكن للإنسان من الخارج أن يكتشفه، ويحكم عليه.. وإلى جانب هذا، هناك ازدواج آخر.. ازدواج خفي.. يظهر فيه الانسان متديناً في كل شيء.. وهو في حقيقة أمره منشطر الذات إلى شخصيتين شخصية متدينة، وأخرى منحرفة.. ويتم هذا عن طريق إرضاء كل من الجانب الشخصي الذاتي والجانب الديني، والتوفيق الشكلي المظهري فيما بينهما.

لنأخذ على ذلك مثلاً..

ناس متقاعسون كالذين ذكروا في الرواية عن أبي جعفر (ع): (يكون في آخر الزمان قوم ينبع فيهم قوم مراؤون...)(*) ولو أضرت الصلاة بسائر ما يعملون بأموالهم، وأبدانهم لرفضوها، كما رفضوا أسمى الفرائض، وأشرفها (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) هم هؤلاء أن يحافظوا على دينهم في الاطار الذي يحفظ أموالهم، وأنفسهم، وإذا خرج الأمر عن هذه الحدود لم يلزموا أنفسهم بعد بالدين.. ولكن كيف ترى يترك هؤلاء واجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟! هل يتركونه مع أعلانهم بأن هذه ساعة من ساعات القلب وللرب ساعات أخرى؟! أبداً.. إنما يقومون بعملية تبرير.. أما عن طريق تحريف أحكام الله، وتشويه نظرية الاسلام في ميدان من أهم ميادينه، وأشرف فرائضه.. أو عن طريق تحريف الواقع، وتقديم (الاعذار)..

ومثال آخر..

(*) وسائل الشيعة، ابواب الأمر والنهي ب ١٠.

هذا الذي يظهر بمظهر ديني. . ويخفي في ذاته ما الله مبديه من حب المال، والمركز والجاه. . ماذا تراه يصنع عندما (يجمع) من أموال الله تعالى، وحقوق الأمة من أجل أن يبني المسكن الواسع، ويقتني الدابة الفارهة، أو عندما يسعى لتأكيد ذاته، والظهور من أجل الظهور؟! أن ما يقدمه في هذا الميدان، هو أن المسكن ضروري للخدمة والدابة الفارهة تحفظ حرمته، ومكانته، لا باعتباره الشخصي وإنما (باعتباره النوعي) وليس لتأكيد شخصيته أنما هو من أجل تأكيد أفكاره الدينية. . إلى آخر ما يلقي الشيطان في روعه من التبريرات والتزييفات أعاذنا الله تعالى من كل ذلك.

فعن طريق الخداع، خداع الذات والتبرير يستطيع أن يقضي هذا الانسان على الصراع النفسي بين قوتين نفسيتين، ودافعين متقاربين في درجة التأصل في النفس إذ تتحايل إحدى القوتين. وهي هنا القوة الشهوية على القوة الأخرى، وتحقق له راحة التوافق، والانسجام الداخلي وتجنبه آلام الصراع والتناحر الذاتي.

كيف تتحقق الحاكمية العامة للارادة الربانية؟

تكوّن الجهاز المركزي الحاكم في الشخصية الاسلامية وهو الجهاز المؤلف من الصبر، والطاعة، والاخلاص. أي من الارادة الربانية، يتم عندما يتحقق الشرطان التاليان:

١ ـ قوة الدافع الديني في الشخصية. . وكونه أقوى الدوافع وأصلبها في النفس، والدافع الديني هو العواطف، والاحاسيس الدينية في النفس كحب الله، وخوفه، ورجائه والتطلع إلى ثوابه الجزيل. . والمحاسبة الأخلاقية الحاكمة، بوجوب طاعة الله في النفس. . وهكذا.

٢ ـ الوعي الذاتي، ومعرفة حيل النفس، وأساليبها في الدفاع، والخداع. . وليس يكفي لحكومة الدين على شخصية الانسان أن تكون أقوى الدوافع، وأثبتها في النفس، لأن من الممكن مع هذا، أن يؤثر دافع دنيوي

شهوي تأثيراً بالغاً في النفس حتى على حساب الدين، ولكن من خلال خداع الضمير الديني.. وخداع النفس.

الالتزام العملي بخط الاسلام في الحياة (الطاعة):

تأخذ الارادة الربانية في شخصية الإنسان المسلم من المظهر الخارجي.. وهو الاستقامة السلوكية على خط الاسلام في الحياة.. وموافقة الشريعة.. وعدم مخالفتها في واجب، أو حرام كحد أدنى.. ثم البناء على أداء المستحبات، واجتناب المكروهات كحد أعلى للسلوك، ويسمى هذا بـ (الطاعة) و(الالتزام) أو (الاستقامة).

١ ـ والطاعة لله تعالى في أحكامه الالزامية.. واجبة بحكم العقول التي تقرر أن الله تعالى بحكم كونه خالقاً للإنسان موجداً له منعماً عليه، له حق الطاعة على عباده.. وحق الانسجام مع شريعته أوامر ونواه. وتحكيمها في السلوك.

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾(٤)

فالطاعة لله تعالى ـ بالاستقامة على خط رسالته ودينه.. ومتابعة أوامره ونواهيه ـ عمل أخلاقي يقوم على أساس هذا الحق، الذي يدركه العقل ببداهته، وسجيته.

٢ ـ وطاعة الله تعالى هي الأساس السلوكي الذي يرجو به الانسان غداً ـ في اليوم الآخر ـ التخلص من العقاب، وتحصيل الأجر الإلهي بخلاف المعصية التي هي تعدٍ لحدود الله وطريق (لمخالفه) الله.

﴿تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من

---

(٤) سورة البقرة، آية ٢١.

تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك هو الفوز العظيم ومن يعص الله، ورسوله، ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها، وله عذاب مهين﴾[٥]

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾[٦]

﴿ومن يطع الله، ورسوله، ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾[٧]

٣ ـ والطاعة. . أو الالتزام بالخط العملي للاسلام في الحياة يعتبر جزء ضرورياً متمماً للشخصية الاسلامية، فلا يمكن أن تكون الشخصية الاسلامية كاملة من دون الطاعة، والالتزام الجدي بخط الله. . بل لا يمكن أن تكمل العناصر الأخرى من دون الطاعة، وذلك لأن للمعاصي آثاراً سلبية كبيرة في النفس، والقلب، حتى لتكاد تمسخه مسخاً. . أن الانسان، وحدة متكاملة يؤثر بعضها على بعض، وجهاز موحد تتناول أجزاؤه التأثير، والعمل.

يقول الله تعالى:

﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[٨]

عن أبي عبد الله (ع):

«كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة. إن القلب ليواقع الخطيئة، فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله»[*].

---

(٥) سورة النساء، آية ١٣ ـ ١٤.
(٦) سورة الأحزاب، آية ٣٦.
(٧) سورة التوبة آية ٥٢.
(٨) سورة المطففين، آية ١٤.
(*) وسائل الشيعة، جهاد النفس، ب ٤.

وعن أبي عبد الله (ع) في خبر معتبر:

«إذا أذنب الرجل خرجت في قلبه نقطة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد، زادت حتى تغلب على قلبه، فلا يفلح بعدها أبداً»(*).

وعنه (ع):

«إن الرجل يذنب الذنب فيحرم من صلاة الليل، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم»(**).

والنصوص التي تدل على أن الشخصية الاسلامية متكاملة الأجزاء، والأطراف، لا يكفي فيها الفكر وحده، والأخلاق وحدها ولا الطاعة.. وإنما يشترط فيها الطاعة إلى جانب الفكر، والجهاد، والأخلاق.. كثيرة..

عن أمير المؤمنين (ع):

«إن الإسلام هو التسليم والتسليم، هو اليقين، واليقين، هو التصديق، والتصديق، هو الاقرار، والاقرار، هو العمل، والعمل، هو الاداء..»(***).

وعن الصادق (ع) بعد أن سئل عن، أن العمل من الايمان قال:

«نعم الايمان ، لا يكون إلا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الايمان إلا بعمل»(****).

وعنه (ع) في خبر:

«فإذا أتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي ، أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهى الله عز وجل عنها كان خارجاً من الايمان، ساقطاً عن اسم

(*) وسائل الشيعة، جهاد النفس ب ٤.
(**) الاصول من الكافي ج ٢ باب الذنوب ح ١٦.
(***) الاصول من الكافي ج ٢ باب نسبة الاسلام ح ١.
(****) الاصول من الكافي ج ٢ باب ١٦، ح ٣.

الايمان»(*).

٤ ـ والاستقامة على خط الإسلام، شرط أساسي لمجموعة من الممارسات المتقدمة في الحياة الاسلامية (كأمامة الأمة، والتقليد والفتوى والقضاء وإمامة الجماعة وما شابه لا يمكن أن يشغلها) سوى العدول أي المستقيمين سلوكياً على خط الاسلام بنحو تكون الاستقامة طبعاً لهم، وملكة متمكنة في نفوسهم.

فلا يجوز تقليد غير العادل، فإن المرجعية الدينية مشروطة بالاستقامة، كما نقل عليه اجماع الفقهاء.. وعن الإمام العسكري (ع):

«وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، ـ والعصبية الشديدة، والتكالب على الدنيا، وحرامها فمن قلد هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم. فأما من كان من الفقهاء، صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه»(**).

وكذلك قال بعضهم، إنه لا يجوز للعاصي الافتاء أو التصدي لهذا المقام الخطير، وكذلك تجب العدالة والاستقامة في القاضي، وأمام الجماعة والشهادة، وموارد أخرى.

وليست هذه الاحتياطات من الاسلام من أجل الاحتياط على هذه الوظائف الخطيرة في الحياة الاجتماعية، وإنما هي من جهة أخرى تركيزاً لقيمة الاستقامة، والتقوى في الحياة الاسلامية.

٥ ـ وقد أكد الاسلام تأكيداً بالغاً على من نصب نفسه للناس هادياً، وأماماً أن، يلتزم بما يقول، ويعلم نفسه قبل تعليم غيره (بنحو شمول المسؤولية، لا تقييدها بالمطيعين والملتزمين فقط).

(*) الاصول من الكافي ج ٢ باب ١٦ ح ١.
(**) وسائل الشيعة، صفات القاضي، ب ١٠.

وعن الامام علي (ع):

«من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه»(*)

وعن أبي ذر عن رسول الله (ص) في وصيته له:

«يا أبا ذر يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النار وإنما دخلنا الجنة بفضل تعليمكم، وتأديبكم، فيقولون أنا كنا نأمركم بالخير، ولا نفعله».

وعن أبي عبد الله (ع):

«كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الورع، والاجتهاد، والصلاة، والخير، فإن ذلك داعية»(**).

٦ ـ هذا ويعتبر إعداد الشخصية الاسلامية المتورعة الملتزمة بالخط الاسلامي في الحياة أحد أهداف عمل الأئمة (ع):

عن أبي عبد الله (ع):

«ليس منا، ولا كرامة من كان في مصر فيه مائة ألف، أو يزيدون، وكان في ذلك المصر أحد أورع منه»(***).

وعنه أيضاً:

«أنا لا نعد الرجل مؤمناً حتى يكون بجميع أمرنا متبعاً مريداً إلا وأن من أتباع أمرنا وإرادته الورع فتزينوا به يرحمكم الله وكبدوا أعدائنا ينعشكم الله»(****).

(*) وسائل الشيعة، الامر والنهي، ب ١٠.

(**) الاصول من الكافي ج ٢ باب ٣٧، ح ١٤.

(***) الاصول من الكافي ج ٢ باب الورع ح ١٠.

(****) الاصول من الكافي ج ٢ باب الورع ح ١٣.

الاستقامة والفكر التبريري:

عرفنا أن الاستقامة من صلب الايمان، وإنها شرط أساسي في الشخصية الاسلامية.. وهذا أمر واضح من خلال الكتاب الكريم والسنة المطهرة.. وطبيعة الرسالات السماوية لم تتنزل لتصحيح الاعتقادات فقط، وإنما لبناء الانسان وتغيير السلوك، واختطاط نهج خاص للسلوك الفردي والاجتماعي في حياة الانسان، والتركيز على مجموعة من القيم الأخلاقية.

ويعبر ذلك عن مشروع رباني لصياغة انسان جديد انسان رباني في فكره وروحه وقيمه النفسية وفي سلوكه الشخصي، وتعامله مع الناس. والصعود بالإنسان إلى مستوى بنائي متميز، وشخصية فريدة تمشي بين الناس بنور الهدى الإلهي.. وعلى السبيل الذي حدده الله لهذا الإنسان..

ومن الواضح أن هذا المشروع التغييري الذي تبنته رسالات السماء لم يفرض على الإنسان فرض الجاء، والا لاهتدى الناس جميعاً.. وإنما أريد له أن يتم من خلال الانسان، وفعاليته وارادته وإن كان برعاية الله، وهداية الله. ومن الواضح إلى جانب ذلك أن للإنسان أهواءه، وشهواته، وميوله النفسية التي تتعارض مع الصيغة الربانية المقترحة.. وأنه ليس من السهل للانسان أن ينسجم مع هذه الصيغة إلا من خلال الصبر، والمعاناة، والمجاهدة النفسية، وترويض النفس.

وكان الناس أمام هذا المشروع التغييري الجبار القائم في الأساس على عبودية الله، وتحرير النفس من الأهواء والالتزام بالعدل، والمصالح النوعية للناس على ثلاثة أصناف: صنف رفض الايمان، والالتزام المبدئي بالرسالات السماوية وركن إلى مجاميع متعددة من تسويلات الشيطان، وخدعه.. وصنف ثان رحب بالصيغة الربانية، وآمن بها، وتعاطف معها والتزم بها التزاماً جدياً، وتصاعد بها إلى المستوى الانساني المطلوب، والشكل الرباني المقترح للانسان.. وأكثر الناس آمنوا بالأنبياء، ورسالاتهم، وعاشوهم في جزء، وآخر

من شخصياتهم. . الا أنهم لم يرتفعوا بها، ولم يتصاعدوا من خلالها، ولم يلتزموا بها الالتزام الضروري المطلوب. . لأن الانسان بشكل عام، ليس مستعداً أن يجاهد الجهاد الأكبر ويعاني باستمرار في سبيل الطاعة، والالتزام، ويتوافق، ولو على حساب ميوله، وأهوائه مع إرادة الله.

والناس هؤلاء يعيش الايمان في ذواتهم، وينبض ضميرهم الديني بالحركة، ويدعوهم باستمرار إلى العمل، والانسجام مع الدين ومن هنا ينشأ صراع داخلي بين القوى الدينية في النفس، القوى الخيرة التي تدعو إلى التعالي الأخلاقي والالتزام الديني، وبين القوى الشهوية، والأهواء، والميول الشخصية من جنس، وعدوان، وأمن الخ. وهو صراع ـ ككل صراع نفسي ـ بغيض للنفس البشرية تحاول بشتى الأساليب أن تتخلص منه، وأن تجد له (حلاً). . تتوافق به القوى النفسية، وتنسجم في عملها، واتجاهاتها.

والفكر التبريري هو أبسط الأساليب، وأشملها في حل الصراعات الداخلية بين القوى الأخلاقية، والقوى الغريزية الشهوية، والميول، والأهواء. . ومن هنا يحاول الانسان دائماً أن يخدع ضميره الأخلاقي، ليمارس شهواته وأهواءه براحة بال. .

والمعنى السائد في الفكر التبريري، الذي يحاول التغطية على الانحراف، والتوفيق بين الأوضاع المنحرفة المائعة، وبين الدين هو (تغيير الرسالة)، وتحريفها لتنسجم مع واقع الانحراف، والانحلال. . ومن خلال الفكر التبريري هذا يغير الانسان الرسالة السماوية، ويحرفها، بدلاً عن أن يتغير بها. . ويشوهها. . وينزل بها إلى واقعه، بدلاً عن أن يصعد بها ويتنمّى.

ونستعرض هنا ألواناً من الفكر التبريري لتغطية الانحراف. . والخروج عن الاستقامة الشرعية، وطاعة الله سبحانه. . مستخلصة من واقع الحياة الدينية للمسلم المعاصر.

أ ـ تحوّل الولاء إلى أداة تبرير:

كان التشيع.. في أيامه الأولى رسالة تغييرية، وأصلاحية كبرى في جسم العالم الاسلامي تستهدف الالتزام (...) بقيم هذا الدين، والقضاء على كل التميعات، والانحرافات التي تولدت في المجتمع الاسلامي نتيجة لاختلاط الحضارات، وفقدان القادة المبدئيين، وكان التشيع حركة وعي ملتزمة.. متمحورة حول قيادات اسلامية نقية تشع على اتباعها التعبد، والزهد، والقيم، والالتزام.. (وما كانوا «الشيعة») يعرفون ـ يا جابر ـ إلا بالتواضع، والتخشع، والأمانة، وكثرة ذكر الله، والصوم، والصلاة، والبر بالوالدين، والتعاهد للجيران من الفقراء، وأهل المسكنة، والغارمين، وصدق الحديث، وتلاوة القرآن، وكف الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء[٩].

«إن شيعة علي كانوا خمص البطون، ذبل الشفاه، أهل رأفة، وعلم، وحلم، يعرفون بالرهبانية»[١٠]

والذي يبدو أنه حدث تغير اجتماعي في هذا الاتجاه زمن الإمام الباقر (ع).. أو بدأ واضحاً في ذلك الوقت.. أذ تكونت في الذهنية الشيعية مفاهيم، وأفكار تبريرية تغطي على الانحراف، وتستوعبه..

كمفهوم الشفاعة في صيغته المحرفة...

ـ ومفهوم أنه لا معصية مع حب أهل البيت (ع).. وقد يكون ذلك نتيجة للانعطاف الجماهيري على التشيع بعد مقتل الحسين (ع).. ونتيجة لظهور التيارات الغالية في الصف الشيعي.. وسوء فهم كلمات أهل البيت الواردة في تأثير منزلتهم.. ولا زالت هذه الأفكار تعيش في ذهن الانسان المسلم إلى اليوم

---

(٩) أصول الكافي ج ٢ ص ٧٤.
(١٠) أصول الكافي ج ٢ ص ٢٣٢.

تكرس بعده عن الشريعة وتحلله من الالتزامات الدينية.

وقد واجه الأئمة (ع) هذا التيار الذي يحاول تحريف التشيع، وتحويله من نقائه، وصفائه، وأصالته الاسلامية والتزاماته الحدية، إلى فكر يقدم التنازلات تلو التنازلات لواقع الانحراف، وسلوك التحلل، والتميع. وما أمامي من نصوص عنهم (ع) في شجب هذه الظاهرة أكثرها عن الامام الباقر (ع) وهو أمر قد تكون له دلالته التاريخية.

عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال:

«لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عز وجل»(*)

وعن جابر عن أبي جعفر (ع) قال لي:

«يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيع، أن يقول بحبنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله، وأطاعه.. يا جابر لا تذهبن بك المذاهب حسب الرجل أن يقول: أحب علياً، وأتولاه ثم لا يكونن مع ذلك فعالاً، فلو قال إني أحب رسول الله (ص) فرسول الله خير من علي (ع)، ثم لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئاً فاتقوا الله، واعلموا لما عن الله ليس بين الله، وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عز وجل (وأكرمهم عليه) اتقاهم، وأعملهم بطاعته.. ومن كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل، والورع»(**).

وهكذا فإن (الحب) لأهل البيت (ع) وتوليهم ليس تعويضاً، أو بديلاً عن الطاعة، والالتزام ـ كما تفهمه الأجيال المتخلفة ـ وإنما هو طريق اليها، وتأكيد عليها من خلال تجسيد القدوة الحية.. والقيادة المعصومة، والايمان بها

(*) اصول الكافي ج ٢ باب الطاعة ح ١.
(**) اصول الكافي ج ١ باب الطاعة ح ٣.

ومتابعتها، والاقتداء بها.

«ألا وإن لكل مأموم إمام يقتدي به ويستضيء، بنور علمه، إلا وأن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، إلا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع، واجتهاد، وعفة، وسداد»(*).

ب ـ الفهم الاجتماعي والسياسي للدين:

والاسلام كما نعرف رسالة شاملة.. فيها التعاليم الاجتماعية إلى جانب النظام السياسي والنظام الاقتصادي والتربوي.. الخ. ولكن في جوهره، وروحه استسلام لله تعالى، وعبودية كاملة له.

«إن الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين...»(**).

والانسان المسلم هو الإنسان الذي يلتزم بأحكام الله، ويتورع عن محارمه.. مهما بدت، وفي أي مجال شرعت من مجالات الحياة.. غير أن الكثيرين ممن يعيشون في هذا العصر ـ ومن أجل التوفيق بين انتمائهم التقليدي للدين من جهة، وبين التسيب السلوكي عندهم وتأثرهم بالمضمون الحضاري الغربي ـ يفهمون جوهر الإسلام في مجموعة من التعاليم الاجتماعية، والأخلاقية، وفي الالتزام السياسي بقضيته، وأما الجوانب الفردية فهي موضع إهمال وتجاوز، لأنها لا تتناسب مع السياق العام، الذي يبدو لهم الاسلام فيه.. وهؤلاء ـ في واقع الأمر ـ يأخذون من الإسلام.. ولا يأخذون بالإسلام منهجاً كاملاً للحياة.. إن الإسلام في جوهره فتنة لهذا الانسان، واختبار لحس العبودية لله عنده، ووسيلة لاظهار المضمون الأخلاقي الديني في شخصيته.. وهو لهذا شامل التشريع، واسع المجالات، فيه التعليم الاجتماعي إلى جانب

(*) نهج البلاغة الخطبة رقم ٤٥.
(**) اصول الكافي ج ٢ باب نسبة الاسلام ح ١.

النهج السياسي، والنهج التربوي الروحي، والنظام الأخلاقي والأحكام التي لا نعرف لها سراً، ولا حكمة. . والأحكام التي أريد بها اختبارنا، وفتنتنا. . ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيي عن بينه. ونحن ملزمون في كل ذلك محاسبون عليه مسؤولون عنه.

فليس الاسلام، إذن جمعية سياسية لا تجد فيها سوى الفكر الاجتماعي السياسي، والالتزامات السياسية والتنظيمية، وإنما هو أولاً (دين) وعبودية خالصة لله. . وهو بعد ذلك كل شيء. . سياسة، واقتصاد، واجتماع، وتربية. . و. . والمنطلق الأساسي للتربية، والبناء هو الالتزام بكل شيء في هذا الدين ـ عرفنا حكمته، أو جهلناها ـ وسبحان الله. . قال الانسان للانسان: نفذ ثم ناقش، وقبل منه ذلك عن طواعية، واختيار. . وقال الله للانسان لا تأكل من هذه الشجرة وقدم له حيثيات الأمر، والحكم ولكنه ناقش، وتفلسف، وعصى. . فخرج من الجنة، يعيش الهموم، والآلام. . وهذه عبرة من عبر قصة آدم (ع). .

ج ـ الجبر والارجاء:

مذهب الجبر، هو المذهب القائل بأن الفعل الإنساني في مجال الطاعة والمعصية وغيرهما هو ـ في حقيقته ـ فعل الله تعالى الواقع بمشيئته الأزلية. . وأما العبد فلا اختيار له. . أو إذا كان له اختيار، وقدرة فليس الفعل صادراً عنه. . وللجبر صورة علمية. . وأنصار باحثون. . وله صورة شعبية أيضاً نجد أنها تعيش في واقعنا المعاصر، ، كما عاشت في العصر الجاهلي.

﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾(١١)

﴿وسيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا

---

(١١) سورة النحل، آية ٣٥.

من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم﴾[١٢]

والارجاء، هو المذهب الذي مات أمام ضغوطات الفكر الحق. . ولكنه لا يزال يعيش في الوسط الشعبي. . ويؤكد على أن القيمة الحقيقة (هي) للايمان، وتقوى القلوب، وأن الأعمال الظاهرية لا يحاسب الله عليها، وليس لها قيمة من وجهة النظر الدينية. .

هذان الاتجاهان التبريريان ـ الجبر، والارجاء ـ يرجعان من الناحية التاريخية ـ حسب بعض التقديرات ـ إلى الحاكم الأموي (معاوية)، الذي حاول أن يكرس الانحراف ويبرر الفسق، والفجور، والخروج عن حدود الشرع، ودائرة الدين من خلال وضع الأحاديث من جهة. . والترويج للأفكار التبريرية كالفكرتين السابقتين. .

د ـ التشكيك بالحكم الشرعي، واستصغار الذنب:

وبعض الناس يرتكبون الذنوب، ويقترفون السيئات والمعاصي. . ويبررون ذلك عن طريق إنكار الحكم الشرعي الذي خالفوه لأنهم لا يجدونه في القرآن الكريم، ومسموعاتهم عن السنة. . ومن الواضح أن الانسان الاعتيادي لا يتاح له أن يبت بإنكار هذا الحكم، وذاك، وأثبات هذا، وذاك. . لأن مثل هذا الاثبات، وذاك النفي يحتاجان إلى خبرة طويلة، ومعايشة مستمرة للقرآن الكريم، والسنة المطهرة، وتاريخ الرسول (ص) والأئمة (ع)، وتدبر مستغرق فيها، وتخصص وتفرغ. . وليس من حق الإنسان أن يتسرع في إثبات الحكم، ونفيه، فإنه بذلك يضيف ذنباً إلى ذنبه وخطيئة إلى خطيئته.

«وإن أسوأهم (أصحابي) عندي حالاً وأمقتهم الذي إذا سمع الحديث ينسب الينا ويروى عنا فلم يقبله اشمأز منه، وجحده، وكفر من دان به، وهو لا يدري لعل

---

(١٢) سورة الأنعام، آية ١٤٨.

الحديث من عندنا خرج، وإلينا أسند، فيكون بذلك خارجاً من ولايتنا».

هكذا قال الامام الصادق (ع) والإنسان الذي لا خبرة له في مجال البحث الأصولي والفقهي والرجالي وسائر المجالات، التي تتصل بالتفقه بالدين، والتعرف على الشريعة، يجب عليه أن يرجع إلى أهل الخبرة ـ والرجوع إلى أهل الخبرة مبدأ عقلاني أقره الاسلام في كثير من المجالات ـ .

﴿فسألوا أهل الذكر أن كنتم لا تعلمون﴾(*)

«ومن كان من الفقهاء حافظاً لدينه صائناً لنفسه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه»(**).

واحتقار الذنوب، واستصغارها من الترضيات النفسية للمخالفة، ولكنه هو الآخر مما يزيد الذنب ذنباً، والخطيئة خطيئة فعن سماعة عن أبي الحسن (ع) يقول:

«ولا تستكثروا كثير الخير، ولا تستقلوا قليل الذنوب فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف»(***).

«أشد الذنوب، ما استهان به صاحبه»(١٣)

الصبر:

الوجه الآخر للارادة الربانية في شخصية المسلم هو الصبر. فأنت عندما تقيس الارادة الربانية من حيث نتائجها العملية إلى الشريعة.. تكون بذلك طاعة، والتزاماً، وعندما تنظر إليها باعتبار مواجهتها للأهواء النفسية، ودوافع

(*) سورة الانبياء، الآية ٧.

(**) وسائل الشيعة، صفات القاضي، باب ١٠.

(***) اصول الكافي، باب استصغار الذنب ح ٢.

(١٣) أصول الكافي ج ٢ ص ٢٨٧.

الانحراف، والتثبيط تكون صبراً. وعندما تنظر إليهما باعتبار دافعها الرباني وهدف التقرب إلى الله تكون «إخلاصاً» حسبما مر معنا سابقاً.

وقصة الصبر معنا هي قصة المفاهيم الاسلامية الممسوخة والمشوهة في الذهنية العامة للمسلمين.. تلك المفاهيم الدافعة.. والمحركة.. المفاهيم التي كانت يوماً وقود الثورة الاسلامية الذي لا يستهلك، وأداة تجاوز الانسان لصغاره.. وأهوائه قليلة الشأن.. ورياضة روحية تنشط الارادة، وتبني استقلال شخصية الانسان المسلم.

فأصبح الصبر ـ وهو واحد من هذه المفاهيم ـ أداة تخديرية.. أصبح (صبراً على الانحراف بعد أن كان صبراً على مواجهة الانحراف، والمنحرفين. وبعد أن كان صبراً على الثبات على طريق ذات الشوكة، وتحمل الأمانة، والالتزام بدين الله في احرج اللحظات وأقسى الظروف، أصبح صبراً على (التنصل) عن الالتزامات المبدئية في هذا الدين، وعلى مواجهة الضمير الديني الحي الذي ينبض بشيء من الحياة..

وليس التوكل.. بعيداً عنا.. التوكل الذي كان عوناً للمقاتل في الساحة، وللمجاهد في مراحل الصراع، وأداة للاستهانة بقدرات العدو الكافر، والثقة بالنفس.. أصبح هذا المفهوم الرائد.. والبعد الأصيل في شخصية المسلم.. اتكالاً مريضاً، وتفويضاً، وتكاسلاً من تحمل أعباء المسيرة. والزهد الذي يمثل قمة التحرر، والانعتاق، وتجاوز الأهواء الشهوات والتحرر الداخلي الحقيقي للانسان، أصبح كلمة ذليلة حتى في أسماع بعض المسلمين المؤمنين نتيجة لما قرنت به من الممارسات الشاذة، والوان القطيعة الاجتماعية، والهروب عن الحياة.

وهكذا دائماً يغير الانسان المفاهيم التي جاءت لتغييره وينزل بها إلى الحضيض بدلاً من أن يرقى معها إلى الكمال.. فليس من الهين، والسهل أن يرقى الإنسان، وإنما التصاعد معاناة، وزهد، ومرارة.. ومن أجل أن يبقى في حالته المريحة هذه فعليه ـ حتى يريح ذاته من الشعور بالانفصام بين الفكر،

والسلوك ـ أن يحرف مفاهيمه الثورية وأن يسحبها إلى وراء، بدلاً من أن يتقدم معها إلى أمام. . هذه هي خلاصة التحريف الاجتماعي للمفاهيم، والرسالات، وعلينا باستمرار أن نرجع إلى النبع الأصيل لتوضيح مفاهيمنا لا إلى عقلية الانحراف والتخلف والتحلل.

والصبر في مفهومه الاسلامي الأصيل تمرد الارادة المسلمة على أهواء النفس، وشهواتها. . التي تهدف إلى اخلاد الانسان إلى الأرض. . وهو امتلاك النفس، وحبسها على الخط المستقيم، ، في مواجهة حازمة للضغوط الخارجية والداخلية على السواء. . إنه الصبر على الالتزام المر بقيم هذا الدين. . في مواجهة قوى الضغط في الداخل، والخارج، وليس هو الصبر على الخلود الى الطين. . في مواجهة الضمير الديني، وقوى الخير النابضة للحياة في النفس البشرية. . وهو الصبر على تحمل مشاق الطريق، وأعباء المسيرة، واجتناء الآلام، والغربة والعذاب في سبيل الله، تحقيقاً للارادة الربانية، وتمثلها في النفس، والسلوك. . وليس الصبر على الانحراف والمنكرات، والمحارم تحقيقاً لقيم الكسل والرخاء، والأمن والراحة. . في دنيا مليئة بالمتاعب، والمكاره، وإشكال الآلام والهموم.

وعلى هذا الأساس أصبح الصبر ركناً ركيناً من الإيمان.

«الصبر رأس الإيمان»(*)

«الصبر من الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»(**)

«ولا إيمان لمن لا صبر له»(***)

«الجنة محفوفة بالمكاره، والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا

(*) اصول الكافي ج ٢ باب الصبر ح ١.
(**) اصول الكافي ج ٣ باب الصبر ح ٥، ٢.
(***) اصول الكافي ج ٢ باب الصبر ح ٤.

دخل الجنة»(*).

الصبر عند البلاء:

النوازل والمكاره، وشظف العيش، وفقدان الأعزة، والأحبة، والغربة بين الناس.. هذه وأمثالها، يتعرض لها المؤمنون في كل مكان.. وخصوصاً المجاهدون في الله منهم كضريبة لصراعهم مع الكفر، ومواجهتهم للجاهلية في كل زمان ومكان وعلى كل المستويات.. وكتدخل الهي أريد به تمييز الصادق من الكاذب، وتمحيص الفئة المجاهدة، وإعدادها وتعميقها.. لتكون حلقة ربانية ضمن حلقات مسلسل الهدى الإلهي، الذي سوف ينتهي لا محالة إلى بسط الحق، والعدل وانتشار القسط، والخير بعد أن ملئت الأرض ظلماً وجوراً، وعانت البشرية من آلام الصراع بين الهدى، والضلال.. وقد جعل الله سبحانه البلاء، والآلام، والمكاره في صلب تخطيطه للحياة، وفي صلب تخطيطه للدعوة، والدعاة.. كما يوضح ذلك كل عرض مدرسي مبسط لنظرية الفتنة في القرآن الكريم..

هذه المصائب، والآلام المتعددة في الحياة فتنة للانسان المسلم يسعد فيها من سعد، ويشقى فيها من يشقى، ويبتعد عن الله.. ويعكس لنا (النص الإسلامي) هاتين الاستجابتين المختلفتين للاصابة بالبلاء..

١ - ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾[١٤].

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين﴾[١٥].

(*) اصول الكافي ج ٢ باب الصبرح ٧.

(١٤) سورة آل عمران، آية ١٦٥.

(١٥) سورة الحج، آية ١١.

﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾[16].

﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾[17].

﴿وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الانسان كفور﴾[18].

وهكذا فإن (التزلزل) و(الارتداد) و(التطير) و(القنوط) و(كفران نعمة الله) هي النتائج السلبية التي يصل إليها بعض الناس من خلال فتنة البلاء، والمصيبة..

٢ ـ وأما المؤمنون فلهم شأن آخر من البلاء.. إذ تشحذ فيهم النوازل الشعور بالحاجة إلى الله، والتوجه إليه وتزيدهم ثباتاً، وصلابة، وعناداً في الحق، ويجددون الصبر والشكر لله، ويعيدون تقييم ذواتهم، واختبارها..

﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[19]

﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾[20]

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا﴾[21].

﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرين على ما

---

(١٦) سورة الأعراف، آية ١٣١.
(١٧) سورة الروم، آية ٣٦.
(١٨) سورة الشورى، آية ٤٨.
(١٩) سورة البقرة، آية ١٥٦.
(٢٠) سورة آل عمران، آية ١٥٣.
(٢١) سورة آل عمران، آية ١٤٦.

أصابهم﴾[٢٢]

﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾[٢٣]

﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾[٢٤]

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا﴾[٢٥]

﴿فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾[٢٦].

وهكذا فالمؤمن عند المصيبة، والبلاء يراجع تصوراته الكونية ووعيه الكوني للحياة، ولا يحزن، ولا يهن، ولا يضعف، ولا يستكين، بل على العكس يصبر، وينتصر، ويرضى بقضاء الله، وقدره، ويتضرع إلى الله ويلتجيء إلى الله . . ويزداد إيماناً وثباتاً.

﴿الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم أيماناً، وقالوا حسبناً الله ونعم الوكيل﴾[٢٧].

بعد هذا ننتقل إلى السنة، وهي تتحدث عن حتمية البلاء، والنوازل بالنسبة إلى المؤمن، وموقفه تجاه النازلة ودرجات المبتلين . .

«إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل»[*]

«إن لله عز وجل في الأرض من خالص عباده، ما ينزل من السماء تحفة إلى الأرض إلا صرفها عنهم إلى غيرهم ولا بلية إلا صرفها إليهم»[**]

---

(٢٢) سورة الحج، آية ٣٥.
(٢٣) سورة الشورى، آية ٣٩.
(٢٤) سورة البقرة، آية ١٧٧.
(٢٥) سورة التوبة، آية ٥١.
(٢٦) سورة الأنعام، آية ٤٢.
(٢٧) سورة آل عمران، آية ١٧٣.
(*) اصول الكافي ج ٢ باب ابتلاء المؤمن ح ١.
(**) اصول الكافي ج ٢ باب ابتلاء المؤمن ح ٥.

«إن المؤمن يبتلى بكل بلية، ويموت بكل ميتة إلاّ أنه لا يقتل نفسه»(*).

«إن المؤمن من الله عزّ وجل لبأفضل مكان ـ يكرر الامام ذلك ثلاثاً ـ أنه ليبتليه بالبلاء، ثم ينزع نفسه عضواً عضواً من جسده، وهو يحمد الله على ذلك»(**).

«ولو يعلم المؤمن ماله من الأجر على المصائب لتمنى أنه قرض بالمقاريض»(٢٨)

«أن الحر حر على جميع أحواله: أن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسر وقهر، واستبدل بالصبر عسراً»(***).

ومن خلال القرآن الكريم، والسنة المطهرة يتبين، أن المؤمن في أيام المحنة، والبلاء، ووقت المكاره، والمصائب. . يتمثل موقفه. . في (الثبات) والاستقامة على الخط الرباني عقيدة. . وروحاً. . وسلوكاً فلا يتنازل، ولا يستقل منه شيء.

«المؤمن أصلب من الجبل، الجبل يستقل منه. . والمؤمن لا يستقل منه شيء»(****).

ولا يتنازل عن جهاده، وعمله في سبيل الله لأن.

«المؤمن مجاهد. . يجاهد في دولة الحق بالسيف، ويجاهد في دولة الباطل بالتقية»

(*) أصول الكافي ج ٢ باب ابتلاء المؤمن ح ١٢ .
(**) اصول الكافي ج٢ باب ابتلاء المؤمن ح ١٣ .
(***) اصول الكافي ج ٢ باب الصبر ح ٦ .
(****) اصول الكافي ج ٢ باب المؤمن علاماته وصفاته ح ٣٧ .
(٢٨) أصول الكافي ج ٢ باب ابتلاء المؤمنين .

ولا يعاني من الضعف والتردد والتلكؤ. .

﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا﴾(٢٩)

ولا تصدر منه كلمة جزع، أو سخط، ولا يتشكك، ولا يتزلزل. .

هذا ما يتمثل موقفه فيه أولاً . . ويتمثل موقفه ثانياً في (الاستزادة) والنمو من خلال المحنة، والبلاء.

﴿الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً﴾(*).

وهذه زيادة في الايمان. . وهناك زيادة في اللجوء إلى الله تعالى، والانشداد له.

﴿فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾(**).

وهناك استبصار للذات واكتشاف لها. . لاحظ قوله تعالى:

﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، ما استك والله يحب الصابرين، وما كان قولهم، إلا أن قالوا، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واسرافنا في أمرنا﴾(***).

إلى آخر مجالات الاستزادة على المستوى الفردي والجماعي. .

والملاحظ ـ على مستوى النصوص، وعلى المستوى التحليلي ـ أن كلاً من الثبات، والاستقامة، والاستزادة من الفتنة والبلاء لا يتم إلا من خلال

---

(٢٩) سورة آل عمران، آية ١٤ .

(*) سورة آل عمران، آية ١٧٣ .

(**) سورة الانعام، آية ٤٢ .

(***) سورة آل عمران، آية ١٤٦ .

الصبر، والتحكم في الأهواء التي تنزع بالإنسان المؤمن إلى الانحراف، وتطليق الشريعة، والحيود عن الجادة. . لكي يتوافق مع مجتمعه ويبعد عنه شبح الغربة، ويتخلص من الآلام، والمتاعب والمكاره، وأشواك الطريق. .

الصبر عند الأهواء:

والأهواء لدى الانسان كثيرة. . منها الأصيل في النفس ومنها المتشكل، والمتفرع عن معان أصيلة. . وهو يعاني منها في أكثر من مجال. . أو في كل مجال من مجالات العمل في سبيل الله. . مع النفس. . ومع الناس. والصبر هو التحكم في هذه الأهواء والسيطرة عليها. . وعلى الانفعالات وعن الإمام (ع):

«من ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب وإذا اشتهى، وإذا غضب، وإذا رضي، حرم الله جسده على النار»(*)

ومن أجل تسهيل البحث، وتوضيح المطلب نصنف الصبر ـ من زاوية مما يصبر عليه ـ إلى الصبر في المجال الروحي. . أو العبادة. . والصبر في المجال الأخلاقي بالمعنى الخاص. . والصبر في ميدان العمل لله. . وهداية النفس. . «العمل الاجتماعي».

أ ـ الصبر على العبادة:

قال تعالى:

﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾(٣٠)

التقرب إلى الله تعالى جوهر هذا الدين وأساسه المتين الذي بنيت عليه انظمته في المجالات كافة. . ويتم التقرب إلى الله تعالى في أوضح صورة عن

(*) من لا يحضره الفقيه ج ٤ ح ٥٨٦٠.

(٣٠) سورة طه، آية ١٣٢.

طريق العبادة الخاصة من الصلاة والذكر، والدعاء، والقرآن الكريم.. وللانسان من المعوقات عن العبادة ـ أداء، واستفادة ـ أهواء كثيرة تضغط عليه، وتحول بينه، وبين أن يؤدي العبادة، أو يستفيد.. من قبيل الميل الجنسي في الذهن البشري، والانشداد الخيالي إلى المعاني المادية، وصعوبة التعامل مع الغيب والتعب البدني، والارهاق الناتج عن السعي في سبيل الحياة المادية، والألفة، والعادة التي تمنع من عيش الصلاة عيشاً جديداً منتجاً، والاستثارة الروحية بالأذكار، والدعوات.. والمشاغل النفسية،، وهموم الحياة التي تشغل بال الانسان وهو يؤدي الصلاة لله..

وبسبب هذا كله، وغيره، احتاج المؤمن في أداء العبادة والاكثار منها، وعيشها، والاستفادة منها، ومداومتها إلى تحكم في أهوائه، ودوافعه النفسية المثبطة له عن القيام بحق الله في العبادة، والذكر، والشكر، وإلى مراجعة مستمرة لمفاهيمه عن الكون، والحياة وتصوراته الأصيلة عن هذا الدين حتى يعيشها أحاسيس منشطة، ومحركة، ودافعة لعيش الصلاة وعيش العبادة.. دروساً روحية، ودورات تربوية، تتم بعين الله، ورعايته، وأمامه، تساعد المؤمن على تطهير الذات وتحريرها، والعرو بها في مدارج الرقي الروحي والكمال النفسي.

ب ـ الصبر الأخلاقي:

١ ـ الصبر عند الغضب، والغيظ..

﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾(*)

﴿والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس﴾(**)

(*) سورة الشورى، آية ٣٧.

(**) سورة آل عمران، آية ١٣٤.

وفي السنة:

«من كف غضبه ستر الله عورته»(*).
«فيما ناجى الله عز وجل به موسى: ياموسى أمسك غضبك عمن ملكتك عليه أكف عنك غضبي»(**).
«من لم يملك غضبه لم يملك عقله»(***).
«من كشف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة»(****).
«ما أحب أن لي بذل نفسي حمر النعم، وما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها»(*****).
«ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة»(******).
وفرج»(*******).

٢ ـ الصبر أمام شهوة البطن، والفرج.

«ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن، وفرج»(*******)

٣ ـ الصبر في مواجهة هوى الثرثرة، الكلام الزائد والمحرم... في الخبر (جاء رجل إلى النبي (ص) فقال يا رسول الله أوصني. قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني. قال: احفظ لسانك قال: يا رسول الله أوصني. قال: احفظ لسانك، ويحك وهي يكب الناس على مناخرهم في النار إلا

(*) اصول الكافي ج ٢ باب الغضب ح ٦.
(**) اصول الكافي ج ٢ باب الغضب ح ٧.
(***) اصول الكافي ج ٢ باب الغضب ح ١٣.
(****) اصول الكافي ج ٢ باب الغضب ح ١٤.
(*****) اصول الكافي ج ٢ باب كظم الغيظ ح ١، ١٢.
(******) اصول الكافي ج ٢ باب كظم الغيظ ح ٥.
(*******) اصول الكافي ج ٢ باب العفة ح ١.

حصائد السنتهم»(*)

وفي الخبر عن الرضا (ع):

«من علامات الفقه: الحلم، والعلم، والصمت أن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، أنه دليل على كل خير»(**)

ج ـ الصبر على الكتمان:

يحب الانسان التظاهر، والثرثرة، والتجريح بالآخرين وكشف عيوبهم، واسرارهم، ويحب ان يكشف حاله ومشاريعه للناس، وبيان كل ما في ذهنه من حقائق وافكار. . ان اللسان. . والتحدث في ما لا ينبغي التحدث به محطّ اهواء كثيرة. . هوى الظهور، والبروز امام الناس بمظهر العارف بهذه الامور. . وهوى الحط من كرامة الآخرين وتجريحهم. . وهوى الالفة، مع الآخرين من خلال طرح كل ما في نفسه. . وضغوط الاصدقاء، والعلاقات بهم ومن هنا، فان الكتمان عنصر يحتاج الى الصبر، والمعانة. . ليكون بعد ذلك سجية، وسليقة وكل الموارد التي يصبر عليها الانسان ابتداء ثم يالفها، ويعتادها، ولا يشعر معها بالكلفة والعناء.

الكتمان ضرورة. .

(استعينوا على اموركم بالكتمان)

(وددت اني افتديت خصلتين في الشيعة ببعض لحم ساعدي النزق، وقلة الكتمان)

كما ورد عن علي بن الحسين (ع): الكتمان ضرورة، وواجب في كثير من الاحيان من الزاوية الشرعية لحفظ كرامة الآخرين. .

وضرورة للحفاظ على النفس. . وضرورة للحفاظ على الآخرين. . وضرورة لنجاح الكثير من المشاريع التي يجب ان لا تسلط عليها الاضواء، والملاحقات من قبل الآخرين، وتدخلاتهم السلبية، وفضول الكثير من الناس. . وفي جل الناس

(*) اصول الكافي ج ٢ باب الصمت ح ١٤.
(**) اصول الكافي ج٢ باب ٥٦ ح ١.

شيء من الفضول . .

١ ـ كتمان عيوب الناس، وسترها . . مما ينبغي ، ويجب الصبر عليه لان :

(الغيبة اسرع في دين الرجل المسلم من الاكلة في جوفه)(٣١)

ولان :

(من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروءته، لسيقط من أعين الناس اخرجه الله من ولايته الى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان)(٣٢).

ولان الله تعالى يقول:

﴿ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه﴾(٣٣).

وللغيبة موارد ذكر الفقهاء جوازها فيها، ولكنها موارد مستثناة، والاصل في الغيبة الحرمة . . فينبغي التورع من ذكر عيوب الناس، وكشف ما ستره الله تعالى من امراضهم وذنوبهم . . وكثيراً ما ينتهي باحدنا الغيظ، والحقد، والتنافس الى ذكر مساوىء اخوانه في الله . . وفضحهم بما فيهم وما ليس فيهم. مما يقطع بين المؤمنين من ولاية . . فان.

(من قال لاخيه المؤمن اف، انقطع ما بينهما من ولاية، ومن قال له: انت عدوي كفر احدهما، ومن اتهمه انماث الايمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء).

وهكذا الحال في الظنون السيئة والاحتمالات التي لا ينبغي للمؤمن ان يتحقق فيها، ويشيعها الا عند الضرورة الشرعية لذلك . . واين هذا من واقع التجريح والتشهير، والغيبة، والبهتان، وغير ذلك من المعاني التي يعاني منها واقعنا الاجتماعي . . ؟!

٢ ـ كتمان اسرار الآخرين التي يخافون كشفها ويتوقع الضرر الاجتماعي عليه منها، وعدم الاذاعة والثرثرة في هذا الميدان، مما يحتاج، ويجب فيه هو الآخر

(٣١ ـ ٣٢) أصول الكافي ج٢ ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.
(٣٣) سورة الحجرات، آية ١٢.

الصبر والصمت. . فقد وردت النصوص الكثيرة في تحريم الاذاعة، وكشف السر.

فعن ابي عبد الله (ع):

(ما قتلنا من اذاع حديثنا قتل خطا، ولكن قتلنا قتل عمد)(*).

(من اذاع علينا حديثنا سلبه الله الايمان)(**).

وعن ابي جعفر (ع):

(يحشر العبد، يوم القيامة، وماندى دماً، فيدفع اليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يارب انك لتعلم انك قبضتني، وما سفكت دما فيقول: بلى سمعت من فلان رواية كذا، وكذا فرويتها عليه، فنقلت حتى صارت الى فلان الجبار فقتله)(***).

وعن ابى عبد الله (ع): تلا هذه الآية.

﴿ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾(٣٤).

قال: (والله ماقتلوهم بايديهم ولاضربوهم باسيافهم، ولكنهم سمعوا احاديثهم فاذاعوها فاخذوا عليها، فقتلوا فصار قتلاً واعتداء، ومعصية)(****).

وعنه (ع)

«من استفتح نهاره بإذاعة سرنا، سلط الله عليه حر الحديد وضيق المحابس)(*****).

---

(٣٤) سورة البقرة، آية ٦١.

(*) اصول الكافي ج ٢ باب الاذاعة ح٤.

(**) اصول الكافي ج ٢ باب الاذاعة ح٣.

(***) اصول الكافي ج ٢ باب الاذاعة ح٥.

(****) أصول الكافي ج ٢ باب الاذاعة ح ٦.

(*****) أصول الكافي ج ٢ باب الاذاعة ح ١٢.

د ـ الصبر على الاستقامة الفكرية:

وعدم المساومة في الأفكار، وتقديم التنازلات، والتميعات الفكريـة أمام ضغوط القيم الاجتماعية، والحضارية، والأشكال الأخرى من ضواغط الحياة.

قال الله تعالى:

﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا.. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا.. إذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات. ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾(٣٥)

تتحدث هذه الآيات.. عن محاولة جاهلية لفتن الرسول (ص) عما أوحى إليه من الله تعالى.. أو بعض ما أوحى إليه.. ويتلخص هذا العرض في أن يقدم الرسول بعض التنازلات الفكرية للمشركين في مكة، لينضموا إلى صفوف الدعوة..

«لقد حاولوا هذه المحاولة في صور شتى.. منها: مساومتهم له أن يعبدوا الهه، في مقابل أن يترك التنديد بالهتهم، وما كان عليه آباؤهم.. ومنها مساومة بعضهم له أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرمه الله ومنها طلب بعض الكبراء، أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء».

«هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً محاولة إغرائهم ـ، لينحرفوا ـ ولو قليلاً ـ عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة. ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية، إنما هم

---

(٣٥) سورة الاسراء آية ٧٣، ٧٤، ٧٥.

يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها، ولو بالتنازل عن جانب منها ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق. وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها، ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك أن يقف عندما سلم به أول مرة، لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء». .

«والتسليم في جانب، ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها: هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة، والله وحده الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم. ومتى دبت الهزيمة في أعماق السريرة فلن تنقلب الهزيمة نصراً». .

«لذلك امتنّ الله على رسوله (ص) أن ثبته على ما أوحى الله، وعصمه من فتنة المشركين له، ووقاه الركون إليهم، ولو قليلاً، ورحمة من عاقبة هذا الركون، وهي عذاب الدنيا، والآخرة مضاعفاً، وفقدان المعين، والنصير»(٣٦).

وتنشأ المساومة الفكرية والتنازلات الفكرية من مناشيء مختلفة أهمها اثنان:

١ ـ التعجيل بتقدم الدعوة، ونمو العمل في الوسط الاجتماعي. . وهنا يتم التنازل عن بعض أفكار الرسالة الأصيلة لعدم تقبل الناس لهذه الأفكار، ورفضهم لها، حتى تتقدم الدعوة بشكل عام، وإن كان على حساب التفاصيل وبعض الأجزاء منها. . ومن هذا القبيل التنازلات الفكرية الكبيرة التي قدمتها الأحزاب الشيوعية الأوروبية بعد أن وقف نموها، وتجمدت فعاليتها في المجتمعات الغربية ذات التقاليد الفكرية الخاصة(*).

---

(٣٦) في ظلال القران الشهيد سيد قطب م ٥ ص ٣٥١ وما بعدها.

(*) من الواضح أن هذا البحث كتب قبل التطورات الأخيرة والتي أعلنت الشيوعية فيها أفلاسها واسقطت كل ركائزها الفكرية. . .

٢ ـ تأثر أصحاب الدعوة بالقيم الحضارية والفكرية للمجتمع الذي ينوون تغييره. . وذلك لأنهم أبناء هذا المجتمع يؤثر فيهم من حيث يشعرون، أو لا يشعرون عن طريق الإيحاء الاجتماعي، والبنية الفكرية، ويغلب هنا الارتباط الحضاري، والاجتماعي عند هؤلاء على الارتباط المبدئي، والرسالي فيطمسون بعض معالم رسالتهم بسبب انتمائهم الجزئي إلى حضارة مختلفة.

ومن هنا احتاج المؤمنون الرساليون إلى (مَلَكة صبر) عالية يواجهون بها الضغوط السياسية، والاجتماعية، وضغوط التعجل والترف في داخلهم. . التي تعمل على تمييع شخصيتهم الفكرية، واحتوائهم فكرياً، وإلى انشداد خاص بالله تعالى. . ينمي فيهم الاستقلال عن الجو المنحرف ويضعد من درجة تحكمهم بعواطفهم، وانفعالاتهم الآنية، ومن هنا أمر الله تعالى رسوله (ص) ـ بعد أن ذكر العرض الجاهلي ـ بالصلاة.

﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر أن قرآن الفجر كان مشهوداً. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾(٣٧).

هـ ـ الصبر على الاستمرار، والفعالية العملية:

إن (خوف) الإنسان من مخاطر الطريق، و(شعوره بالغربة) في مجتمع يتناقض مع أفكاره، ومبادئه، و(ملله) من العمل و(الفته) له، وكذلك (انشغاله) النفسي بالدنيا من جاه، ومال، وملذات، و(تزلزل) ثقته بالصف، (ووساوسه) الشيطانية في الداخل و(ازدراء) أعين الناس له، ولمن يقوم معه، و(روح الفردية) وحبه الاستقلال، هذه كلها وغيرها عوامل تحول. . أو تثبط أو تضعف من الروح العملية من الاستمرار على خط العمل لله تعالى، والفعالية والنشاط عن

---

(٣٧) سورة الاسرآء، اية ٧٩.

المواصلة.. ومن هنا احتاج المؤمن كذلك ليحفظ استقامته على خط العمل، وفعاليته فيه إلى ملكة صبر يواجه بها أهواء الانفصال، والبرود في العطاء..

و ـ الصبر على الاستقامة في خضم العمل الاجتماعي

تعتمد الروح العملية والنشاط الاجتماعي في الاساس على سرعة المبادرة وسرعة الحركة والاداء على السرعة في تقييم الناس.. وتقديم الافكار، وتصحيحها، والسرعة في إعطاء الصلاحيات.. الخ. والانسان عندئذ في هذه الحركة السريعة قد لا يحفظ انضباطه الشرعي، ويتقيد بحدود الإسلام فيكون أمره عليه غمة.. ويدخل في الانحراف من حيث هو يعمل للقضاء عليه..

الإنسان العامل في الحقل الاجتماعي معرض اكثر من غيره.. إلى الوقوع في خطيئة (التضليل) وتربية الناس على الأفكار المنحرفة التي دخلت حوزته نتيجة للتعجل في تقديم الأفكار، وتربية الآخرين.. وهو معرض أكثر من غيره للوقوع في خطيئة (ظلم) الناس، واتهامهم، وتجريحهم وذكر ما ليس فيهم من العيوب، وهدر كرامتهم.. وهو معرض أكثر من غيره إلى إعطاء الصلاحيات لغير أهلها، ووضع الشيء في غير موضعه..

ولعل من اصعب الأشياء في ميدان العمل الاجتماعي هو الموازنة بين الانضباط الشرعي من جهة، وبين الروح العملية، والفعالية الاجتماعية من جهة أخرى.. ولهذا ينبغي للإنسان المؤمن أن يعاني في هذا الميدان، ويكتوي بنار هذه المعاناة.. ويجاهد في الله.. نفسه حتى يهديه الله تعالى سبله، ويجعل الاستقامة، والفعالية سليقة، وطبعاً له لا يجد حرجاً، ولا صعوبة فيه.. والله تعالى مع المحسنين.

الاخلاص:

الوجه الثالث للارادة الربانية الحاكمة في الشخصية الإسلامية، هو الاخلاص. والناس غير المؤمنين على قسمين:

١ ـ الناس الذين لا يملكون أنفسهم أمام شهواتهم الرخيصة الآنية ورغباتهم العاجلة كالجنس، والمال، والأكل. . ولا يتمتعون بأفق واسع، ونظر بعيد. .

٢ ـ الذين يملكون أنفسهم أمام شهواتهم الرخيصة ورغباته العاجلة، وذلك بأمل تحقق مكاسب شخصية أكبر في الأصل. . وهؤلاء يمثلون نحواً من التجاوز بالنسبة للآخرين من حيث (نوعية) الهوى الذي يعملون له، والزمن الذي يحققون فيه هدفهم الشخصي. .

فالإنسان من النوع الأول ينطلق من هوى الطمع في المال وشهوة البطن، والفرج، وليس هذا النوع على استعداد لأن يضحي بهذه الأمور. . في أي حقل كان. . لأن هذه الأشياء في وعيه (هي الأهداف التي يستحق أن) يضحي من أجلها ولا يضحي بها من أجل شيء آخر. . أما الإنسان من النوع الثاني فهو ينطلق من أهواء أخرى. . لنسمها بالأهواء المعنوية. . مقابل الأهواء المادية. . من قبيل هوى (العظمة، والمجد، والخلود) وهوى (التحكيم، والسيطرة، والتسلط) وهوى (تحقيق الذات من خلال تحقيق المبادىء، والأفكار التي يؤمن بها) وهوى (الانتصار للعرق، والقومية، والوطن). . وغير ذلك من المعاني التي تمثل توسعاً في دائرة، ونطاق الذات الفردية. .

والانسان من النوع الأول أنسان عجول، وليس مثقفاً في إبداء رغباته، وإظهار شهواته، فلا هو يصبر على تأجيلها ولا هو بالذي يتفنن في العمل من أجلها. وهذا بخلاف الانسان من النوع الثاني. . الذي يملك النفس الطويل في

تحقيق أهدافه، والسعي وراءها.

والشخصية الاسلامية قسم ثالث، يختلف نوعياً عن القسمين السابقين، وليست هذه الشخصية بأحد النمطين السابقين إذا أضفنا له الإيمان.. والالتزام السلوكي والمظهر الديني.. فإن الإسلام كما يحاول تغيير المضمون العقائدي.. والسلوك الاجتماعي، كذلك يهدف إلى تغيير المضمون النفسي والوجداني، ودوافع السلوك، وبواعث الأعمال.. لأن الإسلام يبني صياغة جديدة للإنسان، ويحاول أن ينشأ خلقاً آخر من الناس يتميز عن كل ما عرفه التاريخ البشري وتعرفه الحضارة المادية اليوم بأشكالها، ومظاهرها المختلفة من ناس.. والإسلام إذ يحاول إنشاء إنسان جديد.. فهو يهمه في هذا الانشاء المضمون أكثر من الشكل.. وتهمه النية بقدر ما يهمه العمل لأن خلق الإنسان العابد.. الذي يحكم الله تعالى في كل جوانب حياته.. وهذا هو هدف الإسلام التربوي.. لا يتم إلا بتطهير النية، وربطها بالله تعالى.. وهذا هو الإخلاص. فالإخلاص، هو أن يكون الدافع على العمل، والباعث له (التقرب) إلى الله، والحصول على مرضاته. ومن الممكن أن يتم هذا عن طريق أحد الدوافع التالية التي تشترك جميعاً في كونها دوافع دينية هدفها الله تعالى:

١ ـ الدافع الأخلاقي: وهو أن تمتثل.. وتؤدي أعمالك بسبب أن الله تعالى يأمر بها.. وأنه تعالى أهل للعبادة وواجب الطاعة بحسب رؤية العقل العملي للإنسان.

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

٢ ـ الدافع الوجداني العاطفي النابع من حب الله تعالى والأنس به. والتشوق إليه.

٣ ـ الدافع (الرباني/الذاتي) وهو أن تتقرب إلى الله تعالى، وتطلب رضاه من أجل تأمين سعادتك الآخروية، أو الحصول على نتائج عملية في الحياة الدنيا بنحو تعي أن هذا الهدف الذاتي، لا يحصل من دون توسيط الله من خلال

التقرب إليه، وليس نتيجة طبيعية لفعلك الذي تقوم به.

إن الدافع هو الأساس النفسي للفعل.. والمقياس للقيمة النفسية التي يصدر عنها الفعل، كالإحساس بالواجب الأخلاقي، وحب الله، وحب رضاه وجنته، أو الخوف من عقابه. ويختلف (الدافع) عن (الهدف) في أن هدف الفعل، هو النتيجة التي تقصد إليها في أدائك للفعل.. فالحصول على الجنة هدف، والوقاية من النار هدف أما حب الجنة والخوف من النار فدافعان للعمل.

وهناك أهداف اجتماعية للعمل فالهدف من الوعظ هو هداية الإنسان، والهدف من هداية الفرد تكثير عدد المؤمنين.. وتكثيرهم وسيلة لهدف آخر. والعمل من أجل تحقيق هذه الأهداف لا يتنافى مع الإخلاص.. لأننا في هذه الحالة نسأل لماذا يسعى الإنسان إلى هذا الهدف ويخطط له؟ وما هو الدافع النفسي له في ذلك؟ فإذا لم يكن الدافع شخصياً أنانياً، وكان خالصاً لله.. كان هذا العمل في طريق الاخلاص، وعملاً مخلصاً من دون شك، وبكلمة أخرى: إن هذه الأهداف هي نفسها محبوبة عند الله تعالى أو مأمور بها من قبله، وهي لهذا من الممكن أن تقع أهدافاً في عمل خالص لوجه الله الكريم، ولا يتنافى قصد التوصل إليها بالعمل الخاص مع قربية هذا العمل..

الاخلاص هو المقياس للقيمة الحقيقية للعمل:

ينظر ابن الحضارة الغربية - سواء كان يعيش في الغرب، أو الشرق أو في أوساطنا - الى العمل البشري ويقيمه على أساس من عطائه، ونتائجه، ودوره في الحياة الفردية، أو الاجتماعية، ولا يلتفت لى النوايا، والدوافع لهذا العمل..

أما الإسلام، من هذه الوجهة يلزم بمجموعة كبيرة من الأعمال، من دون أن يشترط فيها شكلاً خاصاً للباعث، والدافع النفسي وراءها. وذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، ونفقة الزوجة، وتوفير الطب والأطباء.. فهذه الأعمال، وغيرها يلزم بها التشريع الإسلامي من دون أن يشترط صدورها عن قصد التقرب إلى الله تعالى.. لأن لهذه النشاطات مصالح

ملزمة في أنفسها تتحقق من دون قصد القربة.. وهناك الواجبات، أو المستحبات العبادية، وهي النشاطات التي يطلبها الإسلام من اتباعه مشروطة بنية التقرب، وقصد القربة إلى الله تعالى.

وعلى هذا.. فمن الممكن في القسم الأول أن يقوم الإنسان المسلم بهذه النشاطات المذكورة.. ويسقط بها الوجوب الشرعي، ويبرىء ذمته من عهدة التكليف، وعبء المسؤولية حتى لو لم يقصد التقرب، وإنما قصد السمعة والرياء أو دفع اللوم والنقد وما شاكل ذلك.

وأما في القسم الثاني ـ العبادات ـ فهي لا تصح إلا بقصد القربة، ونية التقرب إلى الله تعالى.. بل يحرم أن يؤتى بها رياء، وسمعة..

ولكن هذا كله من الزاوية التشريعية.. وأما من الزاوية الأخلاقية الإسلامية، فإن كل عمل ليس له قيمة إلا إذا كان صادراً عن إخلاص لله تعالى لأن قيمة العمل (قبوله).. ولا يتم (قبول) العمل من الله تعالى إلا بالإخلاص، وإن امكن ان يكون صحيحاً مسقطاً للتكليف مبرئاً للذمة من دون إخلاص.

وبهذا جاءت النصوص عنهم (ع):

«لا عمل إلا بنية»(*)

«إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى، فمن غزى ابتغاء ما عند الله فقد وقع أجره على الله عز وجل ومن غزى يريد عرض الدنيا، أو نوى عقالاً لم يكن له إلا ما نوى»(**)

عن رسول الله (ص):

«اخشوا الله خشية ليست بتعذير واعملوا لله في غير رياء، ولا سمعة فإن من عمل لغير الله، وكله الله إلى عمله يوم القيامة»(***)

(*) أصول الكافي ج ٢ باب التيه ح ١.

(**) وسائل الشيعة، باب وجوب النية ح ١٠.

(***) أصول الكافي ج ٢ باب الرياء ح ١٧.

عن علي (ع):

«إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل، اجعلوها في سجين، إنه ليس أياي أراد بها»(*).

عن الصادق عن الرسول (ص):

«اجعلوا أمركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فإن ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله»(**)

ولا شك أن كثيراً من الانجازات العظمى التي يهلل لها في تاريخ الإسلام، والمسلمين ـ كإدخال بلاد في سيادة الإسلام ـ كتاب شامخ من الكتب الإسلامية ـ قد لا يحصل أصحابها من ورائها غداً على شيء لأنهم أرادوا بها حطام الدنيا، وغفلوا فيها عن الله ويعرض القرآن الكريم صورة حية لنبيين كريمين، وهما يقومان بإرساء قواعد إنجاز من أعظم الانجازات في التاريخ الديني للإنسان النبيان الكريمان هما إبراهيم وإسماعيل، والصورة.

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت، وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾(٣٨).

إنهما وهما النبيان الكريمان على الله.. وإنجازهما من أعظم الإنجازات يتضرعان إلى الله.. ويمدان بطرفهما إلى السماء.. ويخشعان.. ويدمعان.. ربنا تقبل منا.. يقولان ذلك في وعي عميق في أن كل إنجاز لا قيمة له في ذاته ما لم يتقبله الله.. ولا يتقبله سبحانه إلا من المتقين المخلصين.

ولا تتمثل قيمة الاخلاص في قبول العمل، والانابة عليه فقط، وأن كانت هذه قيمة كبيرة محسوبة من جانب الانسان المسلم، وإنما تتمثل قيمته مضافا الى ذلك في مستوى الشخصية الذي بلغته..

(*) أصول الكافي ج ٢ باب الرياء ح ٧.

(**) أصول الكافي ج ٢ باب الرياء ح ٢.

(٣٨) سورة البقرة، آية ١٢٧.

في التجرد عن الأهواء، ودواعي السمعة والرياء، والتظاهر أمام الناس، أو السعي وراء طموحات شخصية. إن الشخصية التي تعمل فيها (دوافع) أخرى غير دينية لا يأمن منها الانحراف، والخروج عن حدود الشريعة وتقديم الحسابات الشخصية على الحسابات الرسالية في لحظات الترجيح والتزاحم الحاسمة، وهي مهما بلغت من مستوى الأداء، والانجاز، وحجم الخدمات غير مضمونة الاستقامة والاستمرار على خط الله تعالى.. بما يحصل فيه من أشواك، ومكاره، وما يحفه من شهوات، وأهواء عصمنا الله تعالى من الزلل والرياء.

«اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتعنا بلذيذ مناجاتك وأوردنا حياض حبك، واذقنا حلاوة ودك، وقربك، واجعل جهادنا فيك، وهمنا في طاعتك، واخلص نياتنا في معاملتك فإنابك، ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلا انت»(*).

صعوبة الاخلاص لله تعالى:

يوجد الكثير من المؤمنين من يشغله الجهاد، والعمل في سبيل خط قضية الإسلام عن التأكيد من مضمون عمله وطبيعة نيته، ودافعه.. وقد لا يستسيغ المؤمن أن يراجع ذاته، ويتفق الوقت في ذلك ليتحقق من درجة إخلاصه ومستوى نموه الروحي.. إلا أن الواقع أن مواصلة الجهاد والعمل في سبيل الله تعالى، والاهتمام بشؤون الناس وهدايتهم، وإن كان أمراً ضرورياً، وواجباً شرعياً إلا أن التركيز، وتحصين الذات من الانحراف، والتنمية الروحية أيضاً من الأمور المهمة، والضرورية التي لا ينبغي إغفالها.. هذا مع أن مراجعة الذات، والتربية الروحية لا تتنافى مع العمل في سبيل الله، ولا هذا بالذي يشغل عن ذاك والاعتكاف أروع صيغة للعزلة الواعية التي يؤمن بها الإسلام ويدعو لها ويحث عليها. وهي كما تساعد على الانشداد إلى الله تعالى تساعد كذلك

(*) مفاتيح الجنان، مناجاة المطيعين لله.

على مراجعة الذات وتقييمها والتعرف على مواطن الضعف، والقوة فيها بعيداً عن ضوضاء العمل الاجتماعي، والانشغال بالناس ومعهم.

ويوجد من جهة أخرى من يحسب أنه في قمة الاخلاص.. لأنه لا يطلب من وراء عمله مالاً، ولا منصباً حكومياً.. وأنه لو أراد ذلك فطريقه معروف، ولم يكن من الضروري، أو اللازم أن يسلك طريق الجهاد والعمل الدؤوب.. ولكن الإنسان أعقد من ذلك، ودوافعه الذاتية لا تنحصر في المال، والمنصب الحكومي.. ولكل إنسان مخاطبوه من البيئة التي يتعامل معها، وللإنسان أهواء معنوية كما له أهواء مادية.. فهناك من يحب أن يظهر.. وهناك من يسعى نحو الجاه، والمركز في قلوب الناس.. والرياء ـ كما في الحديث ـ أخفى من دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء لأن حب الدنيا متمكن من قلوب الناس.. وتساميهم عليها، وتوجههم إلى الله من الأمور الصعبة.. ورغم كل ذلك، فالإخلاص ليس مستحيلاً، ولا بعيد المنال، يوفق الله تعالى له، من يبذل الجهد ويصدق النية في محاولة التنمية الروحية، والتربية الدينية والتصاعد إلى الله، فلا ينبغي أن تكون صعوبة الاخلاص حاجزاً دون السعي إليه.. والتنصل منها.. وللمؤمن مجالات عديدة لشحذ إخلاصه، وتنمية دوافعه الدينية.. عاشر الناس.. وعش انحرافهم.. وتحسس به، وانطلق في عملك غاضباً لله.. علم نفسك على عبادة السر صلاة السر.. وتسبيح السر.. وصدقة السر ولا تحدث بذلك الناس.. فإن ذلك تثبيت للصلة بالله تعالى وتنمية، وقطعاً لعلاقة القلب بالناس، عش مفاهيمك في الحياة من خلال تلاوة القرآن، الدعاء الإسلامي، وقراءة الكتب الأخلاقية ففي كل ذلك وأمثالها شحذ للهمم ودوافع الخير، والحياة النفسية مع الله..

شمول العبادة، وسعة الاخلاص:

إذا انحصرت العبادات بالمعنى الخاص ـ المطلوبات التي يشترط فيها قصد القربة ـ في دائرة محدودة هي الصلاة، والصوم، والحج، والاعتكاف.. الخ، فإن هناك مجالاً كبيراً لتوسيع الفعل العبادي بحيث يشمل الكثير من الأفعال، والمطلوبات الشرعية التوصيلية.. بل، وكل مطلوب كذلك. لأن هذه المطلوبات وإن كان لا يشترط الله سبحانه أن يأتي بها عن طريق قصد القربة، ولا يلزمنا بذلك إلا من الممكن أن نجعلها عبادة، ونقصد بها وجه الله الكريم.. خذ مثلاً الأكل، والشرب، التوسعة على الأهل، اللقاء مع الأصدقاء.. وغير ذلك مما هو مطلوب شرعاً بنحو من إنجاز المطلب الشرعي فإن بالآمكان أن ننوي بكل ذلك التقرب إلى الله تعالى.. ونرجو من خلاله الأجر، والثواب،.. وفي الحديث عن رسول الله (ص) في وصية لأبي ذر:

«يا أبا ذر وليكن لك في كل شيء نية حتى في النوم والأكل».

التوكل.. وتعزيز لارادة المسلم:

في القرآن الكريم اهتمام كبير بالتوكل والحث عليه.

فالتوكل في القرآن الكريم ظاهرة عامة في سلوك الأنبياء:

﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان، إلا بإذن الله. وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وما لنا إلا نتوكل على الله، وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما أذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾(٣٩)

---

(٣٩) سورة إبراهيم، آية ١٢.

وهو ضرورة من ضرورات الايمان، ولازمة من لوازمه.. كما يبدو ذلك في القرآن الكريم:

﴿إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا، إن كنتم مسلمين﴾(٤٠)

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾(٤١)

وهو معنى من المعاني التي ينشأ القرآن الكريم عليها النبي ويربيه.

﴿فاعرض عنهم، وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا﴾(٤٢)

﴿ولا تطع الكافرين، والمنافقين، ودع اذاهم وتوكل على الله﴾(٤٣)

ويحث عليه المؤمنين:

﴿وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾(٤٤)

﴿إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾(٤٥)

اذهب أنت، وربك فقاتلا:

عندما خرج موسى (ع) من أرض بني إسرائيل، واجهته مهمة إعدادهم للدخول في الأرض المقدسة، التي كتب الله لهم، ولم تكن الأرض المقدسة خالية من الناس، بل كان فيها قوم جبارون.. وبنو إسرائيل كسرتهم الأيام السود

---

(٤٠) سورة يونس، آية ٨٤.
(٤١) سورة المائدة، آية ٢٣.
(٤٢) سورة النساء، آية ٨١.
(٤٣) سورة الأحزاب، آية ٤١.
(٤٤) سورة آل عمران، آية ١٦٠.
(٤٥) سورة يونس، آية ٨٤.

في مصر في ظل الارهـاب، والتفرقـة العنصريـة، والاستخدام كسـرتهم نفسياً وأذلتهم اذلالاً شديداً. فما كان منهم حين أمرهم بدخول الأرض المقدسة إلا أن قالوا.

﴿إن فيها قوماً جبارين، وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾....

﴿قال رجلان من الـذين يخافـون أنعم الله عليهما، ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتمـوه فإنكم غـالبون.. وعلى الله فتـوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[٤٦]

وأجاب المنطق الاسرائيلي المتخاذل المشبع بالذل:

﴿ياموسى... اذهب أنت، وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾[٤٧].

يبدو أن غاية ما فهمه هؤلاء من التوكل هو ما يفهمه الكثيرون اليوم القاء الكـل على الله. واعطاؤه (وكـالة) وتفـويضاً في التصـرف في هذه المـواقف، واتكال، وقعود، وكسل فالتوكل، هو: استنابة الله.. في مواقف هي من صلب المهـام التي ألقاها الله تعالى على عاتق البشر.. التوكل عنـدهم في العيش، والـرزق.. بطالـة، وفـراغ.. وعـلى أمل أن يـرزقهم الله الـرزق الحـلال، أو الحرام على طريقة (الغراب الأعمى) المعروفة ـ والتـوكل عنـدهم في مواجهـة الانحراف تفويض، وانتظار سلبي لا عين له، ولا يد ـ والتوكل عندهم في كـل شيء، اتكالية ميتة ممسوخة، ما أنزل الله بها من سلطان.

فاذا عزمت فتوكل:

وجـل موارد التـوكل تـأتي لشيء آخر هـو تعزيـز إرادة الصمود في وجـه تحديات الكفر والضلال.. وتعزيز أرادة الأقوام في اللحظات الحرجة.. وهـو

(٤٦) سورة المائدة، آية ٢١ ـ ٢٢.

(٤٧) سورة المائدة، آية ٢٤.

لهذا داعية للعمل، وباعث عليه، وليس مثبطاً عنه، أو تفويضاً عنه، وبديلاً.

أ ـ تعزيز ارادة الصمود في وجه التحديات:

﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليهم مقامي، وتذكيري بآيات الله، فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم، وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي، ولا تنظرون﴾(٤٨)

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله، ونعم الوكيل﴾(٤٩).

﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون، وملائهم أن يفتنهم، وإن فرعون لعال في الأرض، وإنه لمن المسرفين. وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾(٥٠).

﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. . وما لنا الا نتوكل على الله، وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾(٥١).

---

(٤٨) سورة يونس، آية ٧١.
(٤٩) سورة آل عمران، آية ١٣٣.
(٥٠) سورة يونس، آية ٨٣ ـ ٨٦.
(٥١) سورة إبراهيم، آية ١١ ـ ١٢.

في هذه الآيات المباركات تبدو واضحة قيمة التوكل في تعزيز إرادة الصمود. والصبر في المحنة، والبلاء. والثبات على الاستقامة فنوح (ع) يستهين بملة الكفر على ضخامة الحجم، وشراسة المواجهة، لأنه توكل على الله.. والمؤمنون عندما يقول لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.. لا يخشونهم وإنما يزدادون إيماناً.. ويحتسبون الأمر عند الله وعليه يتوكلون.. وموسى (ع) يغذي قومه في الأيام الصعبة بالتوكل، لأن التوكل زاد الصامدين الصابرين، وهكذا الرسل يصبرون على الأذى، والتكذيب بمعونة التوكل والاحتساب.

من أين جاءت هذه القيمة العملية الكبرى للتوكل.. وكيف يتاح للتوكل أن يعزز فينا ارادة الصمود، والقدرة على المواجهة؟!

هذه القيمة العملية للتوكل تنبع في حقيقة الأمر من تفويض العنصر غير الاختياري الى الله، فأنت تقوم بدورك، وتنهي مهمتك، وما تبقى على الله تفوضه إلى الله وحده.. بعد أن تحذر من الوقوع في الخطأ، والتهور، وتجاهد قدر ما تستطيع.. بعد هذا لن تبقى قلقاً على ما تبقى.. فأنت لا يهمك ما تبقى لا يهمك، إن قتلت، أو مت، أو عذبت.. لأنك قد جعلت هذا بعين الله، ووكلت الأمر إليه.. يقرر ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وليس لك سوى الرضا، والقناعة.

ب ـ تعزيز ارادة الاقدام:

﴿فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين. إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾(٥٢)

---

(٥٢) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما، ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾(٥٣).

بينما كان التوكل في الآيات السابقة تعزيزاً لارادة الصمود، للصبر، للثبات، والاستقامة، رغم الضغوط والتحديات. فإنه في هاتين الآيتين يقوم بدور المعزز لارادة الاقدام.. والفعل.. للارادة المؤمنة الهجومية، التي تفتح على الجبارين معاقلهم، وتلقنهم الدروس في عقر ديارهم والحصون التي يحتمون بها من إرادة الله..!

وفي كل مشروع في الحياة العملية يستهدف بعض النتائج توجد أسباب اختيارية، وأسباب خارج دائرة هذا الفرد أو ذاك، والإنسان كثيراً ما يتردد، أو يضعف، وتضعف ثقته بنفسه، وأدائه، لتوقعه دخول عناصر ليس بالحسبان تنتهي إلى فشل المشروع المذكور.

والتوكل يعالج هذه النقطة فأنت عليك أن تؤدي ما باختيارك وأوكل ما ليس بالاختيار إلى الله تعالى.. واستمد العون منه.. وادعه أن يتمم عملك، يكمله لك..

الاتكالية. الاعتماد على الذات. التوكل:

الاتكالية.. هي أن تنفض يدك.. وتسحب نفسك من معركة العيش، ومعركة الاصلاح والتغيير.. لأنك تفوض الله في هذه العملية وتستنيبه في التصرف تماماً كما يفعل الموكل مع الوكيل في عقد الوكالة.. والاتكالية وانحراف في الفكر والسلوك، لأن قاعدة (اعقل وتوكل) أي قم بما عليك،

---

(٥٣) سورة المائدة، آية ٢٢، ٢٣.

وأوكـل الباقي إلى الله. . هي القـاعدة السلوكيـة المعمول بهـا عنـد المسلم، وليست قاعدة «اذهب أنت وربك فقاتلا» والاعتماد على الـذات، هو أن يقـوم الانسـان وحـده، من دون أن يتـوكـل على الله تعـالى، ويتـطلع إلى نصـره، ومساندته. . وهو شعبة من شعب القطيعـة مع الله. . يـرهق بها الإنسـان نفسه بعبء المسيرة، ومسؤولية الحياة. . ثم لا يجد لـه ولياً ولا نصيـراً. . والانسان الذي يقطع صلته النفسية بـالله. . ويتمرد على ربـه جل وعـلا بين اثنتين: بين صيغة الانسان الضائع المشتت القلق المرهق. . وصيغة الإنسان الذي يطغى. . ويفاجىء الناس بأنه (ربهم الأعلى) وحتى هذا الإنسان ينطلق في ذلك من عقدة الحقارة والنقص، والشعور بـالحاجـة الذي يحـاول أن يتغلب عليه من خـلال الخلس الكاذب المزعوم لصفات الاله على الذات. .

والتوكل ـ صورة بين اثنتين بين الاتكالية، والاعتماد على الذات ـ تتجاوز سلبيات كل منهما. . وتحقق في معنى إبداعي جديد صيغـة الحياة الـرائدة. . المطمئنة في الحياة.

التوكل والتخطيط:

١ ـ عرفنا أن التوكل لا يعني نفض اليد من الالتزامات وإن أداءها، يبـني الثقة بالذات، والقدرة على الصمود والاقدام. . وهو على هذا (استعانة) بالله، وليس استنابة له في التصرف. . والاستعانة بالله تفترض، أن الفعل فعل الانسان ودور الله تعالى دور المساند والمعزز والمعين.

٢ ـ والسؤال الآن: هل يتنافى التخطيط مع التوكل؟

أبداً. . لأن التوكل كما عرفنا استعانة بالله تعالى وليس اتكالية كسولة. .

والتخطيط في حقيقة أمره. . اختيار الخطوات المناسبة التي من شأنها أن توصل إلى هـدف معين. والبحث عن الخطوة المنـاسبة إلى هـدف معين مثله، مثـل

الخطوة ذاتها لا يتنافى مع التوكل.

الدخول إلى الأرض المقدسة كان هدفاً فكيف حاول التوصل إليه الرجلان اللذان يخافان أنعم الله عليهما؟! كان ذلك عن طريق (التخطيط + التوكل).

﴿ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾

وهذا عين التخطيط، وقمة التخطيط، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين.

وفي المثال الساذج المعروف، كيف يستطيع الأعرابي أن يحفظ بعيره، قد يفهم الأعرابي التوكل فهماً خاطئاً فيتصور أن حفظ البعير بالتوكل وحده، وبايكال حفظه إلى الله، غير أن الذي فهمه الرسول (ص)، له هو (أعقل وتوكل) وعقل البعير صورة بسيطة لعملية تخطيطية واضحة.

التعقل بعد آخر للارادة المسلمة:

عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (ع) قال: «إن رجلاً أتى النبي (ص) فقال له: يا رسول الله أوصني، فقال له: فهل أنت مستوص، أن أنا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلها يقول الرجل نعم يا رسول الله. فقاله له رسول الله:

«فإني أوصيك إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن يك رشداً فامضه، وإن يك غياً فانته عنه»(*)

(*) من لا يحضره الفقيه ج ٤ ب ١٧٥ ح ٥٨٩٤.

للارادة الربانية بعدان آخران:

١ ـ التعقل.. وهو التفكير المسبق في كل فعل قبل وقوعه، ودراسة ما إذا كان من الصحيح فعله أولاً. وهذا هو الذي يوصي به الرسول (ص) في الحديث المذكور.. فيقوم التعقل على أساس:

«إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن يك رشداً فامضه، وإن يك غياً فانته عنه»

ويعني ذلك بالتالي عدم الاعتماد على العواطف، والانفعالات والحماس الآني وعدم التسرع في الموقف، والإجراءات.

٢ ـ التخطيط، والتنظيم.. ويقوم على أساس تحديد الخطوات وتعيين المراحل، والاجراءات اللازمة للوصول إلى النتيجة الفعلية، أو الهدف المعين الذي يقوم عليها، والعمل وفق ذلك بالدقة التامة. وهذا شأن من شؤون الحكمة التي أمر الله تعالى بها رسوله، والمؤمنين.

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، والموعظة الحسنة﴾(*)

تعقل بلا إرادة، والارادة بلا تعقل:

نلاحظ ـ كما في كثير من المجالات ـ وجود إفراط وتفريط بصدد قضية التعقل والتخطيط.. فهناك من يبني مواقفه عملياً على أساس الحماس، والعزم، والتصميم من دون أن يتأمل فيها، ويتدبر ومن دون أن يدرس الخطوات الضرورية اللازمة للوصول إلى الأهداف الاجتماعية التي يحاول تحقيقها.

وهناك في المقابل من يكثر من التأمل والتفكير. ولكن لا ينتهي إلى يقين، وإنما إلى وسوسة، وشك، وتلكؤ، أو إلى تجميد، وتعطيل فيصاب هؤلاء في

(*) سورة النحل، آية ١٢٥.

العادة بمرضين:

١ ـ مرض الوسوسة، والتردد، و(الجربزة) لأنهم بتفكيرهم الزائد وتأملهم العميق! يخرجون عن إطار الرؤية الفكرية للإسلام، والعمل الاسلامي، والبصائر، والهدايات العامة التي ينبغي، ويجب على الإنسان أن يتمسك بها في ميادين العمل، والجهاد..

٢ ـ مرض التلكؤ العملي، والجمود والضمور الذاتي والانطواء على الذات.

إن الله سبحانه يريد منا أن نوازن في أمورنا جميعاً.. والمطلوب هنا أن نوازن بين القلب، والعقل، والروح، والفكر والعزم والتعقل.. وأن نعطي لعقولنا حقها من التفكير ولارادتنا حقها من العمل.. لا عمل من دون علم، وتدبر لأن.

«العامل على غير بصيرة، كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً»(*)

ولان:

«من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ما يصلح»(**)

كما عن الرسول (ص) ومن الجهة اخرى:

«لا علم، بلا عمل، لأن بين العمل، والعلم تكاملاً» ذكره الإمام (ع) في الرواية التالية:

«لا يقبل الله عملاً بلا معرفة، ولا معرفة إلا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، إلا أن الايمان بعضه

(*) أصول الكافي ج ١ باب ١٣ ح ١.
(**) أصول الكافي ج ١ باب ١٣ ح ٢.

من بعض»(*).

وأما المتشككون المتلكؤون فيقول لهم الإمام علي (ع) كما في نهج البلاغة:

«لا تجعلوا عملكم جهلاً، ويقينكم شكاً، إذا علمتم، فاعلموا، وإذ تيقنتم فاقدموا»(**)

(*) أصول الكافي ج ١ باب ١٣ ح ٢.

(**) نهج البلاغة، قصار الحكم رقم ٢٧٤.


الفصل
الخامس
«وسائل التربية الروحية»

تربية الجانب الروحي:

عرفنا في ما مضى أن الجانب الروحي في شخصية الإنسان المسلم يتمثل في مجموعة من العناصر النفسية الداخلية المنشدة إلى الله تعالى . . والمرتبطة به، بصائر وعواطف، وارادة.

فإيمانك بالله تعالى، واطمئنانك له، وخوفك، ورجاؤك منه، وحبه، وحب المؤمنين، والاخلاص والصبر، والزهد، وامثال ذلك هي المعاني التي يتشكل منها الجانب الروحي.

وأما الصلاة وتلاوة القرآن الكريم، وذكر الله، وما شاكل ذلك فهي وسائل التربية الروحية والاعداد الروحي . . وليست هي في ذاتها عناصر روحية . .

ومن روائع دين الله، أنه لم يحث على ربط القلب والارادة بالله تعالى ولم يلزم به فقط وإنما بين طريق ذلك وأسلوبه الصحيح، وتسهيلاً للناس وتوضيحاً للسبيل المستقيم في مسألة قابلة الانقسام في التربية الروحية تقوم على أساس من القوانين النفسية، ونظم الترابط بين الذهن، والقلب، والارادة، والسلوك، وليس المقصود من أن الإسلام بين الطريق إلى التربية الروحية وتنمية الصلة

النفسية بالله تعالى، إنه قد تحمل مسؤولية للتربية، والبناء على الانسان المسلم. . وإنما كل ما فعله هو أن وضح المعالم، ورسم الطريق، وعلى المسلم أن يبادر، ويعاني في سلوك هذا الطريق حتى ينتهي أخيراً إلى الدرجة اللائقة من الصلة بالله والعلاقة الروحية به.

وهكذا فإن بناء الجانب الروحي، والتربية الروحية لا تتم بالشكل الصحيح إلا بشروط ثلاثة:

١ ـ الشرط التكويني: وهو وجود قوانين نفسية تحكم العلاقة بين الجانب الروحي والصلة النفسية بالله، وبين مجموعة من المواقف والأعمال يمكن من خلال أداء هذه الأعمال. وعلى أساس الترابط الموجود بين الفعل، والجانب الروحي. تنميةِ هذا الجانب، وتكوين الصلة الداخلية بالله تعالى. وقد تكفل الله سبحانه بهذا الشرط في النظام التكويني للأشياء ويكشف القرآن في آيات متعددة(*) عن الكثير من هذه القوانين النفسية، والترابطات الموجودة بين أجهزة الشخصية الإنسانية. . ويقيم على أساس من ذلك نظامه التربوي. .

٢ ـ الشرط التشريعي: وهو وضوح الوسائل والمواقف التي تؤدي إلى تلك النتائج النفسية بحكم القانون النفسي المغروس فطرياً. . والمودع في جهاز التكوين البشري. . وقد قام الإسلام بذلك، فحدد مجموعة كبيرة من وسائل التنمية الروحية، وتكوين الانشداد الداخلي بالله. وسنأتي على ذكر هذه الوسائل إن شاء الله تعالى.

٣ ـ المبادرة الفردية، والمعاناة في اتباع هذا الخط وتبنّي هذه الوسائل، وانتهاجها. . وإذا كان الشرط الأول من مهمات الجانب التكويني في خلق الانسان، وكان الشرط التالي من مهمات الإسلام التشريعية فهذا الشرط كما هو

(*) ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ سورة الأنفال، آية ٢. ﴿إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعاً وإذ أمسه الخير منوعاً إلا المصلين. . .﴾ سورة المعارج الآيات ١٩ ـ ٢٢.

واضح من مهمات الفرد، الإنسان المسلم نفسه. وليس من مهمات الإنسان المسلم أن يستحدث وسائل عبادية منه، وأساليب للتربية الروحية بل، قد لا ينبغي من ذلك بعد أن وضح الإسلام الطريق، ورسم المعالم في هذا الميدان، وقد يؤدي استحداث هذه الوسائل، والأساليب الى شكل من أشكال الابتداع في الدين، وبالتالي الانحراف عن الأهداف الاسلامية للتربية الروحية. . كما وقعت في ذلك اتجاهات التصوف. .

المعاناة في سبيل التربية الروحية:

دور الإنسان المسلم إذن هو تبني وسائل التربية الروحية التي حدَّدها الإسلام من صلاة، وذكر، وصيام، و. . ولكن تبنيها ليس دائماً أمراً سهلاً. صحيح أن الإسلام عندما يوضح أساليب التنمية الروحية يكون بذلك قد سهل هذه العملية، ولكن التسهيل أمر نسبي. فعلى الإنسان أن يعاني في سبيل البناء الروحي، ويجاهد نفسه، وأهواؤه من أجل سلوك الطريق إلى الله الذي يبدأ صعباً وينتهي سهلاً وسجية للسالكين. .

إن الضواغط على التربية الروحية كثيرة ولكن إرادة الانسان المؤمن يجب أن تكون أكبر من الضواغط، وأكبر من الحواجز الطبيعية والاجتماعية والنفسية، بيئة المؤمن الاجتماعية، وبيئته الثقافية، وزاده الفكري الذي يتلقاه، ويتفاعل معه، ومشاغله الحياتية، وتربيته الأولى، وطبيعته كإنسان له أهواؤه وحسه، كل ذلك لا يشجع على الصلة بالله. . ولكن في هذا أيضاً قيمة الاتصال بالله، وتعميق العلاقة به. . وفي تجاوز المصاعب، والتمرد على القوانين الاجتماعية، والنفسية. . تتبدى (تتجلى) انسانية الانسان، وجوهره الروحي الخلاق. وفي هذا أيضاً ميزة الانسان المسلم الذي يتبنى الاسلام عقيدة، وخلقاً، وسلوكاً، على الانسان المادي فهذا يبقى خالداً إلى الطين محكوماً بقوانين الشهوة، الحس، وعالم الشهادة، وذاك يرتفع ويتصاعد إلى السماء، ويتجاوز قوانين الشهوة، والحس، والتعامل مع عالم الغيب. . لمجرداته، ومغيباته. .

الانسان المادي يشكل حقاً حقارة معنوية لعالم الحيوان. . ضيق الأفق، ومحدودية الطموح، والمحسوبية للشهوات.

﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾(*)

والانسان المسلم يمثل التجاوز الحقيقي للوضع الحيواني بحدودهما الضيقة وآفاقهما المحدودة. . وبالكدح والمعاناة، وبهداية الله تنمو روحية الانسان وتلتقي بالله. .

﴿يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾(**)

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾(***)

وسنذكر فيما يلي وسائل التربية الروحية، وهي في الإسلام كثيرة ولكننا سنقتصر هنا على ما يلي منها:

١ ـ قيام الليل.

٢ ـ ذكر الله كثيراً.

٣ ـ تلاوة القرآن الكريم.

٤ ـ الأجواء الايمانية.

٤ ـ الثقافة الايمانية.

٦ ـ مخالفة الأهواء ـ الصوم.

٧ ـ المحاسبة، والنقد الذاتي.

٨ ـ الاعتكاف.

(*) سورة الفرقان، آية: ٤٤.
(**) سورة الانشقاق، آية: ٦.
(***) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

أولاً ـ قيام الليل :

ورد الحث الشديد ـ كتاباً وسنة ـ على صلاة الليل(*)

﴿يا أيها المزمل قم الليل، إلا قليلا نصفه، أو انقص منه قليلا، أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلا﴾(**)

٢ ـ ﴿اقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهودا. ومن الليـل فتهجد بـه نافلة لـك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾(***).

(*) صلاة الليل وهي من الأعمال المؤكدة الاستحباب، ولها صيغة تفصيلية مذكورة في كتب الأدعية (فراجع) ولها صورة مبسطة كالآتي:

أ ـ ثمان ركعات يسلم بعد كل ركعتين يفضل قراءة بعد الحمد في الأولى التوحيد. وفي الثانية (الكافرون) ويقرأ في سائر الركعات ما شاء من السور، ويجوز الاقتصار على الحمـد فقـط ويستحب فيها أيضاً القنوت وتدعو بما تشاء من المأثور من الأدعية.

ب ـ ركعتا الشفع: وتقرأ بعد الحمد في الأولى سورة الناس وفي الثانية سورة الفـلق ولم يرد فيها القنوت.

ج ـ ركعـة الوتـر وهي ركعة واحـدة تقرأ فيهـا بعد الحمـد سورة التـوحيد ثـلاث مـرات والمعـوذتين (الناس والفلق) ثم خـذ يديـك للقنوت وادع بمـا شئت وأكثـر مـا يستحب فيـه الاستغفار «استغفر الله ربي وأتوب إليه» سبعين مرة، وأن تستغفر لأربعين مقر من (نذكـرهم بأسماءهم)، وتقول سبعاً «هذا مقام العائذ بك من النار»، وتقول «العفو العفو. . .» ثلاثمائة مرة، ثم يقول: «رب اغفـر لي وارحمني وتب علي إنك أنت التـواب الغفور الـرحيم». . . ويستحب في القنوت أن يبكي ويتباكى خشية الله وخوفـاً من عقابـه (راجع كتـاب الباقيـات الصالحات بهامش مفاتيح الجنان».

(**) سورة المزمل، الايات ١ ـ ٤.

(***) سورة الاسراء، الآية ٧٩.

٣ ـ ﴿إن المتقين في جنات، وعيون. آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون﴾[١].

٤ ـ ﴿واذكر ربك بكرة وأصيلاً. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا﴾[٢].

٥ ـ عنهم (ع):

«شرف المؤمن صلاته بالليل، وعز المؤمن كفه عن أعراض الناس»[*].

٦ ـ عن أبي عبد الله (ع) قال:

«عليكم بصلاة الليل فإنها سنة نبيكم ودأب الصالحين قبلكم، ومطردة الداء عن أجسادكم»[**].

٧ ـ وعنهم (ع) في مجموعة أحاديث:

«إن صلاة الليل تذهب ذنب النهار وتطرد الداء من الأجساد، وتبيض الوجه، وتطيب الريح، وتجلب الرزق، وتذهب بالهم، وتجلو البصر، وتحسن الخلق، وتقضي الدين، وهي مصحة للبدن، ورضا للرب، وتمسك بأخلاق النبيين (ع)»[***]

٨ ـ عن أبي عبد الله (ع):

---

(١) سورة الذاريات ١٥ ـ ١٨.

(٢) سورة الانسان/ ٢٥.

(*) من لا يحضره الفقيه ج ١ باب ٦٥ ح ١٣٦٠، وورد بنفس المعني في أصول الكافي ج ٢ ٦٧ ح ١.

(**) من لا يحضره الفقيه ج ١ باب ٦٥ ح ١٣٦٣.

(***) أمالي الشيخ الطوسي ح ١ باب ١١ ح ١٨.

«ليس من عبد إلا وهو يوقظ في كل ليلة مرة، أو مرتين، أو مراراً. فإن قام كان ذلك وإلا فجج الشيطان فبال بأذنه أو لا يرى أحدكم إذا قام، ولم يكن ذلك منه قام وهو متحير (متخثر) ثقيل كسلان»(*)

٩ ـ وعنه (ع):

«يا سليمان لا تدع قيام الليل فإن المغبون من حرم قيام الليل».

«ليس منا من لم يصلّ صلاة الليل».

١٠ ـ وفي الحديث..

«جاء رجل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال: إني حرمت الصلاة بالليل، فقال أمير المؤمنين (ع): أنت رجل قد قيدتك ذنوبك»(٣)

الأثر التربوي لصلاة الليل:

إن هذا التأكيد الشديد على صلاة الليل إنما هو باعتبار أثرها التربوي الخطير في حياة الإنسان الروحية.. فهي وراء كونها عبادة وصلاة، لها ما للصلاة، وللعبادة من آثار. تحتوي على أثرين مهمين، سجلتهما الآية المباركة:

﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً﴾(**)

فقيام الليل بما فيه من مجاهدة للنفس، وتحكم في الهوى، ومعاناة في سبيل الوقوف بين يدي الله.. باعتبار مواجهة أتعاب النهار، وسلطان النوم، والشعور بالوحدة في جوف الليل. وباعتبار ذلك يكون قيام الليل أشد وطئاً، وأكبر أثراً على بناء الارادة، والصبر، وبناء الجهاز الحاكم في الشخصية الإسلامية.. وما أحوج الانسان المؤمن في الدرب الطويل.. والمسيرة الصعبة وعناء الدعوة.. إلى بناء الارادة، وتكوين ملكة الصبر.. الصبر الذي يكون لله،

---

(٣) وسائل الشيعة بقية الصلوات المندوبة باب ٣٩ و٤٠.

(*) من لا يحضره الفقيه ج ١ باب ٦٦ ح ١٣٨٢.

(**) سورة المزمل، آية: ٦.

وعلى عبادة الله. . وما أحوج الإنسان القائد الذي ينتظر منه تحرير الأمة من أسر الشهوة، والانحراف، والخضوع للدنيا والركون للطواغيت أن يتحرر من داخله. . وأن يخرج عن أسر الكسل الى دائرة النشاط. . وقيود الشهوة إلى دائرة القدرة، والارادة، والتجاوز. . وبالتالي ما أحوجه إلى هذه اللحظات القصيرة ـ من عمر الزمن ـ في جوف الليل. . ويؤكد فيها استعلاءه على كل شيء. . على كل شيء غير الله الكبير المتعال. .

هذا من جهة. . ومن جهة أخرى، لما كانت عبادة الليل. . بعيدة عن مشتتات الانتباه، وتتخذ الطابع السري بعيداً عن أعين الناس فهي لهذا «أقوم قيلا»، وأكثر تثبيتاً على الكلمة الربانية، كل التعاملات الشرعية التي يراها الناس منك. قابلة لأن تكون موقفاً اجتماعياً، وتوافقاً مع البيئة، التي ننفتح لها، وتتخاطب معها. . فاكتب ما شئت أن تكتب للاسلام، وتحدث ما شئت أن تتحدث عن دين الله. . واسع لأخوتك. . كل هذا واجب، وكله مطلوب. . وكله فيه نحو من التثبت، والابقاء على خط الله. . ولكن ليس هذا مثل عبادة البشر. . مثل العيش وحيداً، بعيداً عن أعين الناس. . وحيداً إلا من الله. . وغريباً إلا مع الله. . تلتقي به، تتلقى منه وتتضرع اليه. هناك فقط، وأكثر من غيره يتجلى لك (الصدور) عن الله. . والجهاد في الله هي لحظات تحاسب موقفك بين يدي الله. . وتصفي حساباتك في اليوم السابق. وتؤكد له، ولنفسك أنك فيه وبه وليس لك من قصد إلا هو. . وهذا هو التثبيت، والتمحيص، وبناء الاخلاص، والصدور عن الله.

صراحة. . لا أفهم من عبادات الإسلام للدعاة إلّا شيئين: ـ الاعتكاف، وقيام الليل. . افهم الحج عبادة عامة يجتمع فيها المسلمون، ويؤدون شعائر الحج، ويستفيدون في الفكر والروح، وفي هذا يشترك الدعاة مع غيرهم من المسلمين وافهم الصلاة اليومية للمسلمين عموماً، كما أفهم الصوم. . وغيره. في هذا الاطار، ولكن كلما تلح على الذهن صلاة الليل. . والاعتكاف يقترن ذلك بذكر الدعاة. . وتشكل في نفسي انطباعاً أنهما شرعا في الاسلام لهم،

ولهم فقط، وإن كان لهما صورة تشريعية عامة تشملهم، وتشمل غيرهم.

الوحدة مع الله.. العزلة الموقتة، مراجعة الذات مع الله.. أحوج ما يحتاج إليها الداعية.. ليكون داعية لله.. ولله ومن الله.. ليحكي لربه شيئاً من أتعابه في سبيله.. ليحاسب نفسه أمامه عن أخطائه. ليستزيده، ويستهديه ليخلص له نيته من كل ما يشوب نيات العاملين في العبادة ويداخلها من حب الظهور، والرغبة في التوافق مع الأجواء الخاصة، ليقول له يا رب. هذا جهدي، ومستطاعي، ومنك العون وبك الاعتصام من كل المغريات، والضغوط والمكاره، والاتعاب.

اعداد الرسول (ص) وأصحابه من خلال قيام الليل:

يحفل القرآن الكريم بالآيات النازلة من أجل إعداد الرسول (ص) وتوجيهه لتحمل أعباء المسيرة، وطريق ذات الشوكة.. وقد عرفنا ـ فيما مر ـ أن الرسول (ص) مر بثلاث فترات للاعداد..

١ ـ الاعداد ما قبل النبوة من أجل تلقي الكلمة.. والوصول إلى مستوى تلقي الوحي..

٢ ـ الاعداد ما بعد الوحي.. من أجل تحمل العبء الثقيل والقول الثقيل في الدعْوة، والتبليغ، والمواجهة..

٣ ـ اعداده (ص) على استمرار خطه الجهادي.. إلى أن توفاه الله تعالى.. ورفعه اليه، ولكل مرحلة من هذه المراحل طابعها، وأسبابها.

المهم الآن.. أن المرحلة الثانية من الاعداد الروحي كانت الاعداد لتحمل القول الثقيل، وتحمل أعباء مسيرة الدعوة.. وهي التي تنزل من أجلها قوله تعالى:

﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه، أو انقص منه قليلا أو زد

عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾(*)

«وكان الزاد فيها، ومادة العمل قيام الليل، وتلاوة القرآن. بالليل.. إن قيام الليل والناس نيام والانقطاع عن غبش الحياة اليومية، وسفاسفها والاتصال بالله وتلقي فيضه، ونوره، والانس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتيل القرآن، والكون ساكن كانما يتنزل من الملأ الأعلى، وتتجاوب معه ارجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري، ولا عبارة، واستقبال اشعاعاته وإيحاءاته، وإيقاعاته في الليل الساجي.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل والعبء الباهض، والجهد المرير الذي ينتظر الرسول، وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل، وينير القلب في الطريق الشاق الطويل.. ويعصمه من وسوسة الشيطان، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير»(٤).

وما كان من الرسول.(ص)، وصحبه إلا أن امتثلوا، فقاموا الليل كما أمرهم الله، نصفه، أو ثلثه، وأو ثلثيه إلى سنة كاملة أو أكثر حتى تورمت أقدامهم، وانتفخت ثم خفف الله عنهم بعد انتهاء فترة الاعداد.. كما تقول بعض الروايات.

ثانياً ـ ذكر الله كثيراً:

لذكر الله معنيان:

١ ـ الذكر الذهني: وهو المعايشة الشعورية، والذهنية لعقيدة الأيمان بالله تعالى، وهذا هو الأصل في الذكر. وقد عرفنا فيما سبق، إن الذكر عنصر ضروري من عناصر الجانب الروحي من شخصية الانسان المسلم.

٢ ـ الذكر اللفظي: وهو ذكر الله تعالى باللسان كتسبيحه، وتحميده، واستغفاره، وتهليله، وتكبيره، وما شاكل ذلك. وقد ورد الحث الشديد عليه،

(*) سورة المزمل، آية ١ ـ ٤.

(٤) في ظلال القرآن سيد قطب م ٨ ص ٣٤٧.

باعتباره وسيلة من وسائل التربية والمعايشة الشعورية، والذكر اللفظي لله هو ما حوى أصواتاً دالة على التعظيم، والتقديس له. . وإنما يستمد قيمته من كونه (وسيلة) لغاية ذات قيمة في نفسها. وهي ذكر الله ذكراً ذهنياً أما مثل الصلاة، والصوم كحركات، وامساك مجردة لا قيمة لها، إلا أن الالتزام بها إنما هو باعتبار دورها التربوي، أي باعتباره انتهاء عن الفحشاء والمنكر، وعروجاً الى الله، وخلق حالة التقوى، والصوم من تلك المحارم.

عن أبي عبد الله (ع):

«شيعتنا الذين إذا خلوا ذكروا الله كثيرا»[٥]

وعنه (ع) قال رسول الله (ص):

«من أكثر من ذكر الله عز وجل أحبه الله، ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان، براءة من النار، وبراءة من النفاق»[٦]

وعن أمير المؤمنين (ع):

«من ذكر الله عز وجل في السر فقد ذكر الله كثيراً أن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية، ولا يذكرونه في السر»[*]

فقال الله عز وجل:

﴿يراؤون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾[٧]

وفي حديث عن الصادق (ع):

---

(٥) أصول الكافي ج ٢ ص ٤٩٩.

(٦) وسائل الشيعة أبواب الذكر من كتاب الصلاة باب ١٤.

(٧) نفس المصدر ص ١٠٥.

(*) أصول الكافي ج ٢ باب ٢٣٤ ح ٢.

«الذاكر لله عز وجل في الغافلين، كالمقاتل في المحاربين»[٨].

ويلاحظ في هذه النصوص، التأكيد على الطابع السري للذكر، وذلك للتخلص من شوائب الرياء، ودواعي السمعة والذكر الحسن بين الناس، وتثبيتاً للعلاقة بالله تعالى..

صورتان تربويتان:

١ ـ عن الصادق (ع):

«وكان أبي كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله، وأكل معه الطعام، وإنه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم، وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: «لا إله إلا الله» وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس. ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر»[٩].

٢ ـ عن أبي أسامة قال: زاملت أبا عبد الله (ع) قال: قال لي: اقرأ فافتتحت سورة من القرآن فقرأتها، فرق وبكى، ثم قال:

«يا أبا أسامة أوعوا قلوبكم ذكر الله عز وجل واحذروا النكت، فإنه يأتي على القلب تارات، أو ساعات الشك من صباح ليس فيه إيمان، ولا كفر، شبه الخرقة البالية، أو العظم النخر، يا أبا أسامة الست وما تفقدت قلبك، فلا تذكر به خيراً، ولا شراً، ولا تدري أين هو؟ قال: قلت له: بلى إنه ليصيبني وأراه يصيب الناس. قال: أجل ليس يغري منه أحد، قال: فإذا كان ذلك فاذكروا الله عز وجل واحذروا النكت فإنه إذا أراد بعبد خيراً نكت أيماناً وإذا أراد به غير ذلك نكت غير ذلك»[١٠].

---

(٨) نفس المصدر ص ٢٠٥.
(٩) أصول الكافي ج ٢ ص ٤٩٩.
(١٠) وسائل الشيعة أبواب الذكر.

ثالثاً ـ تلاوة القرآن الكريم التدبر فيه:

(روى الحارث الهمداني قال دخلت المسجد فإذا الناس يخوضون في أحاديث، فدخلت على علي فقلت الا ترى أن أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد؟ فقال: قد فعلوها؟ قلت: نعم قال:

«أما إني سمعت رسول الله (ص) يقول: ستكون فتن. قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل. هو الذي من تركه من جبار، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم.. وهو الصراط المستقيم.. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته، أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجباً. هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن علم به أجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط المستقيم. خذها إليك يا أعور»[11].

عن أمير المؤمنين (ع):

«ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وبنياناً لا تهدم أركانه وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمان، وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره.. جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، وفجاجاً لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده

---

(١١) البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي ص ٢٦ ـ ٢٧.

داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروتـه، ومعقلاً منيعـاً ذروته، وعـزاً لمن تولاه، وسلمـاً لمن دخله، وهـدى لمن ائتم بـه وعـذراً لمن انتحله»[١٢].

١ ـ الصفة الأولى للقرآن الكريم أنه كتاب الله تعالى. . الذي أنزله على قلب رسوله الكريم. . وليس على وجه الدنيا كتاب لله . . صانه الله تعالى من يد الإثم والتحريف كهذا الكتاب. وليس على وجه الدنيا كتاب. . تطمئن إلى أنه سليم. . فكرة فكرة. . وكلمة كلمة. . وعبارة عبارة كهذا الكتاب. وليس على وجه الدنيا كتاب تشعر وأنت تقرأ فيـه بحنان الله وعـطف الله وتكريم الله لهـذا الانسان كهذا الكتاب.

٢ ـ والصفة الثانية للقرآن الكريم. . إنه كتاب الله النازل لهداية النـاس، وتعبيدهم الطريق. . فهو ليس كتاب ملغّز، نزل من أجل أن يحار فيه العلماء، وأهل التحقيق والتدقيق! ولم ينزل لفئة خاصة، بحيث لا يفهمه إلا من خوطب به، إنما هو كتاب الله للناس يستقي منه الإنسان ـ أي إنسان بمقـدار ما يقـربه روحياً من الله تعالى، ويتبع النهج السليم في البحث والتدبر والتفكير. .

﴿هذا بصائر للناس، وهدى، ورحمة لقوم يوقنون﴾(*)

﴿قـل إنما اتبـع ما يـوحى إلي من ربي، هـذا بصـائـر من ربكم وهدى، ورحمة لقوم يؤمنون، وإذا قرىء القرآن، فاستمعوا له، وانصتوا لعلكم ترحمون﴾(**).

ومن صفة «الربانية» وصفة «الهداية والتبصير» تنبع كل الصفـات الأخرى التي تعرف عن القرآن الكريم.

---

(١٢) المرجع السابق ص ٢٩ ـ ٣٠.

(*) سورة الجاثية، آية ٢٠.

(**) سورة الأعراف، الآيات ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

القرآن الأساس الفكري والروحي:

والقرآن الكريم هو المنبع الثقافي والروحي للانسان المسلم.. منه يأخذ تصوره عن الله تعالى، وعن الوجود، والحياة، والمجتمع، والناس.. ومنه يأخذ معالم التشريع الإلهي لهذا الإنسان على هذه الأرض.. ومنه يتعرف على أهداف الله في الخلق، وأغراضه من هذا الخلق والحياة..

والقرآن الكريم سند روحي أيضاً، يتصاعد الإنسان في تلاوته لأنه يلتقي بالله تعالى، وهو يتحدث إليه، ويتحبب إليه، ويحنو عليه، وفيه يشعر هذا الكائن الضعيف بالحنان الإلهي ودفء التكريم لهذا الكائن الفقير، ويعايش الحقائق الوجودية الكبرى، ويذكر الله.. ويتحسس الحياة معنى ومسؤولية، وابتلاء،، فيسمو، ويسمو حتى لكانه في عالم آخر من عوالم التكوين..

ويبدأ الانحراف في مسيرة الانسان المسلم عندما يبحث عن زاد آخر غير القرآن، وغير ما ثبته القرآن الكريم من مقاييس، ويتلقى الثقافة، والفكر، والتربية من تحت منبر آخر غير منبر القرآن الكريم. وقد سجلت رواية الحارث الهمداني بداية الانحراف الحضاري في المسيرة الإسلامية عندما بدأ الناس في عهد علي (ع) يخوضون في المسجد بالأحاديث، لا أعرف الآن هذه الأحاديث بالضبط.. ولكنها تؤشر بداية مرحلة العقل، وتوديع مرحلة الروح، ومرحلة القرآن الكريم. وهكذا (فعلوها) واستمر المسلمون في الانحراف.. وتصدى أهل البيت (ع) لهذا الانحراف عن طريق بناء أجيال قرآنية (تعي) قيمة هذا القرآن.. كما (تفهمها) وتبني سلوكها، وفكرها في ضوء هذا الوعي والشعور..

و(التلقي) من القرآن الكريم.. هو المعنى الأساس الذي انحرفت به الثقافة الغربية في الماضي، وفي الحاضر. فسواء في الماضي، أو في الحاضر بدأنا نتلقى من مصادر أخرى غير القرآن.. وبدأنا إذا التقينا بالقرآن نحكم عليه ونؤوله، ونجره إلى ما نريد من أهواء جراً. ومع أنه كان في التقدير الإلهي ولا

يزال (حاكماً) و(مهيمناً) وسلطاناً على كل المقاييس الفكرية والثقافية. .

ونحن على الدوام ظلمنا أنفسنا. . ولا أقول القرآن. . عندما ودعناه وعندما حكمنا عليه مرة (الروايات)[13] باعتباره أنه كتاب الغاز، وأحاجي لا يفهمه إلا من خوطب به، ومرة (الثقافات) لأنها أحكام العقول، وأحكام العقول مقدمة على ظواهر النصوص والتي هي قواعد الصرف، والنحو الجامدة وغيرها. . كل ذلك، والقرآن لا يزال ربيعاً لقلوب المؤمنين تسامى به الدهر، منار هدى، وسبيل نجاه، وبصائر للناس وذكرى للعالمين. .

وأداء حق القرآن علينا لا يتم إلا من خلال:

١ ـ إحلاله الموقع النفسي والشعوري الذي يتناسب معه بوصفه الكتاب الرباني الوحيد في الناس. .

٢ ـ تحكيمه في كل شؤوننا الثقافية، والفكرية، والصدور عنه، والتلقي منه بلا تدخل أو تأويل. .

٣ ـ معايشته المستمرة في التأمل، والتدبر والتلاوة والحفظ. . .

تلاوة القرآن الكريم:

١ ـ عن الصادق (ع) قال رسول الله (ص):

«إن أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين، ما خلا النبيين، والمرسلين فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم فإن لهم من الله العزيز الجبار مكانة عليا»(*).

---

(١٣) هذا مع أنهم (الأئمة) يفعلون العكس ويقولون (ما خالف كتاب الله فهو زخرف لم نقله) و(ما جاءكم عني يخالف كتاب الله فلم أقله)، (و(وكل شيء لا يوافق كتاب الله فهو زخرف) و(وما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدسوه).

(*) أصول الكافي ج ٢ باب ٢٧١ ح ١.

٢ ـ وعنه (ع):

«من قرأ القرآن، وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه، ودمه، وجعله الله عز وجل مع السفرة الكرام البررة. وكان القرآن حجيزاً عنه يوم القيامة»(*).

٣ ـ وعنه (ع) قال:

«القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده، وأن يقرأ منه في كل يوم خمسين آية»(**).

٤ ـ وعنه (ع):

«يدعى ابن آدم المؤمن للحساب فيتقدم القرآن أمامه في أحسن صورة، فيقول: يا رب أنا القرآن، وهذا عبدك المؤمن، قد كان يتعب نفسه بتلاوتي ويطيل ليله بترتيلي، وتفيض عيناه إذا تهجد، فارضه كما أرضاني. قال فيقول: العزيز الجبار عبدي أبسط يمينك فاملأها من رضوان الله، واملأ شمالك من رحمة الله ثم يقول: هذه الجنة مباحة لك، فاقرأ، واصعد، فإذا قد قرأ آية صعد درجة).

إلى آخر النصوص الكثيرة الواردة في الحث عن النظر إلى عهد الله وقد وردت أيضاً نصوص أخرى في أدب التلاوة.. أهمها التفكر، والتدبر، والخشوع، والاستفادة، والترتيل والحزن..

وأما مقدار القراءة فليس له في النصوص تحديد حدِّي معين. وكذلك لم يكن في سلوكهم ما يشير إلى حد مقدار قراءتهم.. وإنما قراءة القرآن أمر مستحب في ذاته.. والإكثار منه مستحب مهما بلغ من الكثرة.. ولكن بشرطين:

(*) أصول الكافي ج ٢ باب ٢٧١ ح ٤.
(**) أصول الكافي ج ٢ باب ٢٧٤ ح ١.

١ ـ أن لا تزاحم تلاوة القرآن الكريم أمراً أهم.

٢ ـ أن لا تكون كثرة القراءة على حساب التأمل والتدبر..

ولعل من أهم أشكال أداء حق القرآن الكريم، ومعايشته والارتباط به هو أن يحاول الإنسان المسلم البحث في القرآن الكريم.. من تفسير بعض السور، والكتابة في بعض الموضوعات القرآنية التي يستقصي فيها جميع ما ورد من آيات في ذلك الموضوع، أو الكتابة عن تاريخه، وعلومه.. الخ فإن هذا يزيدنا بصيرة أكثر في الطريق إلى فهم القرآن الكريم، ومعايشته ومن خلال القراءة، والبحث، وحفظ الكثير من آيات القرآن.. يكون ـ وما أروع أن يكون ـ القرآن سليقة للمؤمن، وذوقاً له..

رابعاً ـ الأجواء الايمانية:

وللأجواء تأثير كبير في التربية الروحية ـ وكل تربية ـ فعلى الإنسان المسلم أن يقصد الأجواء الايمانية لكي يتأثر بها، ويستزيد.

إن المسجد من أهم الأجواء الإيمانية.. وكذلك المشاهد المشرفة..

ومن الطبيعي أن الإنسان عندما يدخل مكاناً مخصصاً أو زماناً مخصصاً لشيء يكون أكثر تهيؤاً من الناحية النفسية لأداء ذلك النشاط.. والمكتبة مثلاً ـ لما كانت مكاناً للمطالعة ـ يكون الإنسان فيها أكثر توجهاً واستعداداً للمطالعة والدرس.. والمسجد.. وهو المكان المخصص للعبادة.. يكون الإنسان فيه أكثر تهيؤاً للعبادة واستعداداً للتعامل مع الله تعالى.. بما يملكه من إيحاء وتأثير في النفس، وقدرة على التأثر من خلال المجتمع للصلاة.. وبسبب هذا وغيره حثت النصوص الإسلامية على ارتياد المساجد، والصلاة فيها، وعمارتها بالصلاة، والعبادة.

ومن هنا جاء عن الإمام علي (ع):

«من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمه، أو يسمع كلمة تدل على هدى، أو رحمة منتظرة، أو كلمة ترده عن ردى، أو يترك ذنباً خشية أو رجاء»(١٤).

ومثل المساجد، والمشاهد المشرفة التي يتذكر فيها الإنسان المؤمن الرجال الصالحين الذين زرعوا ربيع الهدى في النفوس، وفجروا الأرض ينابيع من دم.. وعلماً غزيراً وتربية معصومة.. غيرت الأجيال اللاحقة بزاد الإيمان والهدى، والصلاح.

كانت الزيارات يوماً في عهد الأئمة (ع) مواصلة للثورة التي قام بها الإمام الحسين (ع)، أو القضية التي حملها أبناؤه وآباؤه الطاهرون.. وإصراراً على الاستمرار على النهج، وعلى الولاء للحق.. كانت (الزيارات) بيعاً وشراء للأنفس، والأموال في سبيل الله تعالى.. وكانت تظاهرة وتعظيماً لشعائر الله في الأرض.. واستهداء بمصابيح الهدى الزاهرة في ليل الانحراف الداجي.. والأيام الصعبة السوداء.. فليس - على هذا - من عجب أن رأينا زيارة سيد الشهداء (ع) تفضل في النصوص على الكثير من الأعمال والمستحبات الخطيرة. هذا مضافاً إلى ما ورد عن أبي الحسن الرضا (ع):

«إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه، وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالتعهد، زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقاً بما رغبوا فيه كانوا أئمتهم شفعاؤهم يوم القيامة»(*)

١ - عن أبي عبد الله (ع):

«إن زيارة قبر الرسول (ص) وزيارة قبور الشهداء، وزيارة قبر الحسين صلوات الله عليه، تعدل حجة مع رسول الله (ص)».

---

(١٤) وسائل الشيعة أحكام المساجد باب ٣.

(*) من لا يحضره الفقيه ج ٢ باب ٣١٢ ح ٣١٦٠.

٢ ـ (عن عمران بن عبد الله بن طلحة الهندي عن أبيه قال: دخلت على أبي عبد الله قال: يا عبد الله بن طلحة ما تزور قبر أبي الحسين. قلت: بلى أنا لنأتيه. قال: أتأتونه في كل جمعة؟ قلت لا، قال أفتأتونه في كل شهر؟ قلت: لا، فقال: ما أجفاكم، إن زيارته تعدل حجة وعمرة».

٣ ـ وعن أبي الحسن موسى (ع):

«أدنى ما يثاب به زائر أبي عبد الله (ع) بشط الفرات إذا عرف حقه، وحرمته وولايته، أن يغفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر»(*)

٤ ـ ومن وصايا أبي جعفر (ع) لأصحابه ـ كما عن محمد بن مسلم:

«مروا شيعتنا بزيارة الحسين (ع)، فإن إتيانه يزيد في الرزق، ويمد في العمر، ويدفع مدافع السوء، وإتيانه مفترض على كل مؤمن يقربه بالإمامة من الله»(**).

٥ ـ علي بن ميمون الصائغ قال: قال لي أبو عبد الله (ع):

«يا علي بلغني أن أناساً من شيعتنا تمر بهم السنة، والسنتان، وأكثر من ذلك لا يزورون الحسين بن علي قلت: إني لا أعرف أناساً كثيراً بهذه الصفة. فقال: أما والله لحظهم أخطأوا، وعن ثواب الله زاغوا، وعن جوار محمد (ص) في الجنة تباعدوا»(١٥).

ونلاحظ من خلال بعض هذه النصوص: إن من أهداف الأئمة (ع) أن يخلقوا تياراً اجتماعياً لزيارة الامام الحسين (ع).. وكان هذا مرتبطاً بأهداف الثورة ونجاحها.

ونلاحظ أيضاً أن زيارة المشاهد ليست فقط محاولة لخلق جو إيماني..

(*) من لا يحضره الفقيه ج ٢ ب ب ٣١٢ ح ٣١٧٦.

(**) من لا يحضره الفقيه ج ٢ باب ٣١٢ ح ٣١٧٧.

(١٥) وسائل الشيعة ابواب المزار من كتاب الحج باب ٢ و٢٥ و٣٧ و٣٨.

وإنما هي أيضاً استشعار لوجود القدوة. . وتمثل معانيها الخيرة في الفكر، والروح، والسلوك، وفي العطاء والجهاد؟ تأكيداً للشعور بالائتمام والاقتداء. .

الأخ الصالح في الله:

ومما ينبغي على المؤمن ـ في مجال التربية الروحية ـ اتخاذ الأخ الصالح في الله. . والأخوة الصلحاء. . فإن للأخوة والقرناء التأثير البالغ على شخصية الإنسان، لأنهم أكثر ما في البيئة الاجتماعية تأثيراً عليه، وأثراً في شخصيته. . وقد سجل القرآن الكريم أن بعض الناس دخلوا إلى النار بسبب قرناء السوء. . وبعض كادوا أن يدخلوها. . وعن الرسول (ص):

«المرء على دين خليله، وقرينه»[١٦].

والتعاشر بين المؤمنين، ولقاؤهم، وعلاقتهم الشخصية له دور كبير في استمرار الروح الإيمانية عندهم، وتنميتها وتحصينهم من الانحراف، والتحلل، والتميع، وتركيز القيم الايمانية في نفوسهم فهي ـ بأي مستوى كانت من الجدية والهدفية ـ مثمرة ومنتجة. وأفضل بكثير من العزلة والانطواء على الذات. . إن الانطواء، والعزلة عند أكثر الناس سبب لانحرافهم تماماً مثل معاشرة الاشرار. .

وهكذا ينبغي على المؤمن:

١ ـ التخلص من العلاقة بقرناء السوء إذ:

«لا ينبغي للمسلم أن يواخي الفاجر فإنه يزين له فعله، ويحب أن يكون مثله، ولا يعينه على أمر دنياه ولا أمر معاده. . ومدخله إليه ومخرجه من عنده شين عليه».

كما ور. عن أمير المؤمنين (ع)[١٧]

---

(١٦) أصول الكافي ج ٢ ص ٦٤٢.
(١٧) أصول الكافي ج ٢ ص ٦٤.

ولكن إذا كان يضمن عدم التأثر به ويحتمل التأثير عليه فلا بأس بمصاحبته من أجل هدايته، وإصلاحه، وفي ذلك ثواب عظيم.

«يا علي لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وما غربت»

٢ ـ عدم العزلة والانقباض عن الناس خصوصاً عن المؤمنين لما للعزلة من أخطار كثيرة، وكبيرة على شخصية الإنسان.. وإن كانت العزلة الموقتة الدورية أمراً ضرورياً في حياة المؤمن كما سيأتي إن شاء الله تعالى.. ولذا ورد عنهم (ع): الحث على التزاور والتعاطف.

«اتقوا الله وكونوا أخوة بررة، متحابين في الله، متواصلين متراحمين، تزاوروا، وتلاقوا، وتذكروا أمرنا، وأحيوه»(**).

«تواصلوا، وتباروا، وتراحموا، وكونوا أخوة بررة، كما أمركم الله عز وجل»(***).

وعن خثيمة قال: دخلت على أبي جعفر (ع) أودعه فقال:

«يا خثيمة أبلغ من ترى من موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وإن يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم.. وأن يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فإن لقيا بعضهم بعضاً حياة لأمرنا. رحم الله عبداً أحيى أمرنا، يا خثيمة: أبلغ موالينا أنالا نغني عنهم شيئاً إلا بعمل، وإنهم لن ينالوا ولايتنا إلا بالورع، وأن أشد الناس حسرة، يوم القيامة من وصف عدلا ثم خالفه إلى غيره»(**)

وعن أمير المؤمنين (ع):

(**) أصول الكافي ج ٢ باب التراحم ح ١.
(*) أصول الكافي ج ٢ باب التراحم ح ٢.
(**) أصول الكافي ج ٢ باب زيارة الأخوان ح ٢.

«لقاء الاخوان مغنم جسيم وإن قلوا»(***)

وعن أبي عبد الله (ع):

«تزاوروا فإن في زيارتكم إحياء لقلوبكم وذكراً لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطف بعضكم على بعض»(*)

وعن ميسر عن أبي جعفر (ع) قال لي:

«اتخلون، وتتحدثون، وتقولون ما شئتم؟ فقلت: أي والله، أنا لنخلوا ونتحدث، ونقول ما شئنا. فقال: أما والله لوددت أني معكم في تلك المواطن، أما والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم، وإنكم على دين الله، ودين ملائكته، فأعينوا بورع واجتهاد»[18].

٣ ـ وليس يكفي قطع العلاقة مع الأشرار، وقرناء السوء وتكوين العلاقات الوثيقة بالمؤمنين. وإنما يلزم كل مؤمن ـ من أجل تكوين الجو الإيماني ـ أن ينمي من جدية العلاقة لا بمعنى إخلائها من كل مضمون عاطفي، وصلات شخصية، بل بمعنى إثرائها، والاستفادة الرسالية منها.. لأن هذا هدف رئيس من أهداف تمتين العلاقة، وتوثيقها بالمؤمنين..

الأزمنة الخاصة للعبادة والتربية:

وكم أمر الإسلام باتخاذ (أمكنة) خاصة للتربية والعبادة كذلك ركز في الشعور الديني عند المسلمين (أزمنة معينة) خصصها للتربية، والعبادة من قبيل الشهر العظيم، شهر رمضان المبارك، شهر الله الذي يستضيف فيه المؤمنين

(***) أصول الكافي ج ٢ باب زيارة الأخوان ح ١٦.

(*) أصول الكافي ج ٢ باب تذاكر الأخوان ح ٢.

(١٨) أصول الكافي ج ٢ ص ١٧٥ ـ ١٧٩ وص ١٨٦ ـ ١٨٧.

ويستمطرون بركاته، وهداه، وغفرانه، ورحمته. . هذا الشهر الحافل بالعطاء، والممارسات العبادية التي يعز على الإنسان المؤمن أن تفوته حتى لو كان يماري أعمالاً أخرى أهم وألزم. .

هذا الشهر الذي فيه كثرة، وتركيزاً في الصلاة، وكثرة وتركيزاً في الدعاء، والتوجه إلى الله تعالى. . واحتفالاً عاماً في مشاعر الناس، وشعاراتهم. . الشهر المليء بالخيرات، والمليء بالمناسبات الدينية العظيمة.

لقد شاء الله تعالى في تربيته لعباده. . أن يوجد إلى جانب الخط الدائم في التربية. . خط الصلاة اليومية والذكـر المستمر خـطاً آخراً دوريـاً يتمثل في أوقات معينة يستعد فيها المؤمنون إلى نشاطات عبادية أكبر.

دورة أسبوعية تمثله في يوم الجمعة المباركة من حيث ما فيه من أدعيـة، وزيارات، وتوجيهات، ودورة سنوية متمثلة في شهر رمضان المبارك، الذي يتم الاعـداد الـروحي لـــه في شهـر رجب، وشعبـــان، والشهـرين العـــظيمين في الشهور. . ودورة حياتية متمثلة في الحج قابلة للاستزادة في كل حين. . ودورة في أيام معدودات متمثلة في الاعتكاف الذي يمكن أداؤه في أي وقت تقريباً وفي هـذه الدورات ينتفي مضعف الألفـة الذي نجـده في الصلاة اليـوميـة، ويعيش المؤمن العبادة غضة طرية في أيام قليلة من العمر. .

خامساً ـ الثقافة الايمانية:

الثقافة هي ـ في واحد من مداليلها المتعددة، نقصـده هنا بـالذات ـ هي الرؤى الفكريـة التي تؤثر في عـواطف الإنسان وسلوكـه، وقيمه، وطـريقته في الحياة.

والثقافة الايمانية، هي بصـائر، وهـدى، وأفكار تقـرب من الله وتسهل الطريق على من يريد أن يتكامل في هذا الطريق.

ليست الأفكار مقطوعة الصلة بالحياة العاطفية والسلوكية للإنسان، بل لها أكبر الأثر فيها، وتؤثر، وتتأثر بها. ويتكاملان، كما يقتضي ذلك منطق القرآن الكريم.

﴿كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾(١٩)

﴿لأنتم أشدُّ رهبة في صدورهم من الله، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾(٢٠)

وعلى أساس هذا المنطق القرآني ففي الثقافات ما يقرب إلى الله ومنها ما يبعد عنه: الدافع إلى الله الذي يفتح للإنسان عينه، ويبصره نقاط ضعفه، وسبيل نموه، وأساسيات حياته الدينية، ومنها الحاجز الذي يحول بين الروح الإنسانية، وبين الانطلاق في طريق التحرر الذاتي والتكامل الوجداني وعبادة الله.

والثقافة الايمانية التي تقرب إلى الله تعالى.. تتألف من عنصرين:

١ ـ المنهج الإسلامي في التفكير الذي ينظر إلى الأشياء بالطريقة القرآنية، أو المنطلق الإسلامي الخاص، الصدور عن القرآن الكريم، التلقي من الله تعالى، والانفتاح على كلماته التعامل الفكري مع الغيب، لا الغيبية الميتة، بل التعقل الذي يأخذ فيه الدين موقعاً مركزياً، سواء في الشعور، أم في الالتزام..

والمعايشة الفكرية الكثيرة، للفكر الغربي والاتجاهات المادية، وعدم الاهتمام الثقافي بالقرآن الكريم والسنة، والتأريخ الخاص يؤثر بشكل واضح على طريقة المؤمن في التفكير، وكيمية تناوله للأمور، ويبدي له الدين من خلال ذلك اتجاهاً بين الاتجاهات.. وطريقة من الطرق يدافع عنها ولكن منهجاً مرهقاً.

---

(١٩) سورة آل عمران/ ٧٩.

(٢٠) سورة الحشر/١٣.

٢ ـ الأفكار والمعلومات الايمـانية في مجـال العبادة والأخـلاق، والسيرة والقرآن الكريم، والنفس البشرية والعلاقات مع الناس، وغير ذلك مما تتشكل المعرفة فيه إعداداً فكـرياً، للتـربية الـروحية، وتكـوين الأحاسيس، والمشـاعر الايمانية، وبناء السلوك الديني المستقيم، وقد تعيش مع الكثيـر من المؤمنين، يستهينون بالأعمال العبادية، فلا يرونها مهمة إنما المهم عندهم الفكر، والعمل الفكري، والاهتمام بأمور النـاس، وهؤلاء لا يفتقرون إلى قلب سليم، أو نيـة حسنة أو روح دينية، وإنما يفتقرون إلى رؤية سليمة فقط من الممكن أن تتوضح لهم بسهولة. . فيفتح لهم ذلك الطريق إلى الله. . والنمو الروحي والوجداني. .

إن الأفكار والثقافة التي تتصل بالقرآن الكـريم، وكلمات الـرسول (ص) وأهل بيته وسيرته تصحح الكثير من الأفكار الخاطئة عن التربية الروحية، وعن الإسلام بشكل عام، وتصدر بالإنسان المسلم من منبع ثقافي أصيل، وتخلق له اطاراً ذهنياً، وشعـورياً يتعـامـل معـه. . وداخله، وهو إطـار يفترض المبـادىء الدينية، ويجعل من المؤمن يتعامل مع الأفكار من خلالها، وليس على حسابها، وهي أيضاً معايشة، ولقاء مستمر مع الله تعـالى، ومع القـادة الميامين الاطهـار (ع).

ومن الممكن هنا أن نسجل بعض الكتب في المج ل الأخلاقي والتربوي نرب من الضروري للإنسان المؤمن أن يتدارسها، ويتعامل معها باستمرار:

١ ـ أصول الكافي لثقـة الإسلام الكليني المتـوفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، والجزء الثاني منه بالخصـوص وهو يشتمـل على كتاب الإيمان، والكفر، كتاب الدعاء، كتاب فضل القرآن، كتاب العشرة.

٢ ـ وسائل الشيعة للحر العاملي، فإن فيه مجموعة كبيرة مفيـدة من هذه الناحية. . منها: ـ كتاب جهـاد النفس. . المذكـور في كتاب الجهـاد، وكتاب أبواب العشرة. . في كتاب الحج، كتاب جامع السعادات للنراقي، وهو كتاب أخلاقي إسلامي. . وهو على العموم كتاب نافع جليل، ومؤثر أريد به أن يكون رداً على الانحـراف الصـوفي والتحلل الـديني في آن واحـد، ولا يضـر في

الاستفادة من هذا الكتاب عدم ضبط رواياته، أو تأثره بالفلسفة الأغريقية وروحه الفردية أحياناً. لأنه كما قلنا نافع على العموم.. ومأمون الجانب في هذا المجال..

ومن الكتب النافعة وفي هذا المجال.. مجال الفكر الإيماني كتاب فلسفة الصلاة، ومكة في ضمير المسلم للشيخ علي الكوراني، وتذكرة الدعاء للبهي الخولي، والكتاب المسيحي، دائرة المعارف السيكولوجية المترجم في جزئين من قبل عبد اللطيف شرارة، وبعض آخر فإنه كتاب نفسي عملي ومفيد..

سادساً ـ مخالفة الأهواء ـ الصوم:

إن كل مؤمن له أهواؤه ـ قلت أو كثرة وهي قد تتعلق بالمال، الأكل والشرب، الجاه والمركز، التحكم والسيطرة على الآخرين، الخ. والهدف النهائي الذي يطمح إليه المؤمن هو إلغاء هذه الأهواء من نفسه، وتطهير مشاعره، ووجدانه ودوافعه منها تطهيراً كاملاً.

أما المهمة الأنية والملحة، فهي إضعاف تأثير هذه الأهواء على السلوك، والتحكم فيها، وعدم السماح لها بالسيطرة على النفس، بل عدم السماح لها بالنفوذ بأي شكل من الأشكال.. وبكلمة أخرى: إن المهمة الآنية للانسان المؤمن هي تأمين سيطرة الارادة الربانية على النشاط، والسلوك بحيث تكون مقدمة على الأهواء، والميول الذاتية في النفس..

والتحكم في الأهواء، والغاؤها نهائياً من صفحة النفس والشعور ينتج من مجموعة عوامل أهمها أو من أهمها.. مخالفة الهوى..

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾(*)

(*) سورة النازعات، آية ٤٠، ٤١.

وذلك لأن كل عاطفة، أو انفعال أو هوى، يضعف إذا لم تنفذ مطالبه، ولم يلب ما تقتضيه من تصرفات. .

وبكلمة أخرى: توجد لدينا حقيقتان ثابتتان:

١ ـ إن لكل عاطفة، أو هوى أو انفعال، تصرفاً يقتضيه وينتهي اليه، فحب المال ينتهي إلى الحفاظ عليه، وعدم التصدق به، وحب المركز يقتضي من الإنسان أن يحاول الظهور أمام الناس في المجالات الفكرية، أو الخطابية أو الدينية. .

٢ ـ أن الفصل بين الهوى، وبين نتيجته العملية، وعدم تلبية مطالبه إضعاف له، وزعزعة لسيطرته على النفس، وتحكمه في السلوك، وتقوية للارادة الربانية (الجهاز الحاكم في الشخصية الإسلامية). والفصل بين الهوى، ونتيجته العملية أمر ممكن لأن العلاقة بينهما علاقة (الاقتضاء) لا علاقة (اللزوم).

إن مخالفة الأهواء بالنسبة إلى الإنسان المؤمن العامل في سبيل الله هي من أهم مهامه الآنية. . لأنه أحوج من غيره إلى الارادة الحازمة، والقدرة على التحكم في الأهواء ومخالفة النفس. . إن خوف مقام الله تعالى، ومخالفة النفس، والصبر، واليقين، هي دعائم الشخصية الرسالية القيادية، أو من دعائمها المهمة، وقد بين الله تعالى، أنه قد جعل من بني إسرائيل أئمة لما صبروا، وكانوا بآياته يوقنون، والصبر هو الارادة الحازمة ضد ميول النفس، واتجاهاتها الذاتية، ولا يتم تكوين هذه الارادة إلا من خلال مخالفة النفس.

وللاسلام طريقته الخاصة في مخالفة الأهواء. . إن الصوفي لا يهمه أن يخالف هواه عن طريق القاء ماله في البحر. . أو عن طريق سرقة أموال الناس ليكتشفوه بعد ذلك فيهينوه، وتسقط هيبته من أعينهم فيعاف الظهور، والمركز، أو عن طريق الوقوف على رأسه إلى الصباح كما ينقل الغزالي ذلك في (إحياء علوم الدين) إن هذه الوسائل محرمة في نظر الاسلام، ولم ينزل الله بها من سلطان، قلنا فيما سبق أن من روائع الاسلام، ومن نعم الله تعالى، علينا أنه كما

حدد لنا الأهداف التربوية كذلك حدد لنا الوسائل ولم يتركنا للتخبط الصوفي، وترهات الغزالي، وأمثاله، أو إلى طريقة التأمل البوذي.. أو غير ذلك من محاولات هذا الكائن الجاهل الضعيف..

أمر الإسلام بالتحكم في النفس.. وأكد على ضرورة سيطرة الارادة الربانية ومخالفة الاهواء.. وحدد لنا الطريق..

لا ترمي مالك في البحر، ولا تبسط يدك كل البسط فتقعد ملوماً مدحوراً ولا تسرف لأن الله لا يحب المسرفين، ولكن أنفق العفو، واد الصدقات المستحبة والواجبة.. والإسلام يعي أن الهدف من الزكاة، والصدقة ليس هو إعانة الفقراء فقط ولكن تطهير الوجدان البشري من حب المال، وتمكنه من القلب.

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها...﴾(*)

ومن هنا فإن الإسلام في باب الصدقة أوجب الزكاة.. ولكن من جهة أخرى حث على الصدقة.. وكان هذا الحث بدرجة الاستحباب.. وهذا يعني أن الإسلام يريد من ذلك أن يكون طواعية، واختياراً ليكون أثر قدرة على التطهير والتزكية.. وحث إلى جانب ذلك أن تكون الصدقة سراً لأن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية.. وأكثر قدرة على تنمية الروح المخلصة والروح المرتبطة بالله.. ومن هنا كان على المؤمن أن ينفق عفو ماله، وفضله أن يتحسس حاجات أخوانه. وأن يحافظ على الطابع السري للانفاق قدر الإمكان.

ولم يرد الإسلام أن يعيش على مزابل الكلاب ليواجه بذلك أهواءه كما يقول الصوفي..

لا يكون الصوفي صوفياً حتى يجعل من زوجته أرملة، ومن أولاده أيتاماً، ويعيش على مزابل الكلاب.

(*) سورة التوبة، اية ١٠٣.

وإنمـا أمره إلى جانب الصـدقة، والإنفـاق السري أن يصـون لسانـه من الكذب، والغيبة، ومن محاولات الظهور والثرثرة، وأن تكون قاعدته الصمت إلا في موارد الحاجة والضرورة، وأن يتعلم الصوم المستحب. . الذي يكف به عن الشهوة ساعات. شهوة الجنس، وشهوة الطعام والشراب. . والصوم المستحب من أروع العبادات الإسلاميـة التي تربط الإنسـان بالله تعـالى، وتنمي الارادة، وتصعد من ملكة الصبر. . ومن أهم مجالات الصوم المستحب، صوم ثلاثة أيام في الشهر. . (أول خميس من الشهر، وآخر خميس، والأربعاء الوسطى) وقـد ورد الحث الشديد على ذلك في النصوص. . وهو من القدرات الروحية التي إن كانت مستحبة على الإنسان المسلم من زاوية شرعية، فهي إلزامية على الداعية من ناحية المنطق الأخلاقي، والروحية الإسلامية. . . لأن الـداعية يلزمـه أن يعد نفسه لتحمل القول الثقيل، والسيـر في طريق ذات الشـوكة، وأن يعـاني مرارة الاستقامة في خضم العمل الاجتماعي، وكل هذا لا يتم إلا من خلال التربية، والاعداد الروحي القائم على هذا ـ وأمثاله. . ومن عنـاصر الـداعية المسلم في هذا الميدان هو أن يتأمل ذاته، ويحسب نشاطاته، ويدرسها. . سيجد أن بعض التصـرفات تقـوم على أساس دواعي الهـوى ولم يقصد الله فيها، ولم يـذكـره أصلاً. . هنا يجب عليه، أو ينبغي له أن يتوقف موقتاً، وأن يتأمل قبل الأداء، فإن كان تصرفه، وموقفه ضرورياً من الناحية الشرعية أقدم عليه، وأداه مثاباً ماجوراً، وإن لم يكن موقفه ضرورياً من الناحية الشرعية، والـدعوتيـة تركـه، وأهمله. . خاصة في موارد التقييمات، والكلام على الناس، ومواجهتهم. .

سابعاً ـ المحاسبة، والنقد الذاتي:

١ ـ عن أبي الحسن علي الرضا (ع) قال:

«ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً أستزداد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه»(*)

(*) الاختصاص، للشيخ المفيد باب ٤ ح ٥١ ، ٢٧/ أصول الكافي ج ٢ باب ٢٠٣ ح ٢ .

٢ ـ عن أبي ذر (ره) في وصية النبي (ص) أنه قال:

«يا أبا ذر حاسب نفسك، قبل أن تحاسب، فإنه أهون لحسابك غداً، وزن نفسك، قبل أن توزن.. وتجهز للعرض الأكبر يوم تعرض، لا تخفى على الله خافية.. يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمن حلال أو من حرام، يا أبا ذر من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار»(*)

٣ ـ عن علي (ع) عن النبي (ص) قال:

«أكيس الكيسين من حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت فقال رجل: يا أمير المؤمنين كيف يحاسب نفسه؟ قال: إذا أصبح ثم أمسى رجع إلى نفسه وقال: يا نفسي إن هذا يوم مضى عليك لا يعود إليك أبداً. والله يسألك عنه بما أفنيته، فما الذي عملت فيه أذكرت الله أم حمدته، اقضيت حوائج مؤمن فيه، أنفست عنه كربه، احفظته بعد الموت في مخلفيه أكففت عن غيبة أخ مؤمن. أأعنت مسلماً. ما الذي صنعت فيه؟ فيذكر ما كان منه، فإن ذكر أنه جرى منه خير حمد الله، وكبره على توفيقه وأن ذكر معصية، أو تقصيراً استغفر الله ـ وعزم على ترك معاودته».

٤ ـ علي بن طاوس روينا في الحديث النبوي المشهور:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر»(٢١)

إن البناء الروحي.. وهو تمكين الايمان والارادة الربانية من النفس في فكرها، ووجدانها، ونشاطها.. لا يتم إلا من خلال تقوية الإيمان، والوجدان الاسلامية، والارادة الربانية من جهة.. والوعي الذاتي، ومعرفة حيل النفس،

(*) أمالي الشيخ الطوسي ج ٢ باب ١٩ ح ١.

(٢١) وسائل الشيعة جهاد النفس ج ٦ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

وأساليبها في الدفاع، ونقاط ضعفها من جهة أخرى. . وذلك لأن من الممكن أن تعمل الدوافع الذاتية في النفس من دون أن يشعر بها الانسان. والوعي الذاتي الشامل، ومعرفة النفس يتم من خلال ما يلي:

١ ـ دراسة النفس دراسة شاملة. . حيث يقوم المؤمن هنا بملاحظة ذاته من خلال تجربتها السابقة، وخبرته الطويلة بها. ويدرسها دراسة كاملة. . ويحدد ما فيها من نقاط ضعف، ونقاط قوة. . ويركز ذلك في ذهنه، أو يسجله في مذكراته. وتشمل هذه الدراسة الحالات كافة، الجانب الثقافي، والجانب الروحي والجانب العلمي. . الخ.

٢ ـ يراقب الانسان المؤمن ذاته، ويركز نظره عليها في نشاطها اليومي.

٣ ـ يحاسب ذاته محاسبة دورية يومية، أو أسبوعية، ويدرس في ذلك نشاطاته السابقة ما قدمه، وما خالف فيه، وما قصر عنه ويحدد ذلك. فيحمد الله، أن هو أطاع الله، وذكره، وتورع عن محارمه، ويتوب عما خالف. . ويعزم على الترك، ويبني نهجاً جديداً، وهكذا في كل دورة.

وليحذر المؤمن أثناء كل ذلك من خداع النفس، ومن غرورها، وعجبها فإنها أمارة بالسوء إلا ما رحم الله، مهلكه لصاحبها إلا ما وفق.

ثامناً ـ الاعتكاف(*):

عن أبي عبد الله (ع):

«كان رسول الله (ص) إذا كان العشر الأواخر (من رمضان) اعتكف في

(*) الاعتكاف: هو اللبث في المسجد بقصد العبادة من صلاة ودعاء، وغيرها، وأفضل وقت له هو الأيام العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك، ويشترط فيه، العقل، والايمان، النية، والصوم، وأن لا يقل عن ثلاثة أيام، أن يكون في أحد المساجد الأربعة (المسجد الحرام، مسجد المدينة، مسجد الكوفة، مسجد البصرة) أو في المسجد الجامع في البلد، وإذن ولي الأمر كالزوج لزوجته والولدين إلى ولدهما، والسيد لمملوكه واستدامة اللبث في =

المسجد وضربت له قبة من شعر، وشمر المئزر وطوى فراشه»(**).

وعنه (ع) عن آبائه عن رسول الله (ص):

«اعتكاف عشرة في شهرة رمضان تعدل حجتين، وعمرتين»(٢٢).

في الاعتكاف عناصر متعددة، وجهات كثيرة تمثل طابعه التربوي المتميز وفيه:

١ ـ التفرغ للعبادة وذكر الله. فالمؤمن في أيامه العادية بحكم ضرورات الحياة، وضرورات العمل لا يمكن أن يؤدي الكثير من المستحبات العبادية، ولهذا فهو يقتصر على مقدار قليل معين من العبادات أما الاعتكاف، فهو المكث في المساجد للعبادة.. فيه يتفرغ الانسان المؤمن، ويتنصل موقتاً عن الأشغال في الحياة الخاصة، والأعمال الاجتماعية ليؤدي لربه حقه.. ولنفسه حقها.. وهو عليه دورة تربوية ضرورية للانسان المسلم، يستزيد فيها من ذكر الله، ومعايشة تصوراته عن الكون، والحياة، والوجود، ويتذكر فيها أيام الله الخالية فتعيش روحه، وقلبه، بالنشاط العبادي المكثف الجديد على النفس الذي لم يتضرر بالألفة، وروتين العادة. واقتطاع هذه الأيام المعدودة ضروره تربوية من أجل الاعداد، والتركيز الروحي.. وهو نظام اختطه الله تعالى في منهجه التربوي لهذا الإنسان.

= المسجد وأن لا يخرج لغير الأسباب المسوغة للخروج وأن يترك خلال فترة الاعتكاف أموراً منها: مباشرة النساء ويلحق به اللمس والتقبيل وما شاكل، شم الطيب والريحان مع التلذذ، والبيع والشراء بل مطلق التجارة، والمحاراة في أمر دني أو دنيوي بداعي اثبات الغلبة وإظهار الفضيلة، لا بداعي إظهالأ الحق، ورد الخصم عن الخطأ، فإذا أفسد اعتكافه بعد يومين من بدءه بأحد هذه الأمور عليه إعادته واستئنافه قضاءاً، وله أحكام ومسائل تفصيله يفصل مراجعتها في الرسائل العملية للمراجع العظام.

(منهاج الصالحين، للإمام الخوئي في باب الاعتكاف).

(**) من لا يحضره الفقيه ج ٢ باب ١٥٦ ح ٢٠٨٧.

(٢٢) وسائل الشيعة باب من كتاب الاعتكاف.

٢ ـ مخالفة الأهواء . . متمثلة في الصوم إذ (لا اعتكاف الا بصوم) الذي يمثل مخالفة الهوى النفس في الأكل والشرب والجماع . . وفي الامتناع عن المراء، والجدال.

٣ ـ العزلة المؤقتة عن الناس، وأتاحة الفرصة لمراجعة النفس، ومحاسبتها واختبارها . . فأنت في خضم العمل الاجتماعي مملوك لمهماتك الاجتماعية . . وهذا ما يضعف من أصالة الفعل، وإيداع النشاط، ومن مراجعة الذات، وتقييمها وبالتنصل موقتاً من العمل الاجتماعي، وسفاسف الحياة الصغيرة، وحتى عن العمل الفكري يتيح للإنسان أن يراجع ذاته، وينظر في عيوبها، ويقيمها تقييماً شاملاً، ولينطلق بعد ذلك في مواقفه عن طواعية، واختيار، وتلقائية، وإخلاص وليزيد من تثبته الديني، وتركيز علاقته بالله تعالى وانقطاع رجائه، وانشداده إلى الناس، والأشياء والاهداف المرحلية اليومية.

ومن هنا كان الاعتكاف . . إحدى الضرورات الدورية المهمة للداعية يتخلى فيها عن رداءة التصرف، ويمحص ذاته من شوائب الرياء والسمعة والانشداد إلى الناس ويتجلى فيها الاخلاص، والتثبت، والتركيز، الديني . . تركيز العلاقة بالله تعالى . . ونشير أخيراً . . إلى أن الإسلام لا يشجع العزلة التامة المستمرة على الناس فإن في هذا إخطاراً كبيرة على النفس، وتتنافى مع ما يعده الإسلام للإنسان المسلم من أدوار اجتماعية، وعطاء اجتماعي متميز . . ولهذا يؤكد الإسلام في نصوص كثيرة على أن لا يكون الاعتكاف إلا في مسجد جامع تقام فيه الصلاة جماعة.

تاسعاً ـ نظرة عامة في الأساليب التربوية[٢٣] :

نلاحظ أن أساليب الاسلام في التربية أكثر مما ذكرنا . . ونحن هنا

(٢٣) مما وسف له أن هذا الموضوع قد سقط من الكتاب من خلال نقله من العراق إلى الكويت إلى إيران.

لخصناها بإيجاز. .

عن علي بن أبي طالب (ع):

«لا خير في العيش إلا لرجلين: رجل يزداد في كل يوم خيراً، ورجل يتدارك منيته (سيئته) بالتوبة»(*)

عن أبي عبد الله (ع):

«من استوى يوماه فهو مغبون. . ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو الى النقصان. . ومن كان إلى النقصان، فالموت خير له من الحياة»(*).

(*) ورد قريب الى معناه في «من لا يحضره الفقيه» ج ٤ باب ١٧٥ ح ٥٨٣٣.

«الختام»

إن موضوع (الاعداد الروحي) من أهم المواضيع الإسلامية العاجلة، لأنه الأساس الذي تقوم عليه التربية الإسلامية للانسان المسلم في كل جيل.. وأذ أنهي هذا البحث بحمد الله فإني أشعر بنواقصه التي أرجو أن تتدارك في المستقبل إن شاء الله.. إن التجربة الروحية شرط أساسي لنجاح مثل هذا البحث، وكذلك الأداء التربوي البليغ والمعاصرة الطويلة.. وكل هذه الشروط مما ينقص هذا البحث.. ولكن أتمنى أن يتناول هذا الموضوع رجال عرفناهم بتجربتهم الروحية السليمة، وقلمهم الاسلامي المعبر، وهمومهم الإسلامية وثقافتهم الواسعة.

وأسأل الله تعالى في الختام أن يعصمنا من الزلل، وأن لا يمقتنا لقول نطقنا به، ولم نفعله، وأن لا يجعل أعمارنا مرتعاً للشيطان، وأن يجعلنا من المعانين، والمجاهدين فيه والمهتدين إلى سبيله.. إنه سميع مجيب..

ليلة القدر المباركة ٢٣ / رمضان المبارك/ ١٣٩٨ هـ.

المحتوى

● الفصـــل الثـاني ●

الوعي الكوني والرؤى الفكرية

● الفصـــل الثـالث ●

العاطفة المبدئية والانفعال الرسالي

● الفصــل الرابع ●

العبوديـــــة